لجنة التأليف والترجمة والنشر

الهوامل والشوامل

لأبي حيان التوحيدي ومسكويه

نشره

أحمد أمين — السيد أحمد صقر

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٧٠ هـ — ١٩٥١ م


COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0038005514





لجنة التأليف والترجمة والنشر

الهوامل والشوامل

لأبي حيان التوحيدي ومسكويه

نشره

أحمد أمين   السيد أحمد صقر

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٧٠ هـ — ١٩٥١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كتاب « الهوامل والشوامل » فى الحقيقة كتابان لمؤلفين كبيرين ، أسئلة من أبى حيان التوحيدى سماها « الهوامل » ، وأجوبة من مسكويه سماها « الشوامل » ، ومعنى « الهوامل » الإبل السائمة يهملها صاحبها ويتركها ترعى . و « الشوامل » الحيوانات التى تضبط الإبل الهوامل فتجمعها ، وقد استعار أبو حيان كلمة الهوامل لأسئلته المبعثرة التى تنتظر الجواب ، واستعمل مسكويه كلمة الشوامل فى الإجابات التى أجاب بها فضبطت هوامل أبى حيان .

وقد رأينا كتاب « الهوامل والشوامل » مهملاً فى ثنايا الكتب فى مكتبة « أياصوفيا » بالآستانة لم يلق إليه أحد باله حتى المستشرقون ، وقد عثر عليه الأستاذ « محمد بن تاويت الطنجى » أثناء بعثته من الجامعة العربية إلى الآستانة لتصوير الكتب القيمة ، فكان هذا الكتاب مما صوره منها .

فلما اطلعت عليه فى القاهرة بعد حضوره أدركت قيمته ، وأنه يكشف عن نواح هامة من النواحى المجهولة من أبى حيان ومسكويه ، فآثرت نشره لإكمال هذا النقص .

ولست أطيل على القارئ فى ترجمة أبى حيان التوحيدى ومسكويه ، فقد ترجم له ترجمة وافية الأستاذ المرحوم القزوينى فى رسالة له وضعها عن أبى حيان بالفارسية . وترجم له أيضاً ترجمة وافية الأستاذ « عبد الرازق محيى الدين » فى كتابه عن أبى حيان . وكتاب روضات الجنات ترجم لمسكويه ، وكذلك الأستاذ

« عبد العزيز عزت » فى رسالته الجامعية عنه ، فلا نذكر هنا إلا بعض ما يدل هذا الكتاب على شخصيتهما .

فأولاً : يدل كتاب « الهوامل » على أن أبا حيان شخصية فلسفية طلَقة تستخلص الأسئلة من كل ما يقع أمامها سواء كانت المسائل خلقيـة أو اجتماعية أو لغوية أو اقتصادية أو نفسية . ففى كل ذلك يسأل ، وكثيراً ما تثير المسألة حولها جملة مسائل فيسأل عنها أيضاً ، حتى ليسأل فى دقائق الأمور مثل البيت الخالى من السكان كيف يسرع إليه الخراب أكثر من البيت المسكون وكان المظنون العكس (ص ٢٦٠) .

ثانياً : إن أسلوبه فى أسئلته أسلوب أدبى فنى رائع يمتاز حتى عن أسلوب مسكويه القلـق الذى يحوطه الغموض .

وثالثاً : إن أبا حيان كثير الشكوى من الزمان والسكان ، والشكوى من المجتدين قد تثير فى النفس عاطفة الحنو والرحمة ، وقد تثير عاطفة التقزز والاشمئزاز ، وهى فى ذلك كله تختلف باختلاف الشكل وأساليب الاستجداء ، فقد يكون الشكل باعثاً على العطف والرحمة ، وقد يكون باعثاً على النفور ، وكذلك أسلوب الاستجداء فقد يكون أسلوباً رقيقاً يستخرج العطف ، وقد يكون أسلوباً جافاً مشوباً بالإدلال والتعاظم فيثير السخط ويبعث على الحرمان . ويظهر أن أبا حيان التوحيدى كان من القبيل الثانى ، يريد أن يستعلى على المسئول وأن يفهمه أن هذا حق لا إحسان فنفّر من استجدائه منه . يظهر ذلك فى نفور الصاحب ابن عباد منه ، وحرمان الوزير ابن سعدان له ، وتقريع مسكويه له من الشكوى ، فقد شكا أبو حيان كثيراً فى أكثر ما ألف ، شكا فى الإمتاع والمؤانسة لأبى الوفاء البوزجانى ولابن سعدان ، وشكا فى الصداقة والصديق ، والمقابسات ، والبصائر والذخائر وشكا فى الإشارات الإلهية ، ونقم على الناس كثيراً وعد نفسه غريباً بين المواطنين فى خلقه وعلمه فأحرق كتبه حتى لا ينعمهم بها ، وشكا كثيراً لمسكويه

فقرعه مسكويه على شكواه إذ قال له (ص ١ ، ٢) « قرأت مسائلك التي سألتني أجوبتها في رسالتك التي بدأت بها فشكوت فيها الزمان ، واستبطأت بها الإخوان ، فوجدتك تشكو الداء القديم والمرض العقيم ، فانظر — حفظك الله — إلى كثرة الباكين حولك وتأس ، أو إلى الصابرين معك وتسل ، فلعمر أبيك إنما تشكو إلى شاك ، وتبكى على باك ، ففي كل حلق شجى ، وفي كل عين قذى ، وكل أحد يلتمس من أخيه ما لا يجده أبداً عنده ، ولو كان حد الصديق ما رسمه الحكماء حين قالوا : صديقك آخر هو أنت إلا أنه غيرك بالشخص ، فهيهات منه إنى لا أظن الأبلق العقوق ، والعنقاء المُغرِب والكبريت الأحمر أيسرُ مطلباً ، وأقرب وجوداً منه .

وبعد فإنى أرى لك إذا أحببت معايشة الناس ومخالطتهم وآثرت لذة العمر وطيب الحياة أن تسامح أخاك ، وتغالط فيه نفسك ، حتى تغضى له عن كل حق لك ، وترى له عليك ما لا يراه لنفسه ، وأن تأخذ بأدب بشار فإنه نعم الأدب وموعظة النابغة فنعمت الموعظة . ولا تعوّد عشيرك وجليسك استماع شكواك فيأنس به ثم لا يشكيك ، ولا تكثر عليه من العتب فيألفه ثم لا يعتبك .

هذا إن لم يكن عنده لك أكثر مما عندك له ، ولم تهجم منه على صدر مُحْنَش وغراً وقلب ممتلئ دِمناً ، فإنك حينئذ تهيج بلابله ، وتثير ضغائنه ، وتذكره ما تناساه كرماً أو تكرّماً ، وطواه حلماً أو تحلماً ، وهذا إن أنصفك فلم يتسرع إليك ، وصدقك فلم يتكذب عليك ، ومن عرف طبع الزمان وأهله ، وشيمة الدهر وبنيه لم يطمع في المحال ولم يتعرض للممتنع ، ولم ينتظر الصفو من معدن الكدر ، ولم يطلب النعيم في دار المحنة . وأنت إذا لم تجد من نفسك وهي أخص الأشياء بك مساعدة لك على رضاك ، ولا من أخلاط بدنك وهي أقرب الأمور إليك موافقة لهواك ، فكيف تلتمسها من غيرك وتطلبها من سواك ؟ استعذ بالله من الشيطان ووساوسه ، ومن دنس الجهل وملابسه ، واستعن بالله يعنك ،

واستكفه يكفك ، ولا قوة إلا به . هذا مبلغ ما رأيت من وعظك وحضرنى من نصحك ، وأرجو أن يوافق ما توخيته لك ورجوته فيك من القبول والامتثال ، إن شاء الله » .

رابعاً : يدل الكتاب على أن أبا حيان كان واسع الأفق متعدد النواحى ، وهو فى ذلك أيضاً يفضل مسكويه ، إذ كان أبو حيان فيلسوفاً مع الفلاسفة ، ومتكلما مع المتكلمين ، ولغويا مع اللغويين ، ومتصوفاً مع المتصوفين ونحو ذلك ، يتسع أفقه حتى يشمل البحث فى ذات الله وصفاته ، كما ورد فى المسألة (١٦) (ص ٥٥) « وعلى ذكر الله تعالى ، بم يحيط العلم من المشار إليه باختلاف الإشارات والعبارات ؟ أهو شىء يلصق بالاعتقاد ؟ أم هو مطلق لفظ الاصطلاح ، أم هو إيماء إلى صفة من الصفات مع الجهل بالموصوف ؟ أم هو غير منسوب إلى شىء يعرفان ؟ فإن كان منعوتاً بنعت فقد حصره الناعت بالنعت . وإن كان غير منعوت فقد استباحه الجهل ، وزاحم المعدوم . ولا بد من الإثبات إذا استحال النفى ، وإذا وقف الإثبات والنفى على المثبت النافى فقد سبق إذن كل إثبات ونفى . فإن كان سابقاً كل هذه الألفاظ وجميع هذه الأغراض فما نصيب العارف ؟ وما بغية ما ظفر به الموحِّد ؟ .

هيهات هيهات ! اشتد اللغط ، وكثر الغلط ، ورجع كل إلى الشطط ، وفات اللهُ الفهم والفاهم ، والوهم والواهم ، وبقى مع الخلق علم مختلَف فيه ، وجهلٌ اصطلح عليه ، وأمر قد تُبرِّم به ، ونهى قد ضُجر منه ، وحاجة فاتحة ، وحجة داحضة ، وقول مُزوّق ، ولفظ منمق ، وعاجل معشّق ، وآجل معوّق ، وظاهر مُلَفَّق ، وباطن ممزّق . إلى الله الشكوى من غلبات الهوى ، وسطوات البلوى ، إنه رحيم ودود » .

وكان مسكويه أضيق منه أفقاً ، كما كان أسوأ منه تعبيراً ، فليس له مجال كبير ، يجول فيه ويصول إلا فى الفلسفة ، وحتى فى الفلسفة لا يحسن الإلهيات

ولا ما وراء المادة ونحو ذلك ، وإنما يحسن الأخلاق إذ ألف فيها كتابه «تهذيب الأخلاق» والتدبير المنزلي ، والناحية العملية في فلسفة أرسطو لا في غيرها ، ويدل على ذلك قصوره فيما عداها .

ويظهر أن سن أبي حيان ومسكويه متقارب إلا أن مسكويه يكبره قليلا ، ولكن كانت شهرة مسكويه بالعلم أكبر من شهرة أبي حيان . وكان أغنى لأنه كان خازن بيت المال ، وخازن الكتب لعضد الدولة وعلى حد تعبيرنا الحديث وزيراً للمالية ومديراً لمكتبته ، وهذا يدر عليه كثيراً ، فيظهر أن طمع أبي حيان في علمه وماله قد ناله ، فعلل موضعه بالبخل والغباء ، إذ قال فيه في كتاب الإمتاع والمؤانسة (١ : ٣٥ ، ٣٦) «وأما مسكويه ، ففقير بين أغنياء ، وعيي بين أبيناء ، لأنه شاذ ، وأنا أعطيته في هذه الأيام (صفو الشرح لإيساغوجي) و«قاطيغورياس» من تصنيف صديقنا بالري ، قال : ومن هو ؟ قلت : أبو القاسم الكاتب غلام أبي الحسن العامري ، وصححه معي ، وهو الآن لائذ بابن الخمار ، وربما شاهد أبا سليمان ، وليس له فراغ ، ولكنه يحن في هذا الوقت للحسرة التي لحقته فيما فاته من قبل . فقال : يا عجباً لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل ، ورأى من كان عنده ، وهذا حظه . قلت : قد كان هذا ، ولكنه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبي الطيب الكيميائي الرازي ، مملوك الهمة في طلبه ، والحرص على إصابته ، مفتوناً بكتب أبي زكريا ، وجابر بن حيان ، ومع هذا كان إليه خدمة صاحبه في خزانة كتبه ، هذا مع تقطيع الوقت في حاجاته الضرورية والشهوية ، والعمر قصير ، والساعات طائرة ، والحركات دائمة ، والفرص بروق تأتلق ، والأوطار في عرضها تجتمع وتفترق ، والنفوس على فوائتها تذوب وتحترق ، ولقد قطن العامري الري خمس سنين جملة ، ودرس وأملى ، وصنف وروى ، فما أخذ مسكويه عنه كلمة واحدة ، ولا وعى مسألة ، حتى كأنه بينه وبينه سد ، ولقد تجرع على هذا التواني الصاب والعلقم ، ومضغ بفمه حنظل الندامة في نفسه ، وسمع بأذنه قوارع الملامة

من أصدقائه حين لم ينفع ذلك كله. وبعد فهو ذكي حسن الشعر، نقي اللفظ، وإن بقي بقاءه يتوسط هذا الحديث. وما أرى ذلك مع كلفه بالكيمياء، وإنفاق زمانه، وكد بدنه وقلبه في خدمة السلطان واحتراقه في البخل بالدانق والقيراط والكسيرة والخرقة: نعوذ بالله من مدح الجود باللسان، وإيثار الشح بالفعل، وتمجيد الكرم بالقول ومفارقته بالعمل، وهذا هو الشقاء المصبوب على هامة من بلي به، والبلاء المصبوب ناصبة من علق عليه».

ولا ندري كيف وصفه بالذكاء والغباوة معاً، إلا أن يكون يريد بوصفه بالذكاء في بعض مواضع، وفي بعض فروع من العلم كالأخلاق والطب، وغباوته في بعض مواضع كالإلهيات والمنطق، وقد وافقه على ذلك ابن سينا فقد حكى ابن سينا في بعض كتبه: إنه ألقى إليه جوزة كانت في يده وقال: بين لي مساحة هذه بالشعيرات، فألقى إليه ابن مسكويه أوراقاً وقال له: أصلح بهذه أخلاقك حتى أجيبك إلى بعض ما تريد. ونستخلص من هذه القصة تقصير مسكويه في باب الرياضة، ومهارته في الأخلاق.

وقد قال ابن سينا أيضاً في بعض مسائله: إن هذه المسألة حاضرت بها أبا علي مسكويه فاستعادها كرات، وكان عسر الفهم، وتركته ولم يفهمها على الوجه الصحيح.

* * *

وقد عمر الرجل طويلاً، فقد مات في صفر سنة ٤٢١ هـ عن نيف وتسعين سنة كما ذكر القزويني، وقال في روضات الجنات: إن أبا علي مسكويه عاش طويلاً حتى سئم الحياة، ولم يعد يقدر على الحركة، وفي بعض أشعاره إشارة إلى ذلك وقد مات سنة ٤٢١ هـ فيكون مسكويه يكبر أبا حيان فيما يكبره بسنين قلائل، ولكن كان له من الحظ والمجد ما لفتت إليه الأنظار أكثر من أبي حيان.

ويظهر أيضاً أنه لما لم يجد بغيته العلمية والمالية عند مسكويه اتجه إلى أبي سليمان المنطقي الذي يشاركه في البؤس، ولكن يفوقه في العلم، وكان اتصاله هذا بعد اتصاله بمسكويه بدليل ما جاء في كتاب المقابسات من أنه سأل أبا سليمان المنطقي عن مسألة فأجابه عنها بجواب غير التي ورد ذكرها في كتاب «الهوامل والشوامل»، وقد أعجب بعقلية أبي سليمان وعلمه أكثر جداً مما أعجبه مسكويه، وقد لازمه طويلاً ووصفه بما هو به كما في الإمتاع والمؤانسة إذ يقول (١ : ٣٣) «أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقهم نظراً، وأقعرهم غوصاً، وأصفاهم فكراً، وأظفرهم بالدرر، وأوقفهم على الغرر، مع تقطع في العبارة، ولكنة ناشئة من العجمة، وقلة نظر في الكتب، وفرط استبداد بالخاطر، وحسن استنباط للعويص، وجرأة على تفسير الرمز، وبخل بما عنده من هذا الكنز»

واستفاد منه كثيراً. وكان أبو حيان وسيطاً له عند الوزير ابن سعدان، إذ منحه مائة دينار قضى بها دينه في أجرة بيته كما ذكر في الإمتاع (١ : ٣١).

وقد سبق أن بينا ما استفاده أبو حيان من أبي سليمان في كتبه.

ويظهر أن أبا حيان قد وجه إلى مسكويه أسئلته كلها دفعة واحدة، فأجاب مسكويه عنها جملة متفرقة على كل سؤال جواب، وأن أبا حيان عنون كل سؤال بمسألة خلقية أو طبيعية أو إرادية أو اختيارية، ويعني بالاختيارية ما كانت المسألة فيها من حيز الشخص أن يفعله أو لا يفعله، كأن يكون غنياً فيبخل أو يكرم، وأن يكون غضوباً فيغضب أو يحلم؛ ويعني بالإرادية المسائل التي يسأل فيها لم لم يرتكب عن ارتكاب، وهكذا. وأن مسكويه قد تصرف في الأسئلة، فأجاب لا بنصها كما وردت في الأصل، بل أحياناً يشير إلى قسم منها ويترك القسم الآخر، كما في المسألة الرابعة إذ يقول (ص ٢٦) «ثم سمت المسألة من نقص الإنسان وذمه وتوبيخه، ما أستغني عن إثباته».

وكما في المسألة (٣٥) ص ١٠٨ «وحكاية طويلة في إثر هذه المسألة عن شيخ

فاصل مقرظ وجوابات له » وفى المسألة (٦٨) ص ١٨٠ « ثم حكيت حكايات ليس له عناء فى المسألة فنشتغل بالجواب » .

وفى المسألة (٨٣) ص ٢٠١ « ثم حكيت الحكاية عن ابن إسماعيل فى قصة الزعفرانى » .

وفى مسألة (٨٦) ص ٢٠٨ « إلى ما يتصل به من كلامك مما لم أحكه ، إذ كانت المسألة هى فى قدر ما خرج من حكايتى » .

وأحياناً يحذف من السؤال ما لا يستحسنه أو ما يعجز عن الإجابة عليه كما فى ص ١٨٢ .

* * *

ويظهر لنا إذا أردنا أن نؤرخ كتب أبى حيان المتداولة بيننا وجدنا أولها الهوامل ، ولا ندرى موضع كتاب الإشارات الإلهية من هذه الكتب إلا أننا نستنتج أنه متأخر لنضج تعبيره ومعانيه ، وتعمقه فى التصوف . ثم الإمتاع ، ثم الصداقة والصديق ، وفى غضون ذلك ألف البصائر والذخائر لأنه ذكر فى مقدمته أنه بدأ به سنة ٣٧٥ وأتمه بعد خمسة عشر عاماً . ثم المقابسات لأنه ذكر الهوامل والشوامل فى المقابسات . وذكر أنه ألف لابن سعدان كتاب الإمتاع والمؤانسة سنة ٣٧٤ وألف الصداقة والصديق لابن سعدان أيام كان وزيراً وكانت مدة وزارته من سنة ٣٧٣ إلى سنة ٣٧٥ هـ وأياً ما كان فالكتاب عظيم القيمة ، إذ يدل على نوع المشاكل التى كانت تشغل بال المفكرين فى القرن الرابع الهجرى فى العراق ، كما تدل فى كثير من الأحيان على الحالة الاجتماعية التى كان يحياها الناس .

وكثير من الأسئلة والأجوبة كان يحتاج إلى تعليقات طويلة ، أو إلى أجوبة غير التى أجيب بها طبقاً لعلم النفس وعلم الاجتماع كما وصلا إليه اليوم ، ولكن

أمّا أن نعرف هذا الكتاب بتعليقات، وترك الحرية لكل قارئ في التعليق
عليه حسبما يرى، وعلى قدر عقله هو.

ومن بديع أسئلته سؤاله رقم ١٥٣ عن المسألة الواحدة يكون فيها حكمان من
فقيهين، أحدهما يحلل والآخر يحرم. ومن بديع الجواب أن المسألة الواحدة قد
يختلف حكمها باختلاف الزمان والمكان والعادة ومصالح الناس، فقد تكون
المسألة حلالا في زمان ومكان، حراما في غيرهما؛ كالذي روى أن أبا حنيفة أفتى
بأن من غصب ثوبا فصبغه بالصبغ الأسود كان قد قلل قيمته، بينما أفتى أبو يوسف
بأن من صبغه بالأسود فقد زاد من قيمته. والسبب في ذلك أن أبا حنيفة أفتى
في زمان لم يتخذ فيه العباسيون السواد شعارا لهم، وأفتى أبو يوسف في زمان اتخذ
فيه السواد شعارا.

ومن بديع الجواب أن الحكم يدور مع المصلحة، فقد تكون المصلحة
موجبة للتحليل حينا، وقد تكون موجبة للتحريم حينا آخر. ومن الأقوال
الشائعة أن الضرورات تبيح المحظورات.

ويتفرع من هذا أن كل مجتهد مأجور، وذلك في بحث لطيف.

ومن بديع الجواب أيضا ما ذكره مسكويه من أن الاجتهاد قد يستحسن لذاته،
كضرب الكرة بالصولجان، فلا يضر الضارب أن يخطئ الكرة ولا ينفع أن يصيبها
وإن كان الحكم قد أمر بالضرب والإصابة لأن غرضه من ذلك الرياضة بالحركة،
وكذلك الحكم إذا دفن في تربة دفينا وأمر الناس بطلبه والبحث عنه، وغرضه
في ذلك حمل الباحثين وتشجيعهم ليعرف مقدار اجتهادهم، فقد حصل المقصود
وجدوا الدفين فيما بعد أم لم يجدوه. وكما يطلب من المتعلم حل نظريات أو تمرينات
هندسية أو مسائل عويصة في الترجمة، فإن الغرض يحدث من حلها؛ لأن الغرض
هو تمرين الذهن في حل هذه المشكلات وقد حصل.

وهو خطر جديد — فيما نعلم — في قيمة الاجتهاد .

وسؤال آخر وهو رقم ١٤٧ يدل على أن أبا حيان قد يُسْأَلُ من طالب آخر ، فيحيل السؤال على مسكويه بعد أن يجيب هو نفسه ، ليرى هل يجيب مسكويه بنفس الإجابة ، أو يجيب إجابة أخرى فيتعدد الجواب ، وفي ذلك مصلحة . وقد سأل أبا حيان سائل : هل تخرج الشريعة عن مقتضى العقل فإن لم تخرج فكيف يصح ذبح [illegible] ، وإيجاب الدية على العاقلة ؟ وقد أجاب مسكويه بأن من المحال أن تخرج الشريعة عن مقتضى العقل ، لأنها وضعت لمصلحة الناس ، فإن [illegible]

[illegible]

وقد [illegible] في [illegible] من [illegible] الصحيح . وقد وقف أبو حيان ومسكويه في [illegible]

[illegible]

[illegible] محهولا له [illegible]

[illegible] الاقتصادية والاجتماعية والطبيعية وغيرها . فاعلم اليوم خبرًا من حال العراق في زمانه . خذ لذلك مثلا السؤال الذي سأله أبو حيان عن أن السحاب يبرق ويرعد ، فترى

البرق قبل أن نسمع الرعد (ص ٣٦٥) وهي ملاحظة صحيحة ، وقد أجاب مسكويه إجابة غلط ، وهي ظنه أن الهواء يستحيل إلى ضوء فنراه بمجرد ظهوره ، وأما الرعد فينتقل حسب الموجات كأمواج البحر . مع أننا نعلم اليوم أن كلا من الرعد والبرق ينتقل إلينا بواسطة موجات ، ولكن بعض الموجات أقصر من بعض ، كما نلاحظ في موجات الإذاعة ، فبعضها قصير وبعضها طويل ، وبعضها سريع وبعضها أسرع ، فكل من الرعد والبرق ينتقل إلينا عن طريق موجات ، ولكن أمواج النور أسرع من موجات الصوت ، ولذلك يقولون إن الشمس تطلع ولكن لا يصل إلينا ضوءها إلا بعد ثمانى دقائق من طلوعها ، ويذكر الفلكيون أن بعض النجوم بعيد عنا جدا حتى لا يصل إلينا ضوءه إلا بعد مائة عام . وكانت هذه الظاهرة إحدى الظواهر على مقياس البعد بيننا وبين نجم معين ، فنحسب كم من الزمن وصل إلينا الضوء ، وما سرعة الضوء ، وعلى هذين المقدمتين نبنى حسابنا

وكذلك الشأن فيما أجاب عنه في المسائل الاقتصادية والاجتماعية والنفسية ، فقد كانت دائرة العلم في زمنه ضيقة ، فكانت تتسع كل يوم بالاستكشافات الجديدة ، وخصوصا في القرون الأخيرة ، حتى أصبحت إجابات مسكويه إجابات تستخرج الضحك أحيانا ، وقد كان من الممكن أن نقف عند كل إجابة لنبين ما يقوله العلم الحديث فيها ، ولكن منعنا من ذلك موانع : أحدها أننا لم نرد أن نثقل الكتاب الأصلي بحواشينا ، وثانيها أننا لا نستطيع أن ندعى العلم الواسع بالنفس والاقتصاد والطبيعة والكيمياء ، كما فعل مسكويه ، فإن هذه العلوم اتسعت حتى لا يستطيع أن ينهض بها إلا العصبة أولو القوة . وثالثها أننا لا نريد أن نقع في الخطأ الذي وقع فيه مسكويه ، فسيقرأ الكتاب من بعدنا ، وسيكون العلم قد تقدم أكثر مما عندنا ، فيضحك من إجاباتنا أحيانا كما نضحك من إجابة مسكويه ، ولهذا نحترس حيث أهمل ، ونتقيد حيث أطلق .

ونلاحظ أن فى المسألة رقم ١٧٥ سقطا بدرى فى آخر الإجابة عليها كلاما لا يتصل بموضوع السؤال . وجميع المسائل الساقطة نحو خمس مسائل ، فقد جاء فى الصفحة الأولى التى فيها عنوان الكتاب « كتاب الهوامل والشوامل ويشتمل على مائة وثمانين مسألة ، الهوامل من سؤال أبى حيان على بن محمد الصوفى ، والشوامل ووضع الكتاب والأجوبة من تأليف أبى على أحمد بن يعقوب بن مسكويه » فإذا كنا قد بلينا بفقد هذه المسائل وأجوبتها فلله الحمد على ظفرنا بما عداها . ومما هو جدير بالذكر أن الصفحة الأولى قد كتبت عليها عدة تملكات كثيرة بعضها غير مؤرخ وبعضها مؤرخ ، ولكن لم يتضح تاريخه ، والذى يعنينا منها جميعا التملك الأول لأهميته التاريخية ونصه « ملكه من كرم الله تعالى محمد بن إبراهيم . . . لطف الله به وعفى عنه سنة ٤٤٠ » وهو يدلنا على قدم هذه النسخة .

فهذا الكتاب ، وكتاب المقابسات ، وكتاب الإمتاع والمؤانسة صورة صادقة للحياة الاجتماعية فى ذلك العصر من بخل غنى ، وفقر عالم ، وغنى جهول ، وسلطان وزير ، وقتله من يد أمير ، وهكذا

هذا إلى الطرف النادرة ، والنوادر المستملحة ، والقصص الممتع ، والرأى الحصيف ، ويشترك فى هذا الأخير أيضاً كتاب « البصائر والذخائر » الذى سنتولى نشره قريباً إن شاء الله ، بالاشتراك مع الأستاذ « السيد أحمد صقر » .

* * *

والنسخة التى بأيدينا ، والتى نشرنا عنها هذا الكتاب هى فيما نعلم النسخة الوحيدة فى العالم حتى لم يرد ذكرها فى كتب العلامة الفاحص (بروكلمان) ولم يرو لنا فى كتابه القيم الواسع عن نسخ من هذا الكتاب ، وإذا وقع فيه بعض الأخطاء

وبعض الغموض فعذرنا أننا لم نعثر على نسخة أخرى فى مكاتب العالم يصح أن نرجع إليها ، وأن نصحح ما ورد من الأخطاء فى هذه النسخة .

* * *

وقد شاركنى فى إخراج هذا الكتاب الأستاذ « السيد أحمد صقر » بل كان نصيبه من تصحيح الكتاب والتعليق عليه أكثر مما لى . فله جزيل الشكر على ما قام به .

وإنا نشكر كل الشكر من دلنا على خطأ أخطأناه ، أو زلة زللناها ، والله الموفق للصواب .

القاهرة فى يوم الاثنين { ٢٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٠ هـ
١ يناير سنة ١٩٥١ م }

أحمد أمين



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

أعانكَ اللهُ على دَرَكِ الحقِّ، وشرح صدرك له، و[illegible] من [illegible](١)
الباطل، وصرفَ وجهك عنه، ووهب من لطف حفظك، وأجزل من معروف
قِسْمك(٢)، وجعل لك في السعادة نصيبًا من [illegible]، وعلى الخير دليلًا من
نفسك، ورغّبك في عيب الإنصاف والتسليم للحق، وكرّه إليك الظلم والمراء في
الباطل، وآثرك دون أحكامه، ووقاك غوامض الهم، وألهمك كلمة
العدل تؤثرها في سرك وجهرك، ووفقك عنده في قولك وفعالك.

قرأتُ مسألتك [illegible] في [illegible] التي [illegible] فشكوتَ فيها
الزمان، واستبطأت بها الإخوان، فوجدتك تشكو الداء المديد والمرض المقيم،
فانظر حفظك [الله](٣) إلى كثرة الباكين حولك وقلتهم، وإلى الضارين
معك وتسلَّ، [فلعمر أبيك](٤) إنك تشكو إلى شاك، وتبكي على باكٍ(٥)، وفي
كل حلق شجى، وفي كل عين قذى(٦)، وكلٌّ [illegible] من أخيه
ما لا يجده عنده، ولو كان أحد(٧) لصديق من [illegible] حين دوا.

---

(١) في الأصل: «واعان عه».
(٢) القسم والقسمة بالكسر: [illegible]
(٣) مكان [illegible] في الأصل
(٤) في الأصل «[illegible]».
(٥) [illegible] «علا».
(٦) في الأصل «[illegible]».
(٧) مكان [illegible] في الأصل

[٢ - ب] الصديق آخر هو أنت، إلا أنه غيرك بالشخص(١). فهيهات منه، بل لا أظن الأبلق العقوق(٢)، والعنقاء المغرب(٣)، والكبريت الأحمر(٤) أيسر مطلباً، وأقرب وجوداً منه.

وبعد: فإني أرى لك إذا أحسنت معيشة الناس ومخالطتهم، وآثرت لذة العمر وطيب الحياة، أن تسامح أخاك، وتعد فيه بسمتك، حتى تغضي به عن كل حق لك، وترى له عليك ما لا تراه منه، وأن تجد [illegible] شار فيه نعم الأدب(٥). وموعظة [illegible] فعمت موعظته(٦)، ولا تعود عشيرتك، وحسبك استمتع شكواك فيمن به، ثم لا يشكيك(٧)، ولا تكثر عليه من [illegible] فيملّه ثم لا يعتبك(٨).

---

(١) نسب أبو حيان هذا القول إلى أرسطاطاليس وعلل شرحه عن أستاذه أبي سليمان المنطقي، في كتاب الصداقة، صفحتي ٢٣ – ٢٨.

(٢) في مثل [illegible] والأبلق [illegible] [illegible] فلا يكاد [illegible] [illegible] ويقول: [illegible] ويضرب هذا مثلاً لمن طلب شيئاً لا يكون أبداً، قال الشاعر:

[illegible] الأبلق [illegible] [illegible] أبوش

(٣) [illegible] ولا [illegible]

(٤) [illegible]

(٥) يريد أبيات المشهورة:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحداً أو صل أخاك فإنه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ... ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

(٦) [illegible]

ولست بمستبق أخاً لا تلمه ... على شعث أي الرجال المهذب

(٧) أشكاه: أزال شكواه.

(٨) أعتبه: أزال [illegible] عتبه وغضبه وأرضاه.

هذا إن لم يكن عندك أكثر من سداده، ولم تجر منه على حسب محتش
[illegible][1]، ووقت مثلي دمثا[2]، فبت حينئذ ستبيح ملامته، وتشتم صنعته،
وتذكره بسداد كرم وتكرم، وصدود جد وخد، وهذا إن تصفحت
[illegible] إليك، وصدقت في سكنات عينك، ومن عرف طبع الزمان
وعده، وشيمة الدهر وسببه، لم يطمع في المحال، ولم يتعرض للممتنع، ولم ينتظر
الصفو من معدن الكدر، ولم يطلب معنى في دار المحنة

[٣-١]

وأنت إذ لم تجد من نفسك — وهي أخص الأشياء بك — مساعدة لك
في رضاك، ولا من أخلاطك بدنك — وهي أقرب الأمور بك — موافقة لهواك،
فكيف تلتمس من غيرك، وتطلب من سواك.

استعذ بالله من الشيطان ووسوسته، ومن دنس الجهل وملابسه، واستعن بالله
بك، واستكفه بكفايته، ولا قوة إلا به.

هذا مبلغ ما رأيت من نصحك، ومحض [illegible] من نصحك، وأرجو أن يوفق
[illegible] توحشه لك، ورجوت فيك من القبول والامتثال إن شاء الله.

* * *

وهذا أحد في أجوبة مسائلك التي سميتها «هوامل»[3] ومجتهد في ردها
عليك [illegible] حصة، وولاة متفلة، مخوفة العقال، موسومة الأغفال[4]، ومؤمل

(١) محتش [illegible]، والباء [illegible]
(٢) الدمث [illegible] [illegible]
(٣) الهوامل جمع هاملة [illegible]
(٤) [illegible] عنها [illegible]
[illegible] كونه [illegible] عنها [illegible] حفظه [illegible] أصحابه [illegible]

أن تخدمها من الحكمة صانتك ، ومن العلم بغيت وطلبت ، فتقضي بعد الظفر منها إلى برد اليقين فيها إن شاء الله .

* * *

وشرطنا إذا تكلمنا في مسألة أن نبين غويصها ، ونشرح مشكلها ، فإذا ساق ذلك الكلام مسوق إليه مقرر ، وأصل محكوم به مثبت ، قد شرحه غيره و[illegible] ، لا سيما من مشتبه بالحكمة ، على الدرجة فيه [illegible] ، وذلك [٣٠٠ ب] على موضعه . فإني رأيت فعل ذلك أولى من تكلف شرحه ونقله والتكلم به ، مع ذكر به (١) [illegible] واختصارا ، وبالله التوفيق .

---

(١) أي مع ذكري له .

بسم الله الرحمن الرحيم

المسألة الأولى وهي لغوية

[illegible]

وعلى هذا فما الفرق بين الغرض والمعنى والمراد، وما هو ذا وقد تقدم آنفا؟

وما معنى أوضح الفرق بين نطق وسكت، وأبين الفرق بين نطق وتكلم،

وبين سكت وصمت؟

الجواب

قال أبو علي أحمد بن محمد مسكويه:

[illegible]

[illegible]

[illegible] [٤ - ب] [illegible]

وهذه المعونات [illegible] المقتسمة بين الناس، التي بها [illegible] قوامهم، وتتم حياتهم، وتحسن معيشتهم، هي [illegible] وغيرها من أمور مختلفة، وأحوال غير متناهية، وهي كثيرة غير متناهية، وربما كانت حاضرة فصلحت الإشارة إليها، وربما كانت غائبة فلم تمكن الإشارة فيها، فلم يكن بد من أن يفزع إلى حركات بالصوت دالة على هذه المعاني بالاصطلاح، ليستدعيها بعض الناس من بعض،

ولتعاون بعضهم بعضاً ، فيتم لهم البقاء الإنسانى ، وتكمل فيهم الحياة البشرية .
وكان[1] البارى — جل وعز — بلطيف حكمته ، وسابق علمه وقدرته ، قد
أعد للإنسان آلة هى أكثر الأعضاء حركة ، وأوسعها قدرة على التصرف ،
ووضعها فى طريق الصوت [ووضع][2] مواقف تقطيع ما يخرج منه مع النفس ،
ملائمة لنوع الدلالات اللازمة [illegible] فى تمام الكلام — كانت هذه الآلة أحذق
الأعضاء باستعمال أنواع الحركات المظهرة لأجناس الأصوات الدالة على المعانى
التى ذكرناها . وقد بلغت عدة هذه الأصوات مفردة منقطعة بهذه الحركات المسماة [١-٥]
حروفاً ثمانية وعشرين حرفاً فى لغة العرب . ثم كانت كلها ثنائية وثلاثية
ورباعية ، وجميعها متناهية محدودة ، لأن أصولها [illegible] محصورة معدودة ،
فما تركب منها أيضاً محصورة معدودة .

ولما كانت قسمة المعانى وجب فى نفس الكلام إذا نظر إليه بحسب دلالتها
على المعانى أن يكون على أحوال خمس لا أقل منها ولا أكثر وجدت منقسمة
بينها لا غير ، وهى : أن تتفق الألفاظ والمعانى معاً ، أو يختلفا معاً ، أو تتفق الألفاظ
وتختلف المعانى ، أو تختلف الألفاظ وتتفق المعانى ، أو تتركب بنطقه فيتفق بعض
حروفه وبعض المعنى ويختلف فى الباقى .

وهذه الأنماط الخمسة[3] هى التى عدها « الحكيم »[4] فى أول كتبه المنطقية ،
وتكلم عليها المفسرون وسموها : متفقة ، ومتباينة ، والمتواطئة ، والمترادفة ، والمشتقة ،
وهى مشروحة هناك ، وكان السبب الذى من أجله احتيج إلى وضع الكلام

---

(١) معطوف على قوله « ولما كان [illegible] » يريد : ولما كان البارى جل وعز قد أعد للإنسان آلة [illegible] كانت هذه الآلة أحذق الأعضاء الخ
(٢) زيادة يوجبها السياق .
(٣) فى الأصل « خمس » .
(٤) يريد به أرسطاطاليس .

يقتضي قسماً واحداً منها ، وهو أن تختلف الألفاظ بحسب اختلاف المعاني ، وهي المسمّاة المتباينة ، فإن الأقسام الباقية فإن ضرورات دعت إليها ، وحاجات بعثت [٥-ب] عليها [illegible] القصد الأول ، وسنشرح ذلك بعون الله وتوفيقه .

وقد تقدم أن المعاني والأحوال التي تعرض للنفس كثيرة جداً ، وأنها بلا نهاية ، وأن الحروف الموضوعة [illegible] ومركبات منها ، متناهية محصورة [illegible] ومن الأحكام [illegible] العقول أن [illegible] لا [illegible] ، فمن هاهنا حدث [illegible] كثيرة ، كلفظة العين [illegible] (١) ، [illegible] كثيرة جداً

[illegible] الإشكال [illegible] في الأقوال والاعتقادات [illegible]

[illegible] وصناعة الشعر [illegible] في موقعه [illegible] على [illegible] ، [illegible] للمعنى الواحد [١٠-٦] على [illegible] في [illegible] فاستحسنوا إعادة [illegible] الشعر [illegible] مع ذلك [illegible] الحاجة إلى لفظ [illegible] مكان لفظ دال على معناه [illegible] به قسم كلامه .

(١) [illegible]

(٢) [illegible] إحدى كلمتيه ترجع على الأخرى

فاحتيج لأجل ذلك إلى أسماء كثيرة دالة على معنى واحد .

وهذا الغرض [illegible] الألفاظ المترادفة [illegible] مناسب[1] للقصد الأول

في وضع الكلام ، مخالف له ، وقد دعت الحاجة إليه كما تراه ، ولولا حاجة الخطباء

والشعراء ، وأصحاب السجع والموازنة إليه لكان لغوا باطلا .

ولما كانت المسألة متعلقة بهذين القسمين من الكلام اقتصرنا على شرحهما ،

[illegible] على الكتب المصنفة فيها

[illegible]

[illegible] في [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] [٦ ب]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] معنى واحد .

وكذلك [illegible] ، وأشباهها .

(١) [illegible]

وأنت إذا أنعمت النظر ، واستقصيت [illegible] وجدت هذه الأشياء مختلفة المعانى ، ولكنها لما كانت أوصافا لموصوف واحد أُجريت مجرى الأسماء الدالة على معنى واحد ، وذلك عند اتساع الناس فى الكلام ، وعند حاجتهم إلى التسمّح وترك التكلف والتحرير فى كثير من الحقائق

ولا يخفى على ثقافة فطنتك ، وإحاطة معرفتك ، وسرعة تطلعك وهجومك على على ما [illegible] به لكشفت لك الفرق بين معانى ألفاظ الخمر والشراب والشمول والراح والقهوة ، وما [illegible] ، وبين معانى ألفاظ السيف والصمصام والحسام و[illegible] ، وكذلك فى [illegible] ، و[illegible]

[٧-] [illegible] وكثير حيث [illegible] فيه

[illegible] إذا وجد [illegible] ومعنى [illegible] أو متقاربة [illegible] ،

[illegible] على موضع [illegible] فى المعنى [illegible] الألفاظ [illegible] اللغة وموجب الحكمة فى [illegible] الكلام ، [illegible] من الألفاظ [illegible] التى [illegible] باختلاف المعانى .

و[illegible] ، و[illegible] فى [illegible] سؤال [illegible] وشك مشكل .

فإن لم [illegible] موضع الخلاف فى المعنى [illegible] على الأصل الأحد ، و[illegible] إلى قسم [illegible] من الضرورة الداعية فى الشعر والخطابة إلى استعمال الألفاظ [illegible] على معنى واحد .

* * *

وما وجدت المؤلفات التى صنفت فى هذه [illegible] قد مثّل فيها ألفاظ [illegible] الكلام فيها يستعين بها على [illegible] ، وهى عند التصحيح كثيرة واسعة جدا ، والله الموفق .

أما الفرق بين العجلة والسرعة[1] ، فإن العجلة على الأكثر تستعمل في الحركات الجسمية التي تتوالى ، وأكثر ما تجيء في موضع الذم ، حيث تقول الرجل : عجلت عليّ وعجل فلان على فلان[2] فيفهم منه الذم ، وأنت لا تفهم منه شيئاً من أسرع فلان [٧-ب]

وأيضاً فإنك لا تسمع الأمر من العجلة إلا [illegible] ، ولا تقول [illegible] الآن هو [illegible]

[illegible] السرعة [illegible] محمودة ، وأكثر ما تجيء في الحركات [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وهذا [illegible] صحيح [illegible] الكلام [illegible]

[illegible] الأخرى .

وأما [illegible] الفرح [illegible] الفرق بين السرور والفرح [illegible] الأشر [illegible] والفرح لا يستعمل [illegible]

[illegible] السرور [illegible] ووضوح الفرق [illegible]

[illegible] إلى تكلف شرح [illegible]

1) [illegible] أبو هلال العسكري في كتاب الفروق اللغوية ص ١٩٨ [illegible] السرعة والعجلة [illegible] محمودة [illegible] مذموم [illegible] والعجلة [illegible] محمودة ، وهو [illegible] قوله تعالى « وعجلت إليك رب لترضى » [illegible] أسرعت »

[٨-١] فأما السرور والفرح (1) وإن كانا متقاربين في المعنى فإن أحدهما وهو السرور لا يستعمل إلا [illegible] وما [illegible] فهو [illegible] يحدث [illegible] من غير [illegible] . [illegible] على [illegible] ذكرناه ، وذلك [illegible] [illegible] ولا يستعمل [illegible] هو [illegible] [illegible] فهو [illegible] .

[illegible] .

* * *

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[٨ ب] [illegible]

[illegible] .

* * *

(1) راجع [illegible] ص ٢١٩ [illegible] ٢٢

وأما قولهم احتجب فلان وصدّ ، فإن الاحتجاب معنى سابق ، وكأنه سبب الصدود ، وإن كان الصدود هو الإعراض بالوجه وإنما يقع هذا الفعل من المحتجب منه فصار قريباً منه فاستعمل مكانه ، وبين المعنيين تفاوت

* * *

فأما الألفاظ الأخر التي ذكرت بعدها في المسائل فقد يعرف الفرق[1] بينها بأدنى تأمل ، ولذلك تركت الكلام فيها إذ كان أظهر ، مثله من عطا وعطو ، وعدى مقصورة ، كما تقول قام فلان وقام غيره وأما قولهم فهو فاعل من ... ، وحاول فعل من ...

وهذه الأشياء من ... حيث تستغنى عن الكلام فيه .

* * *

وأما قولهم جلس فلان وقعد ، فإن الهيئة وإن كانت واحدة ، فإن الجلوس ... كان ... واسعاً ، والقعود ... قعد ... — ... أن يفرقوا بين هيئتين ... أحوال مختلفة

والدليل على أنهم خالفوا بين هذين ... لأجل الأحوال المختلفة فيهما ... كان فلان ... فاستوى جالساً ، ولا تقول استوى قاعداً .

... هذا الحكم ... في كل مثلين مختلفين ... دلتا على معنى ، ولا هو ... ولا صورة ... لك ، ... قد قدمنا أمام هذه المسألة [١٠٩] ... لك فيه فسحة تامة ، ورخصة واسعة : إذا ... الفرق ... من الاتفاق في الاسم الذي هو أحد أقسام الألفاظ التي عددناها .

* * *

ثم قلت في هذه المسألة : ما الفرق بين المعنى والمراد والغرض ؟

(١) راجع ... ص ٢١١

بـ ... ، وذلك أن للمعنى أمر قائم بنفسه مستقل بذاته ، وإنما يعرض له اللفظ أن يصير مراداً ، وقد يكون معنى ولا يكون مراداً .

فقد يعرض الشيء مقصوداً بالسهم ، ولكنه لا يكون منصوباً لك تقصده بالحركة ولا بالإرادة فيصير كالغرض للسهم ، فاستعملت هذه اللفظة فيه على التشبيه .

* * *

ومن قولك في خاتمة [illegible] : ما الذي أوضح الفرق بين نطق وسكت ، وأنسى الفرق بين سكت وصمت

؟ تجمعه من [illegible] ، وتفرقه من مسألة ؟

كيف لا يكون الفرق بين المتضادين اللذين هما في الطرفين والحاشيتين ، وأحدهما في غاية البعد من الآخر ، أوضح من الشيئين المتقاربين اللذين ليس بينهما إلا بعد يسير وأمد قريب يخفى على الناظر إلا بعد حدة النظر واستقصاء التأمل ؟

على أن الفرق بين صمت وسكت أيضاً غير ملتبس ؛ لأن السكوت لا يكون إلا من متكلم ، ولا يقع إلا من ناطق

[٩ - ب] وأما الصمت فليس يقع إلا عن نطق لا محالة[1] ؛ لأنه يقال : جاء فلان / بما صاء[2] وصمت ، ويعني به ضروب المال الحي منه والجامد . ولا يقال في المال : صامت إلا لما كان غير ذي حياة ولا نطق ولا صوت ، كالذهب والفضة ، وما جرى مجراهما من الجمادات .

وأما المال الذي هو ماشية وحيوان فلا يقال له : صامت ، ولا يقال للصامت من المال ساكت ؛ لأن السكوت إنما يكون عن كلام أو صوت .

---

(١) [illegible] أن [illegible] في [illegible] أن يكون عقب كلام

(٢) صاء : صاح

وقد يقال في الثوب إذا خلق : سكت الثوب ، وقد دلت على التشبيه ، لأنهم لما وجدوه جديدا يصوت وعدموا ذلك شبهوه بالساكت . ثم اتسعت عند الإخلاق شبهوه بالساكت ، وهذا من ملح الكلام وطرف الخبر .

(٢)

مسألة خلقية

لم صعب الستر على كاتم الأسرار ، ولم تهالك أحد عليه ، وتاقت النفوس إلى الإفشاء ، وسهل التواصي بالطي والكتمان مع هذه المقدمات ؟ وكيف فشت ونزت من الحجب المضروبة حتى نثرت في المجالس ، وخطت في بطون الصحف ، وأودعت الكتب ، ورويت على الزمن ؟

ومن أين كان تشوقه مع الاجتهاد في طيها ؟ نعم ومع الخوف العارض في إذاعتها ، والندم الواقع من ذكرها ، والمنع الثابت ، والعواقب المخوفة ، والأسباب المثبتة ؟ [١٠-١]

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

قد تبين في المباحث النفسية أن للنفس قوتين إحداهما معطية ، والأخرى آخذة .

فهي بالقوة الآخذة تستشرف[1] المعارف ، وتشتاق إلى معرفة الأخبار ، ولهذا يوجد الصبيان في أول نشوئهم محبين لسماع الخرافات ، فإذا ساعدتهم أحبوا معرفة الحقائق . وهذه القوة هي الانفعال والشوق إلى الكمال الذي يخص النفس .

وهي بالقوة المعطية تفيض على غيرها ما عندها من المعارف ، وتفيده العلوم

---

(١) تستثيب . تستجم

الخاصية ، وهذه القوة ليست اعمالا بل قبولا .

وهاتان القوتان موجودتان للنفس بالذات لا بالعرض .

فكل إنسان يحرص بإحدى قوتيه على الفعل ، وهو الإعلام ، وبالأخرى على الانفعال ، وهو الاستعلام .

ولما كان ذلك كذلك لم يمكن أن يصيرا منفعلين ، ولا فاعلين ، ولا أن يفعل فقط ، ولا ينفعل فقط ، لأنهما جميعا للنفس بالذات .

فقد ظهر السبب الذي في حرج السر ، وهو أن النفس لما كانت واحدة واتسقت بإحدى قوتيها إلى الاستعلام ، وتشوقت بالأخرى إلى الإعلام — لم يمكنها ستره .

وهذا هو تدبير إلهي عجيب ، ومن أجله حفظت الأخبار القديمة ، وحفظت [١٠ - ب] قصص الأمم ، وبقي المتقدمون يشتهون ذلك ، وحرص المتأخرون على تشوق إليه .

ولهذا ضرب الحكماء فيه مثلا ، وحرموا عليه العمل ، وقطعوا به الحكم وقالوا : لا يمكن ستره ، ولابد يقدحه صدره أو ينشره ، وتقول العامة : أي شيء يمكنه ؟ ثم تقول في الجواب : ما لا يكون .

فحقيق على صاحب السر أن لا يستودعه إلا القادر على نفسه ، والقاهر لقوته عند حركاتها وشهواتها ، بل المجاهد لها ، المعتادَ عند الجهدِ غَلَبتَها[1] وقهرها . والذي يمنح الإنسان ذلك حقيقة قوة العقل الذي هو أفضل موهبة الله تعالى ، وأكبر نعمة له على عبده ، وبه فضل الإنسان على سائر الحيوان .

ولولا هذا الجوهر الكريم الذي هو مسيطر على النفس ومُشرِف عليها ، لكان الإنسان كسائر الحيوانات غير المخلفة في ظهور قوى النفس منه مرتسمة من

(١) في الأصل « غلبها »

[illegible] رفته، ومئونة [illegible]، ولكنه بهذا جوهر النفس فى جهاد النفس عظيم.

ومعنى قولى هذا [illegible] الإنسان [illegible] فى جهاد النفس قوة عقله؛ لأنه محتاج [illegible] دفعها به [illegible] ضبطها ومنعها من شهواتها الرديئة حتى لا [illegible] منها [illegible] بمقدار ما يستحسنه العقل [illegible]، وما يرسمه [illegible].

ومن [illegible] هذا الجهاد [illegible] مدة عمره [illegible] فى [illegible] بل هو [illegible] كالبهيمة [illegible] التى لا [illegible] من العقل. [١٠١١]

[illegible] على [illegible] ما هو [illegible]، فقد [illegible] ورضى لها بأخسّ المنازل، هذا مع كفره نعمة الله، و[illegible] الموهبة التى [illegible] أجلّ منها، وكراهيته جوار بارئه، ونفوره من قربه.

وقد شرح الحكماء هذا المعنى واستقصوه، وعملوا الكتب [illegible] جهاد النفس فى [illegible] الأخلاق، فمن اشتاق إلى معرفة ذلك فليأخذه من هناك.

فالشهوات [illegible] النفس [illegible] كثيرة، وهى الشهوات الموجودة فى [illegible]، وليس [illegible] لنشر [illegible] الأكثر والأقل، فمجاهدة العقلاء [illegible] محمية، والجهال هم [illegible] غير المجاهدين [illegible]

[illegible] من جهة هذه الشهوات، [illegible] هو متعلق بالإحسار والإعطاء، [illegible] كان لحفظ [illegible] هذا [illegible] لأنه حريص فى [illegible] على [illegible]، [illegible] يقمعها [illegible] أن يكون [illegible] شديد، [illegible] يجرى مجراه من شهوات النفس التى يقع جهادها[1].

---

(١) [illegible] الشهوات [illegible] فى الأخلاق [illegible]

وربما وجدت إحدى هاتين القوتين في بعض الناس أقوى والأخرى أضعف ، فإن من الناس من يحرص على الحديث ، ومنهم من يحرص على الاستماع ، ومنهم الضنين بالخبر ، ومنهم السمح به ، ومنهم الحريص على النميمة والاستعادة ، ومنهم المكسال عنه ، وعلى هذا يوجد بعضهم أحرص على إخراج السر ، وبعضهم أثبت وأحسن تماسكا .

[١١ - ب]

وكان لي صديق صاحب سفر ، وربما المدة معه ، فكان يقول لصاحبه : إذا كان لك سر تحب كتمانه ، وتكره إذاعته فلا تطلعني عليه ، ولا تطلعني موضعه ، ولا تثقلني ثقلته ! فإني أجد له في صدري وخزا كوخز الأشافي[1] ، ونخسا كالأسنة .

وسمعته يقول : اطلعت على سر للوزير ، فحمل لي على كتمانه وطلبه مالا وألطافا ، فحملت إلي في الوقت ، فعزمت على الوفاء له ، ووطنت نفسي به ، ووطنتها عليه ، فبت ليلة السليم[2] ، وأصبحت وقيذا[3] ، فلم أجد حيلة ولا أجد من الكرب غير أني دخلت إلى ناحية من الدار خالية فيها دولاب خراب ، فتحنحت من كل حولي ثم قلت : يا الدولاب ، من الأمر والقصة كذا وكذا . وأنا والله أجد من الراحة ما يجده المثقل بالحمل إذا خفف عنه ، وكأني نزعته من وعاء ضيق إلى أوسع منه ، ثم ما لبثت أن عادت الصورة في نفسي ، وحزومه على قلبي إلى أن كفيته بظهوره من جهة غيري[4] .

---

(١) الأشافي ، جمع إشفى ، وهو مثقب الإسكاف الذي يخرز به النعال .

(٢) السليم : الملدوغ ، سمي بذلك تفاؤلا بسلامته من السم .

(٣) الوقيذ : الثقيل من شدة مرض .

(٤) قال الجاحظ : « وقد ذكر هذا المعنى في كتاب الكتمان وصعوبته على أهله . [illegible] على [illegible] وحمله على بعض نفسه أنه كان يحمل أحمالا [illegible] لا يحتملها [illegible] ، فقد في صدره ، فكان [illegible] يحتمل [illegible] يودعها دفنا ، ثم سكت على ذلك الذي حدثه [illegible] من نفسه ، ويرى أنه قد نقل سره من وعاء إلى وعاء

وهذا الذي قد نثره هذا الرجل قد نظمه الآخر فقال :

ولا أكتم الأسرار لكن [illegible] ولا أدع الأسرار تغلى على قلبى[1]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الأسرار حتى إلى [illegible]

يروى . [illegible] [illegible] .

وقد [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] [١٢-١]

[illegible] في [illegible] . [illegible] [illegible] [illegible] [illegible][2] [illegible]

[illegible] على السر ، [illegible] [illegible] الخيول ، [illegible] [illegible] [illegible] :

[illegible]

وأما قول الشاعر[3]

[illegible] [illegible] [illegible] على سر [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] شتى في [illegible] [illegible] إلى صخرة أعيا [illegible] [illegible]

وقول الآخر[4] :

* وأكتم السر فيه ضربة العنق *

فكلام لا يصح ، ودعوى لا تثبت . [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] به[5] .

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ، وكان [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] حدثهم به ، ويستوثقون بحلف لا يحدث [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] ذلك ضاق صدره بما فيه ، [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] على [illegible] كان له
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] .

(١) عيون الأخبار ٤١/١ و[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ٨/١ [illegible] .

(٢) المدر : قطع الطين اليابس .

(٣) هو مسكين الدارمي كما في [illegible] [illegible] [illegible] ٧ و[illegible] [illegible] ١ [illegible] و[illegible] تمام ٧٥/٣ ، وبين البيتين بيت لا يتم المعنى إلا به وهو :

لكل امرئ شعب من [illegible] [illegible] وموضع نجوى لا [illegible] [illegible]

(٤) هو أبو محجن الثقفي ، وصدر البيت :

* و[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] *

(٥) [illegible] أبو حيان بعد ذلك [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] ذلك في كتاب [illegible] حيث يقول ص ١٤٥ . [illegible] [illegible] وقد جرى كلام في السر [illegible] [illegible] =

(٣)

مسألة مركبة من أسرار طبيعية وحروف لفظية

وهي لم صار اسم من الأسماء أخف عند السمع من اسم، حتى يبعث [illegible]

الطرب عندي [illegible] سمع [illegible]؟

وقد رأيت بعض من كان يهوى البحتري ويحفظ حديثه، ويتعصب لقريضه

يقول: ما أحسنَ تشبيبَ البحتري بعَلْوة، وما أحسن حسنه عنده، ولا يجد

هذا في سعدى وهند ود[illegible] ودعد.

وهذا عارض موجود في الأسماء، وسكنى وشمس وعلى، و[illegible]

وليلى، والأحداق والحدق، والبنان والأنامل، والشهب والعلات،

والعراق والعذاب

[١٢-ب] وقد خفي من هذا الباب قديمًا البحث به على الحس والنفس

والطبع من هذه الأسباب، وإنه ليس للشوق فيه فيجد ههنا، وإن كان [illegible]

بنفس فقط وذلك نفسه

الجواب

قال أبو علي مسكويه رحمه الله:

الاسم مركب من الحروف، والحروف عددُها ثمانية وعشرون، وتركيبه

يكون ثنائيًا وثلاثيًا ورباعيًا وخماسيًا.

[illegible]

والأولى في جواب هذه المسألة أن نتكلم في الحروف المفردة التي هي بسائط الأشياء ، ثم نعقد ذلك في الأسماء المركبة من [illegible] موضع [illegible] الحروف مفردة ، ثم نرى هذه الحروف وتركيبها ، ثم [illegible] حسب [illegible] حتى [illegible] حصلة [illegible] وغير ذلك من [illegible] الكلام ، [illegible] ذلك مثل [illegible] من حروف [illegible] في [illegible] ونقول [illegible] وقد [illegible] للعقد [illegible] من [illegible] ثلاثة مواضع :

أحدها [illegible] وحواشيه

و [illegible] موقع [illegible] إلى [illegible] الآخر ، وموضع [illegible]

والثالث [illegible] في [illegible]

[illegible] [١-١٣]

[illegible] طبيعي [illegible] ولا [illegible] ولا [illegible]

[illegible] الإنسان [illegible]

وبيان ذلك : أن الحروف [illegible]

[illegible] مطلع الآخر ، وذلك من [illegible]

اللغة وبقية الخليل وغيره ، وهي حروف [illegible] في [illegible] ومواضعه ، وموضعه [illegible] في شرح هذه [illegible] الكلام [illegible] قصد [illegible]

ونقول : [illegible] الصوت [illegible] هي [illegible] وقصبته لأنها [illegible]

الصوت [illegible] هو [illegible] في [illegible] ، وما لم يكن [illegible] في [illegible] إلا من [illegible] وقصبته ، والمدخل إليها من الفم ، ولا يخرج [illegible] إلا من هذه الجهة [illegible] — الذي هو الصوت — في هذه المسافة حسب ، فبعض الأصوات

أقرب إلى الرئة وأبعد من الشفة، وبعضها أقرب إلى الشفة وأبعد من الرئة
والوسائط بين هذين الموضعين كثيرة.

فالنفس وهو الهواء إذا خرج من الرئة إلى أن يبلغ الشفة له مسافة بين
[١٣٠-ب] أقصى مخرجه وبين منتهى [illegible]، والإنسان مقتدر على تقطيع هذا الهواء
بالانقطاعات المختلفة في طول هذه المسافة، فيحدث هذا الهواء مرة في أقصى
الحلق، ومرة في أدناه، ومرة في الفم، إلى أن يصير له ثمانية وعشرون موضعا

ومثال ذلك مثال مزمار فيه ثقب(١) متى ضيق الإنسان فيه النفس وخرج
موضعا موضعا حدثت الأصوات في السمع بحسب قربه وبعده. ولا يكون
المسموع من الافتراع الذي يحدث عند الثقب الأخير المسموع من الافتراع الذي
يحدث عند الثقب الأول. وكذلك هذه الافتراعات التي بين هذين الثقبين مختلفة
الموقع من السمع، لا يشبه واحد الآخر، فيقال لبعضها حاد، ولبعضها [illegible]
ولبعضها [illegible] جهير، ولبعضها [illegible]. وكل واحد من هذه الأصوات له أثر في النفس
وموقع منها، ومثال كله [illegible].

ولنا أن نكشف عن هذا البحث الذي نحن فيه، وأن نذكر [illegible]
بحسب قبول النفس بعض الأصوات أكثر من بعض، لأن هذا [illegible] والبحث فيه
لصناعة الموسيقى [illegible]، ومعرفة هذا الأمر [illegible] النسب التي هي نسبة المساواة
ونسبة الضعف، ونسبة [illegible] النصف، و[illegible]، وهذه [illegible] قريبا
قريب [illegible] من بعض، حتى [illegible] الأبعاد [illegible] من عدد [illegible]

[١٤] فقد كانت قصبة الرئة كقصبة المزمار، وتقطيع الحروف فيها كخرق الصوت
بالمزمار في موضع بعد موضع، وكانت الأصوات في المزمار مختلفة القبول عند
النفس، كانت الحروف كذلك أيضا لا فرق بينها وبينها بوجه ولا سبب.

(١) ثقب — بضم — جمع ثقبة كالثقب [illegible]، والثقب بالفتح
واحد الثقوب

فقد بان أن الحروف أنفسها مفردةً لها مواقع من النفس مختلفة ، فبعضها أوقع عندها من بعض .

وإذا كانت بهذه الصفة وهي مفردات وبسائط كان تركيبها أيضاً مختلفاً في قبول النفس ، سوى أن للتركيب والتأليف تعدداً ما صناعة كما ضربنا به المثل في نظم الخرز ونظم الأصوات في الموسيقى ؛ لأن الموسيقار ليس يعمل أكثر من تأليف هذه الأصوات بعضها إلى بعض على النسب الموافقة للنفس .

فمؤلف الحروف يجب أن يؤلفها تأليفاً ويمزجها مزجاً موافقاً من الثنائي والثلاثي وغيرهما ، إذا أحب أن يكون له قبول من النفس .

فقد تبين إلى هذا الموضع سببُ خلافِ هذه الحروفِ مفردةً ، ثم مركبةً ، وأنه بحسب هذا ليس يجب أن يكون بعض الأسماء أحسن من بعض ، وأعذبَ في السمع ، وأقربَ إلى قبول النفس ، وبعضها أبعد في هذه الأشياء .

وبقي الاعتبار الثالث الذي هو نظم الكلم بعضه إلى بعض ، ووضعه في خواص مواضعه ؛ ليصدق المثال الذي ضربناه في / الخرز والعقود ، ثم وضعُ [١٤-ب] كل عقد حيث يليق به .

وههنا تظهر صناعة الخطابة والبلاغة والشعر ، وذلك أنه إذا اختار المختارُ الحروف المؤلفة للأسماء ، حتى لا يكون فيها مستكره ولا مستنكر ، ووضعها من النظم في مواضعها ، ثم نظمها نظماً آخر — أعني وضع الكلمة إلى جنب الكلمة — موافقاً للمعنى غير قلق في المكان ، ولا نابٍ عن السمع — فقد استتمت له الصناعة إما شعراً وإما خطبة وإما غيرهما من أقسام الكلام .

ومتى دخل عليه الخلل في أحد هذه المواضع الثلاثة اختلت صناعته ، وأبت النفسُ قبولَ ما نظمه من الكلام بحسب ذلك .

فقد لخصنا وشرحنا هذه المسألة تلخيصاً وشرحاً كافياً إن شاء الله .

* * *

فأما سؤالك في آخر مسألتك أن أصل هذا البحث بالبحث عما ثقل على النفس والسمع والطبع فقد فعلتُ ذلك، فظهر في أثناء كلامي، وذلك أنه إذا بان سببُ أحدِ الضدين بان سببُ الآخر.

والأصوات المستكرهة التي ليس لها قبول في النفس كثيرةٌ، ولا عناية للناس بها فتوصف، وإنما تحدث مفردةً فلا تعرف كصرير الباب، وصوت الصُّفْر(١) إذا حُرِّك فصَرَّ، وما أشبههما، فإن النفس تنفر من هذه فتقشعر، وربما قام له شعرُ البدن، ويحدث بالنفس منه دوار حتى ينكر الإنسان حاله. [١٥-١] وهو معروف بيّن.

(٤)

مسألة اختيارية

لمَ تواصى الناس في جميع الكتب والنِّحَل وسائر العادات والملل بالزهد في الدنيا، والتقلل منها، والرضا بما يسمح به الوقت(٢)، و[تيسر(٣)] مع الحال، هذا مع شدة الحرص والتنافس، وإفراط الشره والكسب، وركوب البر والبحر بسبب ربح قليل، ونيل نزر، حتى إنك لا تجد على أديمها إلا متنافساً في قنيتها حريصاً، أو هائماً على حاضرها مفتوناً، أو متمنياً لها في المستقبل معنًى، وحتى لو تصفحت الناس لم تجد إلا متحسراً عليها، أو متحيراً فيها، أو مُسْكَراً منها(٤)، وأشرفهم

---

(١) الصفر: النحاس الجيد.

(٢) يسمح به الوقت: أي ييسره.

(٣) مكان زيادتنا بياض في الأصل.

(٤) مسكراً: من قولهم سكر بصره إذا غشي عليه ودير به فلم يكد يبصر وبقي متحيراً.

[illegible] أعصمهم حملاً(١) ، وأشدهم فيه ترهداً(٢) ، أشدهم به تعاهداً ، وأكثرهم
في معصيته دعوى ، أكثرهم في جنبه بلوى

وهل تعرف السبب في ذلك والعلة ، وعلى ذكر السبب والعلة [illegible] ؟
[illegible] كان [illegible] عن الآخر ؟ وإن كانت
[illegible] فاشية في كل مكان وزمان ، أو في مكان دون مكان ، وزمان
[illegible] زمان ؟

وعلى ذكر المكان والزمان ، ما الزمان وما المكان ؟ وما وجه [illegible] من أحدهما [١٥-ب]
الآخر ؟ وما [illegible] أحدهما الآخر [illegible] الوقت والزمان واحد ؟ [illegible] الحين
[illegible] وإن كان كذلك فكيف [illegible] وإن جاز [illegible]
[illegible] هل يجوز أن يكون شيء [illegible] شيئين [illegible] —
[illegible](٤) [illegible] الرق ، [illegible]
[illegible] ، [illegible] على [illegible] على [illegible] من
[illegible] المحيط [illegible] واحد [illegible] ، [illegible] على عدة من [illegible]
[illegible] ، [illegible](٥) [illegible]
[illegible] أكثر من [illegible] ، [illegible]
[illegible] أكثر من [illegible] ، [illegible] أكثر من [illegible] ، [illegible]
[illegible] ، [illegible] قول الله تعالى : ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾(٦)

(١) [illegible]
(٢) [illegible]
(٣) يقال [illegible]
(٤) [illegible] : [illegible] الأكل الذي [illegible]
(٥) في الأصل [illegible]
(٦) سورة البقرة ، ٢٥٥ .

فلو استمر المعلوم(١) لانتفى لنا عن شيء ، ولولا الإيضاح بالاستثناء لما بقى شيء ، لكنه جل وعز نفى بـ « لا » على ما تقتضيه التوحيد ، وبقّى بـ « إلاّ » ما يكون حِلْية ومصلحة للعبيد(٢) .

* * *

« ثم أشبعت المسألة من تنقص الإنسان وذمه وتوبيخه بما أستحيي عن ذكره »(٣) .

الجواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله :

[١٦-١] هذه المسألة موشحة بعدة مسائل طبيعية ، وقد جعلتها مسألة واحدة ، ولعل التي جمعتها إذا هي فصلت أن تكون رؤوساً .

وقد عرض لك فيها شرح من التعجب ، وسنخ من التيه ، فخطرت خطران البختي(٤) ومشيت المرضة(٥) ، وتزينت في حلالك ، وتصليت على عوانك حتى أشبعت أن تسرع في فصل جعلت ، فلو تركت هذا العرض نتكلم على مسائلك ، ووهبت هذا العرض على الخصب لك !

* * *

(١) في الأصل : « معلوم » وفي ق : « لا » هو معلوم

(٢) يريد أنه لو استمر النفي في قوله تعالى (ولا يحيطون بشيء من علمه) من غير أن يعقبه بالاستثناء لما علم الإنسان شيئاً ، ولكنه تعالى قد استثنى بالاستثناء فاستطاع الإنسان أن يعلم ما أذن الله أن يعلمه

(٣) هذا من كلام مسكويه محاكياً أبا حيان

(٤) خطر الفحل بذنبه ... رفعه مرة بعد مرة ، وضرب به ... من خيلاء وعجبا وكبرا ، وذلك عند صوته وشأنه من الشمخ والسمن

(٥) المرضة : الاعتراض في السير من النشاط ، وهذا كله كناية عن الخيلاء والعجب

ارفق بنا أبا حيان — رفق الله بك — وأرح من حالنا، وأسمعنا رفقاً،
ودع ما نعرفه في أنفسنا من النقص فإنه عظيم، وما نعتقده من الشكوك فإنه
كثير، ولا تشككنا فيما اعتقدناه، وفوت ما أدركناه(1)، فتنغص على بعضهم
أنفسهم، وتمنعنا من طلب ما فاتنا، فإنك والله ... في أمرنا، وتقدح فيه،
أسأل الله أن لا يؤاخذك ولا يعاقبك ولا يعنتك؛ فإنك تعرض(2) لجميع ذلك
إلا أن يعفو ويصفح، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة.

* * *

ثم أقول في مسألتك والجواب عنها: إن الإنسان كان مركباً من نفس
وجسد، واسم الإنسانية وقع على هذين الشيئين معاً.

وأشرف جزئي الإنسان نفسه التي هي معدن كل فضيلة، وبها وعنها [١٦ب]
يرى الحق والباطل في الاعتقاد، والخير والشر في الأفعال، والحسن والقبيح في
الأخلاق، والصدق والكذب في الأقاويل.

وأما جزؤه الآخر الذي هو الجسم وجسمانيته وتوابعه فهو أذل جزئيه
وأخسهما؛ وذلك أنه مركب من طبائع مختلفة متعادية، ووجوده في السكون
ذاته لا تثبت له طرفة عين، بل هو متبدل سيال، ولهذا سمى عامة القدماء
السوفسطائي.

وهذه مباحث محققة مشروحة في مواضعها، وإنما ذكرنا منها ما احتجنا إليه في
جواب المسألة بعينها.

---

(1) يفهم من هذا أن أبا حيان في آخر سؤاله وهو آخره ... مسكويه إنه استعفى
عن إجابته لعجز مسكويه، وجهله فيما يجيء في فرعه هذا.

(2) تعرض: الأصل تعرض للرجل بما يتقي به، يقول له: إنك توشك أن تبتلى بكل ذلك.

فإذا كان الإنسان مركباً من شيئين جزئين ، [illegible] من هذين الجزئين ،
وكان شرف [illegible] ما ذكرناه — وهو [illegible] من وجوده في كون ،
ولا هي متركبة من أجزاء متعددة ، [illegible] الإضافة إلى
الجسم ، وهي قوة [illegible] وجب أن يكون شرف الإنسان بهذا الجزء
أفضل من شرفه بالجزء الآخر ، [illegible] ، وهذا جوهر واحد ،
وذاك جواهر متعددة ، وهذا [illegible] ، [illegible] في الكون
الذي لا ثبات له .

[illegible]

[١٧ ا] [illegible] في [illegible] والأدوار
[illegible] في جسمه
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

وهذا [illegible] فرق ما بين
الإنسان و[illegible] ، لأنه [illegible] لأن
[illegible] الجسد [illegible] الإنسان [illegible]
وغير مخوص الجسد ، الأدو [illegible] على الأكل والشرب والجماع
وما أشبه ذلك ، فإذا [illegible] الإنسان وفضيلته [illegible] التي وجدت له
دون غيره ، فالمستزيد منها أحق باسم الإنسانية ، وأولى بصفة الفضيلة ؛ ولهذا
يقال : فلان كثير الإنسانية ، وهو من أسماء ما يمدح به .

ومن أحب الاطلاع على سائر الأصول ، والاستكثار منها ، والبلوغ غاية [١٧ - ب]
اليقين فيها فليأخذه من مظانه .

فأما من ليس — مع شغله بما يهمه تحصيله — [illegible] على أصل التركيب
بروحه لأجل ما ذكرناه بحسبه ؛ وأن الجزء الذي فيه مشاركة للبشر من الجسم
طبيعي أقوى من الجزء الآخر . [illegible] ما يعرض
شكل مركب من قوى مختلفة ، فيكون الأقوى [illegible] ذلك
[illegible] إلى [illegible] الجزء مع [illegible] الجزء الآخر

وحين [illegible] كما [illegible] ، [illegible] لا [illegible]
له ، فإنا في جهاد دائم ، [illegible] الجزء الآخر
بحسب العناية ، ومضطرب في [illegible] الحس ، وهو أن المريض
[illegible] الشهوات يعود
إلى الصحة والاعتدال الطبيعي ، [illegible] من كثير من شهواته ،
شدة [illegible] على [illegible] عقله ، [illegible] ، وبصحة [illegible] ، حتى
[illegible] من [illegible] شهوته [illegible] لا يعود
[illegible] ، وهو في ذلك [illegible] ، [١٨ - أ]
[illegible] الأمر ، [illegible] ولا تذكره ، [illegible]
في ذلك [illegible] من شدة محاذبة الشهوة الحاضرة ، حتى [illegible] شهوته [illegible] ، ثم
هذه حال مستمرة به ما دام مريضا .

وكذلك هو أيضا في حال الصحة ، [illegible] من الشهوات ما يعلم أنه يخرج
من مزاج الاعتدال ، ولا [illegible] من هجوم الأمراض عليه ، فيحمله سوء الضبط
شدة محاذبة الطبيعة إلى مخالفة التدبير ، ومشاركة [illegible] .

وإذا [illegible] هذا المثل [illegible] ، ووجدته من [illegible] ، اطلعت على

ما قدمته، وفهمته فهماً بيناً، وعدلت عن رقدة في الدنيا وإن خالقك إليها،
ومن مصححات تركها وإن أحدهم منه واستكثر منه

* * *

ومما اعترض في المسألة من ذكر السبب والعلة، والمسألة عن الفرق بينهما،
فإن السبب هو الأمر الداعي إلى الفعل، ولأجله يفعل الفاعل.

وأما العلة فهي [illegible] عنه بعينها؛ وكذلك صار السبب أشد اختصاصاً بالأشياء
العرضية، وصارت العلة أشد اختصاصاً بالأمور الجوهرية.

والحكماء قد أطلقوا لفظ العلة على الباري تقدس اسمه، وعلى العقل،
والنفس، والطبيعة، حتى قالوا: العلة الأولى، والعلة الثانية والثالثة والرابعة،
[١٨ - ب] وقالوا أيضاً: العلة القريبة، والعلة البعيدة، في أشياء سواها من كتبهم

وعلى أن هذه المسألة [illegible] من الجهات تحتاج إلى المسألة الأولى[1] وتعود
إليها؛ لأنها يجوز أن توجد في المتباينة أسماؤها بضرب من الاعتبار، وفي المترادفة
أسماؤها بضرب آخر من الاعتبار، وقد مر هذا الكلام مستقصى فلا
وجه لإعادته.

* * *

وأما الزمان والمكان، فإن الكلام فيهما كثير، قد خاض فيه الأوائل،
وجادل فيه أصحاب الكلام الإسلاميون، وهو أظهر من أن ينشف الريق،
ويضرع فيه أحد، ولا سيما وقد أحكم القول فيه الحكيم[2]، وناقض أصحاب
الآراء فيهم، وبين فساد المذاهب العتيقة، وذكر رأي نفسه ورأي أستاذه[3] في كتاب
«السماع الطبيعي[4]» وكل شيء وجد لهذا الحكيم فيه كلام فقد شفى وكفى، وقد

(١) يريد بالمسألة الأولى السؤال [illegible]
(٢) هو أرسطو
(٣) هو أفلاطون
(٤) كان يعرف باسم سمع الكيان كما في تاريخ حكماء القفطي.

من كلامه فصادفه شرحه مفسَّرًا ، ونُقل إلى العربية ، وهو موجود (1) .

وأنا أذكر بعضَ المذاهب المتعصبة مع تلك في عَرْضِ المسألة الأولى ،
وأترك الاحتجاج لأنه مسطور ، وإذا دللتُ على موضعه قُرِئَ منه كل وقتٍ من
نقله إلى هذا المكان نَسْخًا

* * *

أما الزمان فهو مدة تعدّها حركات الفلك .

وأما المكان فهو السطح الذي يحوز المحويّ ويحويه

وأما الفرقُ الذي سألته بين الوقت والزمان ، والدهر والحين ، فإن الوقت قدر
زمان مفروض معيَّن من جملته ، مشار إليه بعينه . [١٩ - ١]

وكذلك الحين هو مدة تكون من الوقت وفسحةٌ وأبعد ، وقد يعنى أيضًا
بـ اللفظتين تمييزهما وتخصيصهما من جملة الزمان الذي هو كل لهما ، فيقال :
وقت كذا وحين كذا ، فينسب إلى حال أو شخص أو ما أشبه ذلك .

فإذا أريد بهما الإبهام لا التعيين قيل : كان كذا أو يكون كذا في حين
ووقت ، فيعمّ السامع أن المتكلم لم يؤثر تعيين الوقت والحين ، وهما لا محالة
عنده مُحصَّلان .

فأما الدهر فليس من الزمان ولا الحين ولا الوقت في شيء ، ولكنه أخصُّ
الأشياء التي ليست في زمان ولا مقدَّرة بحركات الفلك ؛ لأنها أعلى رتبة من
الأمور الطبيعية

فتكون نسبة الزمان إلى الأمور الطبيعية كنسبة الدهر إلى الأمور غير
الطبيعية ، أعني ما هو فوق الطبيعة .

وهذا القدر من الكلام كافٍ في الإيماء إلى ما سألت عنه ، وإن أحببت

---

(1) راجع أسماء من نقله وشرحه في فهرست ابن النديم ٣٥٠ – ٣٥١

التوسع فيه فعليك بالمواضع التي أرشدناك إليها من كلام الحكيم ومفسري كتبه، فإنه مستقصى هناك.

وهذه المواضع — أعني [illegible] إذا عرفها الإنسان وعرفها حق معرفتها، تدله على حكمة الله، ومعرفته، وصورة نفسه المحكمة، ودلائل قوية إلى [١٩ - ب] التوحيد.

والنسبة [illegible] منها، والحافظ معها [illegible] عليه، والنسبة خير منها عليه، وهي قد شاء أن [illegible] من علمه. ولا يكون علمه بالزمان والمكان والوقت ولا [illegible] معتقدا به.

وفي هذه المواضع أسرار ودقائق لا يسعها عقل الإنسان، ولم تجتمع في إنسان كما أحد قط. وهذا شخص لا يعرف بضعف البشرية، والعجز الإنساني، وسائر ما يتكلم فيه بحثًا، فيرى الإنسان به من نفسه والله فيبقى حينئذ على نسبته، ويستحي من الدعوة(١) والاتصال بحد المعرفة في خالق الخلق، وهو أول الكمال.

وفي هذه المواضع التي تكلمنا فيها فهي موضع الشكر له، والمحادث لمعرفته ونعجب من حكمته، والاستدلال بها على جوده وقدرته وفيضه بالخير على مرتبة ومن شاء أن يزاده منها، ويحرص على نيل منافع النظر والفحص، والدافع [illegible] إلى واجب ومنبع به بوضعه شبهها وأشكالها، إذ هو موضوع للنظر وميسر لهم، وهم منسوبون له معولون عليه: بل نقول إنه مأخوذ على الإنسان الكامل بعقل لا يقعد عن سعي ولا عن طلب تكميل نفسه بالمعارف، ولا يني ولا يفتر مدة عمره عن الازدياد من العلوم التي بها يصير من حزب الله المفلحين، وأوليائه الفائزين الآمنين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

---

(١) [illegible]

فأما القوم الذين يُفنون أعمارهم فى قُنْيَة الذهب والفضة / ويجعلون سعيهم [٢٠-١]
كله مصروفاً إلى الأمور الزائلة الفانية من اللذات الجسمانية والشهوات البدنية —
فهم الذين قد تباعدوا من الله ، وصاروا من حزب الشيطان ، فوقعوا فى الأحزان
الطويلة ، والخوف الدائم ، والخسران المبين !! إذ كانوا أبداً من مطلوبهم على
إحدى حالتين : إما أسفٌ على فائت ونزاع إليه ، أو لهفٌ على مفقود وحزنٌ
عليه ؛ لأنّ الأمور التى يطلبونها لا ثبات لها ، ولا نهاية لأشخاصها ، ولا وجود
لحقيقتها ، وإنما هى فى السلوك والاستحالة والتنقل [illegible] .

نسأل الله الواحد الذى نخلص إليه رغبتنا ، ونرفع أيدينا متوسلين له ، ونستجد
هممنا وعقولنا أن يفيض علينا الخير المطلوب منه الذى نشتاق إليه لذاته لا
لغيره ، وأن ينير عقولنا لنعرف بها حقيقته ووحدانيته ، ونجانب مبروءاته[1] ،
ويمضى بنا إلى السعادة القصوى التى جعلها[2] من أقصر الطرق ، ونهتدى
سبيل صراط الله المستقيم ؛ فإنه أهل ذلك ووليه ، والقادر عليه .

(٥)

مسألة اختيارية

لِمَ طُلبت الدنيا بالعلم ولِمَ نُهى عن ذلك ؟ ولِمَ لا يُطلب العلم بالدنيا والعلمُ
أرفع من ذلك ؟

وقد يقول من ضعفت غريزته ، وساء أدبُه ، وجرؤ مَقْدمه : قد رأينا مَنْ
طلب الدنيا بالعلم ، ورأينا مَنْ طلب العلم بالدنيا . فليعلم أن المسألة ما وُضعت
هناك ، ولا فُرضت كذلك ، ولو تدبَّرَ هذا المعترض فكره عرف الفَحْوَى ، ولحق

(١) مبروءاته : مخلوقاته .
(٢) فى الأصل « له » .

[٢٠-ب] المرئى، ولم يُعارض/ بادراً(١) شائع، ولم يُناقض نادراً ذائع.

الجـــواب

أما طلب الدنيا فضرورى للإنسان لما ذكرناه؛ فإن وجوده بأحد جزأيه طبيعى، ولا بدّ من إدامة هذا الجزء بمدد؛ لأنه سيّال دائم التحلل، ولا بد من تعويض ما يتحلل منه.

ولم ينه العلم عن هذا المقدار قط، وإنما نهى عن الزيادة على قدر الحاجة إذ كانت الزيادة مذمومة من جهات:

أحدها أنها تؤدى إلى تفاوت الجسم الذى يجب حفظ اعتداله.

والثانى أنها تعوق عما هو أخص بنا من حيث نحن ناس، أعنى الجزء الآخر الذى هو فضيلته.

فمن طلب بالعلم من الدنيا قدر الحاجة فى حفظ الصحة على الجسد فهو مقتصد تابع لما يرسمه العقل، ويأمر به العلم.

ومن طلب أكثر من ذلك فهو مفرط مسرف.

وموضع الاعتدال من الطلب هو الصعب، وهو الذى ينبغى أن يُلتقى فيه أهلُ الحكمة والعلم، وتُقرأ له كتب الأخلاق؛ ليعرف الاعتدالُ فيلزم، ويعرف الإفراط فيحذَر.

ولا بد مع هذه الجملة التى ذكرناها — وإن دللنا فيها على المواضع التى يرجع إليها — من أدنى كشف وبيان فنقول:

إن الناس لما اختلف نظرهم بحسب جزئيهم: فناظر إلى الطبيعة، وناظر إلى العقل، وناظر فيهما معاً — اختلفت مقاصدهم، وصارت أفعالهم بإزاء نظرهم.

---

(١) بادر الشيء وبادرته: أول ما يبدأ منه.

وقد غلط من نظر في أحد جزأيه دون الآخر مخطئ لأنه مركب منهما معاً، [٢١-ا] والناظر فيهما مصيب إذ قسط لكل واحد منهما قسطاً من نظره، وجعل له نصيباً من سعيه، على قدر استحقاق كل واحد منهما، وبحسب رتبته من الشرف والضعة.

أما الناظرون بحسب الجزء الحسي فإنهم انخرطوا في جانب الطبيعة، وانصرفوا بجميع قوتهم إليها، وجعلوا غايتهم القصوى عندها، ولذلك جعلوا العقل آلة في تحصيل شهواتهم وحاجاتهم، واستعبدوا أشرف جزأيهم لأخسهما[1] كمن يستخدم المَلِكَ لعبده.

وأما الناظرون بحسب الجزء العقلي فإنهم قصروا النظر في أحد جزأيهم الذي هو طبيعي لهم، ونظروا نظراً إلهياً فطمعوا — وهم بعد مركبون — أن يتجردوا تجريد العقل غير مشوب بنقص الطبيعة، فاضطروا لأجل ذلك إلى إهمال الجسد وهو[2] مقرون بهم، والضرورة تدعو إلى تقويته من المصالح، أو إلى إزاحة علته في حاجاته وهي كثيرة، فظلموا أنفسهم، وظلموا أبناء جنسهم.

أما ظلمهم لأنفسهم فتركوا النظر لأحد قسميهم الذي به قوامهم حتى التمسوا مصالحهم بتعب آخرين، فظلموهم بترك المعونة لهم، والعدل بذل المعونة لمن يسترفد معونته، والتعب لمن يأخذ ثمرة تعبه.

وبهذه المعونة تتم المدنية، ويصلح معاش الإنسان الذي هو مدني بالطبع، وهؤلاء هم الذين تسمّوا بالزهاد، وهم طبقات، وفي الفلاسفة منهم قوم، وفي أهل الأديان والمذاهب والأهواء منهم طوائف، وفي شريعتنا الإسلام منهم قوم وسمّوا أنفسهم بالصوفية، وقال منهم قوم بتحريم المكاسب. [٢١-ب]

(١) في الأصل «لأخصها».
(٢) في الأصل: «وهم».

وإذ قد تبين غلط الناظر في أحد جزأيه دون الآخر فلنذكر المذهب الصحيح الذي هو للناظر في الجزأين معا ، ويعطى كل واحد منهما قسطه طبيعة وعقلا فنقول :

إن الإنسان كما ذكرناه هو مركب من هاتين القوتين ، لا قوام له إلا بهما فيجب أن يكون سعيه نحو الطبيعي منهما ، والعقلي معا .

أما السعي الطبيعي فبغية الإنسان فيه حفظ الصحة على بدنه والاعتدال على مراتع طبائعه ، فتصدر الأفعال عنه بتمامه غير منقوصة وذلك بتلمس الأكل والشرب والنوم واليقظة والحركة والسكون ، والاعتدال في جميع ذلك ، إلى سائر ما يحتاج إليه من اللبس والمسكن الدافعين أذى القر والحر ، والأشياء الضرورية للبدن ، ولا يلتمس غاية سواها ، أعني التلذذ والاستكثار من قدر الحاجة لطلب السعة ، والتمتع بها والحرص وغيرها من الأعراض التي توهم أن غاية الإنسان هي تلك .

وأما سعيه العقلي فغايته فيه بعد حفظ الصحة على النفس لأنها ذات قوى ، ولها أمراض تزيد هذه القوى بعضها على بعض ، وحفظ الاعتدال هو صحتها ، والاستكثار من معلوماتها هو قوتها ، بسبب بقائها السرمدي ، وسعادتها الأزلية .

وفي شرح كلّ واحد من هذه الخصائص طول ، وهذا القدر من الإيماء كاف .

[٢٢-١] فليكن الإنسان ساعيا / نحو هذين الجزأين بما يُصلح كل واحد منهما ، وليحفظ على نفسه الاعتدال فيهما من غير إفراط ولا تفريط ؛ فإنه حينئذ كاملٌ فاضل ، لا يجدُ عليه أحدٌ مطعنا إلا سفيه لا يُكترثُ له أو جاهلٌ لا يُعتدُّ به ، وبالله التوفيق .

(٦)

مسألة طبيعية

ما السبب في اشتياق الإنسان إلى ما مضى من عمره حتى إنه ليَحِنُّ حنين الإبل، ويبكي بكاء المتململ، ويطولُ فكرُه بتخيّله ما سَلَف؟ وبهذا المعنى هتف الشاعر فقال:

لم أبكِ من زمنٍ ذممتُ صروفَه ... إلّا بكيتُ عليه حينَ يزُولُ[1]

وقال الآخر:

ربَّ يومٍ بكيتُ منه فلمّا ... صرتُ في غيره بكيتُ عليه[2]

وقال آخر:

ونحو غدٍ إذا ما أتى ... بكيتُ على أمسه الذاهبِ[3]

هذا العرضُ يفترِي وإن كان الماضي من الزمان في ضيق وحاجة، وكَرْب وشِدّة، ومع ذلك كذلك لا يسنح لنفسِ الإنسان غيرُ شاعرٍ به، ولا واجدٍ له إلا إذا طال فحصُه، وزاد نقصُه، واشتد في طلب العلم شغفُه، واتصل في اقتباس الحكمة رَوَاحُه وبكورُه، وكانت الكلمةُ الحسناء أشرفَ عنده من الجارية الحسناء، ومعنى المقوَّم أحبَّ إليه من مال المكوَّم، وعلى قدر عنايته يحظَى بشرفِ الدارين، ويتحلّى بزينة المتحلِّين.

---

(١) ورد هذا البيت غير منسوب في محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني ٢ / ٢٢٣
وفي معناه يقول إبراهيم بن العباس الصولي:

سقى ورعى لأيام مضت سلفا ... بكيت منها فصرت اليوم أبكيها
كذاك أيامنا لا شك نندبها ... إذا تقضت ونحن اليوم نشكوها

(٢) البيت بهذه الرواية في كتاب «الآداب» لجعفر بن شمس الخلافة غير منسوب أيضاً
وفي ديوان أبي العتاهية ص ٢٨٨:

كم زمان بكيت منه قديما ... ثم لما مضى بكيت عليه

(٣) المخطوط «على أمسيّ».

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله —

ليس يشتاق إلى الشباب والصبا إلا أحد رجلين:

إما فاقد شهواته ولذاته / التي سوّغتها وجدتها وقتَ الشباب. [٢٢ - ب]

وإما فاقد صحته في السمع والبصر، أو بعض أعضائه التي قوتها ووفورها زمنَ الصِّبا وحينَ الحداثة.

والمعنى الأوّل أكثرُ ما يُشتاق، فإنّ المكتهل والمخضرم ومن مع الأشدّ الذي لا ينكر شيئاً من حواسه — يشتاق إلى الصبا، والشيخ لا يعدمُ من نفسه ورأيه وقوةِ عقله شيئاً مما كان عنده في شبابه، اللهم إلا أن يهرم ويلحقه الخرَف، فحينئذ لا يذكر شيء من الشوق، ولا يوصف به، ولا يحتج برأيه.

وههنا سبب ثالث يُشتاق إلى الصبا وهو أن الأمل حينئذ في البقاء قوي، وكأنّ الإنسان ينظر أمامه حياة طويلة فكلما مضى منه زمان تيقّن أنه من أمده المضروب، وعمره المقسوم، فاشتاق إلى أن يستأنف به، طمعاً في البقاء السرمدي الذي لا سبيل للجسد الفاني إليه.

إلا أن المعنى الأوّلَ هو الذي ذهب إليه الشعراء فأكثروا فيه، وقد صرّحوا به وذكروه في أشعارهم.

والمتشوّق إلى شهواته صورته عند الحكماء صورة مَنْ أُعتِق فاشتاق إلى الرّق، أو صورةُ من أُفلِتَ من سباع ضارِيةٍ كانت مقرونةً به فاشتاق إلى مُعاودتها.

وذلك أن الشاب تَهيج به قوى الطبيعة عنده الشهوة وعند الغضب حتى تغمُر عقلَهُ فلا يستشير لُبّه، ولا يكاد يظهر أثر العقل عليه إلا ضعيفا.

وقد / بيّنا فيما تقدّم من المسائل أنّ فضيلة الإنسان وشرفه فى الجزء الأهمّ [٢٣-ا] منه ، وإن كان الجزء الآخرُ ضروريًا له .

فقد بان أنّ السّنّ التى تضعفُ فيها قوى الطبيعة حتى يقتدرَ عليها العقلُ ويحرّها ذليلةً طائعةً غيرَ متأبّية ولا هائجة — أفضلُ الأسنان ، والرّجلُ الفاضلُ الصالح لا يشتاق من أشرف أسنانه إلى أخسّها .

والدليل البيّن على أن الأمر على ما حكيناه — أنّ الشاب العفيفَ الضابط نفسه ، القويَّ على قمع شهواته مسرور بسيرته ، وإن كان فى جهد عظيم ، ومحكومٌ له بالفضل ، مشهود له به عند جميع أهل العقل ، وأنّه إذا كبِرَ سنُّ لم يشتق إلى الشباب ؛ لأن ضبطه لنفسه ، وقمعه لشهواته أيسرُ عليه وأهونُ .

ومن كان مستويَ الطريق ، شرعيَّ المذهب لم تعرض له هذه العوارضُ — من التلهّف على نيل اللذات ، والأسف على ما فوته منها ، والندم على ما تركَ وقصّرَ فيها — بل يعلم أن تلك انفعالاتٌ خسيسةٌ تقتضى أفعالا دنيئة ، وأنّ الحكماء — رضى الله عنهم — قد بيّنوا رداءتها ، وسطّروا الكتبَ فى ذمّها ، وأنّ الأنبياء — صلواتُ الله عليهم — قد نهوْا عنها ، وحذّروا منها ، وكتُب الله — تعالى وتقدس — ناطقةٌ بجميع ذلك ، مُصدّقةٌ له .

فأى شوقٍ يحدُثُ للفاضل إلى النّقص ، وللعالم إلى الجهل ، وللصحيح إلى مرض ؟

وإنما تلك أعراض تعرض للجهال الذين غايتهم / الانهماك فى الطبيعة [٢٣-ب] والحواس ، وطلبِ ملاذّها الكاذبة ، لا التماسَ الصّحة ، ولا بلوغَ السّعادة ، ولا تكميلَ الفضيلة الإنسانية ، ولا معتبرَ بهؤلاء ولا التفات إلى أقوالهم وأفعالهم .

(٧)

مسألة خلقية

لِمَ اقترن العُجْبُ بالعالِم ، والعلمُ يوجِبُ خلافَ ذلك من التواضع والرِّقَّة .
وتحقيرِ النفس ، والزِّرَاية عليها بالعجز ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله —

أما العالِمُ المستحقُّ لهذه السِّمَة فليس يَلْحَقه العجب ، ولا يُبْلَى بهذه الآفة
وكيف يُبلى بها وهو يعرف ضدها ، وأنها مرضٌ سببُه مُكابَدَةُ النفس ؟

وذلك أن حقيقة العجب هي ظنُّ الإنسان بنفسه من الفضل ما ليس فيه .
وظنُّه هذا كذِب ، ثم يستشعِرُه حتى يُصدِّق به ، فتكونُ صورتُه صورةَ مَن
يرى رجلا في الحرب شجاعًا يحمل على الأبطال ، ويظهر فضيلة شجاعته فيَنكي
العدوَّ ، ويَحمي الحَوْزة ، وهذا الرائي عنه بمعزِل ، ناكِص على عقِبَيْه ، ناءٍ بجانبه ،
وهو في ذلك يَدّعي تلك الشجاعةَ لنفسه ، فهو يَكذِبُه في الدعوى ، ثم يصير
مُصدِّقًا بها ، وهذا من أعجب آفات النفس وأكاذيبها ؛ لأجل أن الكذبَ فيه
مُركَّب ، فقد يَكذِبُ الإنسانُ غيرَه ليصدِّقَه الغيرُ فيموّهُ نفسَه عليه / فأما [١٠٢٤]
أن يُموِّه نفسَه بالكذب ، ثم يصدِّقَ فيه نفسَه فهو موضع العُجْب والعَجَب .

ولأجل هذا التركيب الذي عرَض في الكذب صار أشنعَ وأقبحَ من
الكذب نفسِه البسيط المعروف .

وإذا كان العالِمُ الفاضلُ لا يقرَبُ به آفةُ الكذبِ البسيطِ لمعرفته بقبحه
لاسيما إذا استغنى عنه — فهو من الآفة المركّبة أبعد

فلذلك قلتُ : إن العالم لا يُعجَبُ ، فقد صارت هذه المسألةُ مردودةً
غيرَ مقبولة .

فأمّا ما يعرِضُ من العُجْب لمن يظن أنه عالم فليس من المسألة في شيء .

(٨)

مســـــألة

ما سبب الحياء من القبيح مرّة ؟ وما سبب التبجُّح به مرّة ؟

وما الحياء أوّلاً ؟ فإنّ في تحديده ما يُعرِّفُ من الشُّبهة ، ويُسهِّل دركَ الحقّ ؟

وما ضمير[1] قولِ النبي — صلى الله عليه وسلم — « الحياء شُعْبَة من الإيمان » فقد قال بعض العلماء : كيف يكون الحياء — وهو من آثار الطبيعة — شُعْبَة من الإيمان والإيمان فعل ؟ بذلك آمن يُؤْمِنُ إيمانا ، وهناك تقول حَيِيَ الرَّجُلُ واسْتَحْيى ، فيصيرُ من باب الانفعال ، أي المطاوعة .

وهل يُحمد الحياء في كل موضع أم هو موقوف على شأن دون شأن ، ومقبول في حال دون حال ؟

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

أما الحياء الذي أحْبَبْتَ أن نبدأ به فحقيقته انحصار النفس مخافَة فعلٍ قبيح [٢٤ - ب] يُحْذَر عنها .

وهو خلُق مَرْضِيٌّ في الأحداث ؛ فإنه يدل على أن نفسه قد شعرت بالشيء القبيح ، وأشفقَت من مُوَاقعتِه ، وكرِهت ظهورَه منه ، فعرض لنفسه هذا العارض .

---

(١) الضمير هنا : السر .

و إحساسُ النفس بالأفعال القبيحة ، ونفورُها عنها(1) دليلٌ على كرم جوهرها ، ومُطْمِعٌ فى استصلاحها جدا .

قال صاحب الكتاب فى تدبير المنزل :

« ليس يوجد فى الصبى فِراسةٌ أصحُّ ، ولا دليلٌ أصدقُ من آثارٍ تعرف نجابتَه وفلاحه وقبولَه الأدب — من الحياء » .

وذلك لما ذكرناه من علة الحياء ، وبيّناه من أمره .

فأما الشيخ فلا يجب أن يعرض لهم هذا العارض ؛ لأنه لا ينبغى لهم أن يحذروا وقوع فعل قبيح منهم ؛ لما سبق من علمهم ودُرْبتهم ، ومعرفتِهم بمواضع القبيح والحسن ، ولأن نفوسهم يجب أن تكون قد تهذّبت وأمِنت وقوع شىء قبيح منهم ، فلذلك لا ينبغى أن يعرض لهم الحياء .

وقد بيّن الحكيمُ هذا فى كتاب « الأخلاق » .

فقد ذكرنا الحياء ما هو وأنه انفعال ، وأنه يحسن بالأحداث خاصة ، وذكرنا سبب حُسْنِه فيهم .

* * *

فأما المسألة عن سبب التَّبجُّح بالقبيح فمسألةٌ غير لازمة ؛ لأن هذا العارض [٢٥-ا] سببُه الجهل بالقبيح ، وليس / يعرض إلا للجهال من الناس ، والدليل على ذلك أنهم إذا عرفوا القبيح أنه قبيح اعتذروا منه ، وتركوا التبجح به . وإنما يتبجَّحُ حين لا يعلمُ وجه قبحه ، وهو فى تلك الحال إذا تبجَّحَ به خرَّج له وَجْهاً مُمَوَّهاً فى الحسن ، فيصيرُ تبجُّحه بالحسن الذى خرَّجه أوْمَوَّهَ به ، فإذا تيقن أنه قبيح ، أو ليس يُمَوِّه وجهُ الحسن فيه — عدَلَ عنه ، واستَحْيَى منه ، وترك التبجح به .

* * *

(1) فى الأصل « عنه » .

وأما قوله عليه السلام: «الحياء شُعبةٌ من الإيمان» فكلام في غاية الحسن والصحة والصدق، وكيف لا يكون شُعبةً منه وبدء الإيمان التَّصديقُ بالله عزّ وجلّ، والمصدَّق به مُصدَّق نصه، وأفعاله التي هي من الحُسن في غاية لا يجوز أن يكون فيها ولا في درجتها شيء من المستحسنات؛ لأنها هي سببُ حُسنِ كلِّ حسن وهي التي تفيض بالحسن على غيرها، إذ كانت مقدمته ومبدأه، وبها نالت الأشياء كلها الحُسنَ والجمالَ والبهاء منها وبها.

وكذلك جميع أوامر الله — تعالى — وشرائعه، وموجبات العقل الذي هو رسولُه الأول، ووكيلُه — عند جميع خلقه — الأقدم.

ومن عرف الحسن عرف ضده لا محالة، ومن عرف ضده حَذِره وأشفق منه، فعرض له الحياء الذي حددناه ولخّصناه.

وصديقُك أبو عثمان[1] يقول: «الحياء لباس سابغ، وحجاب واقٍ، وستر من المساوي، أخو العفاف، وحليفُ الدين، ومُصاحِب بالتصنّع، ورقيبٌ من العصمة، وعين كالِئة، يذود عن الفساد، وينهى عن الفحشاء والأدناس»[2]. [٢٥-ب]

وإنما حكيتُ لك ألفاظه لشغفك به، ولحُسنِ قبولك كل ما يُشير إليه، ويدل عليه.

(٩)

مسألة طبيعية

ما سبب من يدعي العلم وهو يعلم أنه لا علم عنده؟

(١) توفي أبو عثمان الجاحظ سنة خمس وخمسين ومائتين. وكان أبو حيان معجباً به، وبكتبه، وقد ألف في تقريظه كتاباً ذكره ياقوت حصه، ونقل منه في معجم الأدباء ١٦ / ٩٥ — ١٠٢.

(٢) في غرر الخصائص للوطواط ص ١٩: «وتنهى عن ارتكاب الأرجاس وسبب إلى كل جميل».

وما الذي يحمله(1) على الدَّعوى، ويُدنيه من المكابرة، ويُخرجه إلى السَّفه والمهاتَرة؟

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

سبب ذلك محبة الإنسان نفسه، وشعوره بموضع نقصه، فهو لأجل المحبة يدّعي ما ليس لها؛ لأن صورة النفس التي بها تحسُن، وعليها تحصُل، ومن أجلها تُعتقَد — هي العلومُ والمعارفُ، وإذا عريت منها أو من خلّتها حصلت له من المذامّ ووجوه الشقاء بحسب ما يفوتها من ذلك.

ومن شأن المحبة أن تغطّي المساوئ، وتُظهرَ المحاسن إن كانت موجودة، وتدَّعيها إن كانت معدومة. فإن كان هذا من فعل المحبة معلوماً، وكانت النفس محبوبة لا محالة، عرض لصاحبها عارض المحبة، فلِمَ يُنكَرُ ادعاء الإنسان لها المعارف التي هي فضائلها ومحاسنها وإن لم يكن عنده شيء من ذلك؟

(١٠)

مسألة طبيعية

[٣٦-١] ما سبب فرح الإنسان بخيرٍ يُنسَب إليه / وهو فيه؟

وما سبب سروره بجميل يُذكَرُ به وليس فيه؟

الجواب(2) عن هذه المسألة هو الجواب عن المسألة التي قبلها؛ لأن الخير المختصَّ بالنفس هو العلومُ الصحيحة، والأعمالُ الصادرةُ بحسبها عنها.

---

(1) في الأصل «حمله».

(2) كتب ناسخ الأصل قبل هذه الكلمة «مسألة حسنة» وهو سهو لا شك فيه.

وإذا اعترف الإنسانُ بأن نفسه فاضلةٌ خيّرة، وجب أن يسرّ لما يُعْنَى به وقد أُثْنِيَ عليه بالجمال والحسن؛ فلذلك يُسَرُّ إلى ذِكْرٍ جميلٍ ليس فيه للعلة التي ذكرناها في المسألة الأولى (١).

(١١)

مسألة اختيارية

لِمَ قبح الثناء في الوجه حتى تواطئوا على تزييفه؟ ولِمَ حسن في المغيب حتى جرى ذلك بكل معنى؟ ألأنّ الثناء في الوجه أشبه بالخديعة؟ وفي المغيب أشبه بالإخلاص وتكرمة أم لغير ذلك؟

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

لما كان الثناء في الوجه على الأكثر إعارةَ شهادةٍ بفضائل النفس، وخديعةَ الإنسان بهذه الشهادة، حتى صار ذلك سبباً لاغتراره وتركه كثيراً من الاجتهاد في تحصيل الفضائل، وغرضُ فاعلِ ذلك اجترارُ مودةِ صاحبه إلى [illegible] بإظهار مودّتِه له، ومحبّتِه إياه — صارَ كالمكر والحيلة فذُمَّ وعِيب.

فأما في المغيب فهو حسَن لأن قصد المثني في الأكثر الاعترافُ بفضائل [٣٦-ب] غيره، والصّدق عنه فيه.

وفي ذلك تنبيهٌ على مكان الفضل، وبعثٌ للموصوف والمستمع على الازدياد والتمام، وحرصٌ على أسبابه وعلله.

وربما كان القصد خلاف ذلك، أعني أن يكون غرضُ المُثْنِي في المغيب

---

(١) يريد بها المسألة السابقة.

مخادعةَ المُثْنَى عليه، وأطمعَ في أن تنفقَ ذلك عنه فيَنْفُقَ عنه، ويستميله
ويَسْتَجِرَّ به منافعَه وهو حينئذ شبيه بجهة الأولى في المكر، ومستقبح.

وربما قصدَ الأوّلُ في الثناء والمدح في الوجه الصدقَ لا الملقَ، فيصير مستقبحًا
إلا بقدرِ ما يُظنّ أن الممدوح يغترُّ به فيُقصِّرُ في الاجتهاد.

فقد تبيّن أن الثناء يحسُن بحسب قصد المثني وأغراضِه، وبحسب صدقِه
وكذبه، وعلى قدرِ استصلاحه للمُثنَى عليه أو استفساده، ولكن الأمر محمول
على الغالب في الظن والعادةِ فيه.

ولما كان الأمرُ على الأكثرِ كما ذكرناه، وعلى ما حكيناه — قبح في
الوجه، وحسُن في المغيب، وإن جاز أن يقع بقصد فيحسن في الوجه ويقبح
في المغيب.

(١٣)

مسألة طبيعية

لمَ أحبَّ الإنسان أن يعرف ما جرى من ذِكْره بعد قيامه من مجلسه، حتى
[٢٧ - ١] إنه ليحرصُ على أن يقفَ على ما يُنوَّه به بعد وفاته، ويحبُّ أن يطّلع على جملة
ما يكون ويُقال؟

وكيف لم يتصنّع لفعل ما يجب أن يكون منسوبًا إليه مرتبًا به؟ هذا ونحن نجد
لذلك طبيعة لو رام زواله عنه ما أطاق ذلك، وإن كابَرَ طباعه، وأراد خِداعَه.

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

قد تقدّم لنا في بعض هذه الأجوبة التي مضت أن للنفس قوّتين. إحداهما

هي التي بها يشتاقُ الإنسانُ إلى المعارف واستنباطها ، ولما كانت هذه المعرفة عامةً له في سائر الأشياء كانت بأن يخصّه في نفسه التي هي محبوبته ومعشوقته — أَوْلَى

فالإنسان يَشتاق إلى هذه المعرفة بالطبع الأول ، والقوة التي هي ذاتية للنفس ، ثم تتزيَّدُ هذا التشوّق ، ويشتعل ويقوى ؛ لأجل خصوصه بمعرفة أحوالِ نفسه المحبوبة

* * *

فأما تصنُّعُهُ للفعل ما يجب أن يكون مستورا إليه فإنه ليس محركه إلا أن محبتهُ عارضٌ آخرُ مِنْ شهوة غالبة تقويه ، فهي أغلبُ وأشدُّ محدثة له كما قد ذكرنا فيما تقدّم من أن المريض يخلط الصحة ، ويحاجّها إليه ، ثم يؤثره عليها بين شهوة رديئة غالبة ، وإن فاته الصحة المُؤْثَرَة في العاقبة

ولولا هذه الشهواتُ الدنية المُفترِضة على السعادات المُؤْثَرة — ما تميّزَ [٣٧-ب] الفاضلُ من الناقص ، ولا مُدِح العفيف ، وذُمّ الشَّرِه — ، وكنا حينئذ لا ننتفع بالآداب والمواعظ ، وكان لا يحس بنا التعب والرياضة فيها على الطبيعة فيه كُلفة ومشقة .

وهذا بيِّن كافٍ في جواب المسألة .

(١٣)

مسألة اختيارية

قال : لِمَ حُقَّ للشاب إذا تَشايخَ ، وأخذَ نفسه بالزَّمَانة[١] والمتانة ، وآثر الجدَّ ، وانشمَرَ من الهزل ، وتنزّه عن الخنا ، وسدّدَ طرفه في مشيه ، وجمع عِطْفه في قعوده ، وتشدَّقَ في لفظه ، وحذّق في لحنه ؟ .

---

(١) الزمانة : الوقار

الجـــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله .

السبب فى ذلك أن الشاب إذا شبّ ونما يظهر أن لا حركة طبيعته نحو الشهوات ، وهذه القوة والطبيعة هى فى الشاب على غاية التمام والتزايد : لأنها فى حال النشوء ، ولا تزال متزايدة إلى أن تبلغ غايتها ، وتقف ، ثم تنتقص على رسم سائر قوى الطبيعة ، فإذا ادّعى الشاب مرتبة الشيخ التى قد انحطت فيها هذه القوة علم أنه كاذب فاستقبح منه الكذب والزيادة فى غير موضعه ، ومن غير حاجة إليه .

والكذب إذا كان صراحا وغير حق ، وكان صاحبه يأتيه من حاجة ربما [٢٨ - ١] ازداد / مقت الناس له ، واستُدِلّ به على رداءة جوهر النفس .

فإن اتفق هذا الشاب أن يكون صادقا ، أعنى أن يكون طبيعته ناقصةً وشهوتُه خامدةً — استُدِلّ على نقص طبيعته ، وبرئ من عيب الكذب ، إلا أنه يكون مرحوما لأجل نقص بعض طبائعه مما يعيِّر عليه الناس ، ويصير بالجملة غير مذموم ، ولا معيب إذا كان صادقاً

وأما إن كان صادقاً فى ضبط نفسه مع حداثة سنّه ، والتهابِ شهواته ، ومنازعةِ قواه إلى ارتكاب اللذات ، فإن مثل هذا الإنسان لا يبعدُ أن يشتهر أمره ، ويعظم ذكره ، ويصير إماماً معصوماً ، أو نبيا مبعوثاً ، أو وليّا مُستخلَصا .

وليس يخفى على الناس المتصفّحين حركاتُ الصادق من حركات الكاذب وأفعالُ المتصنع من أفعال المطبوع .

على أن هذا الشاب الصادق الذى استشهد به إنما يوجد فى القِرانات الكبيرة

الأزمنة المتفاوتة ، والأكثر هو ما قدمنا الكلام فيه . فلذلك سبق الناس إلى الحكم عليه .

* * *

فأما المسألة التالية لهذه وهى قولك :

وعلى هذا لِمَ سخف شيخ تَفَتّق وحرّك منكبيه ، وحضر مجالس اللهو ، وطلب سماع الغناء ، وآثر الخلاعة ، وأحب المجون ؟ وما المجون والخلاعة حسب ما جرى ذكرهما ؟ .

فإن الجواب عنها شبيه بالأولى ؛ لأنها عكسها . وذلك أن الشيخ إذا ادعى [٢٨-ب] من قُوَى طبيعته فى حال الشيخوخة ما ليس له ، كمن كذب يُنفَث عليه ، لا سيما وكذبه إنما هو فى ادّعاء شرور وفضائح كان يستحيى منها ، ولو كانت موجودة له ، أن يجحدها — أو يخفيها (١) — ... عليه إذا لم يظهر هذه القوة التى به عليه فى الزمان الطويل الذى مُدّ له فيه ، وسِنّه فى مثله على النقصان ، وتمكّن فيه من رياضة النفس ، واستكمال التأديب ، فحاله أقبح من حال الشاب الذى سبق الكلام فيه ؛ ولذلك هو أمقت وأقبح صورة عند ذوى العقول .

* * *

فأما المجون فهو المسارعة إلى فعل ما تستدعيه النفس الشهوانية من غير مشاورة العقل ، ولا مراقبة الناس (٢) .

* * *

وأما الخلاعة فمشتقة من خلع العذار الذى يضبط به العقل أفعاله .

---

(١) معطوفة على « من ... من كذب ... » .

(٢) فى اللسان : ... على شىء ... وصلب وغلظ . ومنه اشتقاق الماجن ... وجهه وقلة استحيائه ... والماجن عند العرب الذى لا يبالى ... لا ... ولا عظة ... عذله ، ولا تقريع من يقرعه .

ولفظةُ العقل شبيهة بذلك؛ لأنه من العقال[١]، وكذلك الحِجْر[٢].

(١٤)

مسألة خلقيـــة

لِمَ خُصَّ اللئيم بالحلم؟ وخُصَّ الجوادُ بالحِدّة؟[٣].

وهل يجتمع الحلم والجود؟ وهل تفترق الحدّة واللؤم؟ وما حكمهما في الأعم، وإن ثبتت على وجه غير المتعارف إلى وجه

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله —:

أظنك أردت بالبخيل اللئيم؟ [illegible] وقد تكلمت على مرادك لأن باقي الكلام يدل عليه

[٢٩ ا] فلعمري إن ذلك في الأكثر كما ظننت وإن كان قد ينعكس الأمر فيوجد حليم جواد، وحليم حديد، [illegible] الأولى أن يكون الجواد حديدا، وذلك أن البخيل هو الذي يمنع الحق من مستحقه على ما ينبغي، وفي الوقت الذي ينبغي، وكما ينبغي. وإذا منع البخيل حق غيره فالجود [illegible] وقد [illegible] من نفسه [illegible] لأنه

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

(٣) [illegible]

من الشَّيْن أن المحسنَ إذا دفعه الذامُّ فإنما يُذَكِّره مواقعَ ظلمه ، وإخراجَ الحق الذي عليه على غيرِ الوجوهِ التي تنبغي .

وإذا كان الذمُّ صدقًا والمحسنُ يعرف صدقَه عما يجده من نفسه ، فيجب أن يحتملَ لا محالة لموافقته الصدق ، ولأنَّ النفس بالطبع تسكنُ عند الصدق ، وتستخذي له ، فالأشبه بالنظام الطبيعي أن يكون المحسن حسب ما ذكرناه .

وإنما عرض ضد ذلك ، وهو إذا كان المحسنُ جاهلًا بالحقوق التي تجب عليه على الشرائط التي ذكرناها ، فإذا جهل ذلك لم يعرف صدقَ من يصدقه فيه ، ولا ظلمه وإنصافه ، فيعرف قبح فعله ، فتعرض له رذيلتان : إحداهما منع الحق ، والأخرى الجهل بموضع الحق ، وقد تعرض للمحسن الحدّةُ والنزق ، فيعجزون عن حمل ما ذكرناه ، ونحن لا نتكلم فيه .

* * *

فأما قولك : لم خص الجوادُ بالحدة فإنه غير مقبولة : لأن الجواد ليس يختص بالحدة ، وذلك أن حقيقة الجود هو بذلُ ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي [٢٩ - ب] لمن ينبغي ، ومن كانت له هذه الفضيلة لم يُنْسَبْ إلى الحدة : لأن الحديد لا يبذل شيئه موضعه ، فهو بعيد من الجود ، وإذا جاوزه سُمِّي مسرفًا ومبذرًا ، فلا يستحق اسم المدح بالجود .

ولكن لما كانت هذه المرتبة عالية مشتبهة في وضع الجود موضعه الشريف ، حتى إذا كان لا يقف في حده صار عندهم أشدَّ استحقاقًا لاسم الجود ، حتى سموا به من وضع في غير موضعه ، ومكان المدح ، فصارت الحدة مقترنة بالسرف ، والسرف على حسب موضوعهم محمود ؛ لأنهم لا يتمكنون من روية ، والدقة والحزم ، بل وضع الشيء في غير موضعه فيسمى مسرفًا عند الحكماء .

وقد بيّن في كتب الأخلاق أن الجود الذي هو فضيلة وسط بين طرفين

مذمومين. أحدهما مقصر، والآخر [illegible] فأما صاحب التقصير من خودٍ فيه الذي يُسمّى [illegible]، وهو مذموم، وأما [illegible] في العلو فيه الذي يسمى السرف

وواجب على من أحب [illegible] ذلك أن يقرأه من كتب الأخلاق فإنه تستغرق شرحه.

(١٥)

مسألة [illegible] و [illegible]

[illegible] كان الإنسان [illegible] ولا [illegible]

[illegible] في [illegible]

[٣٠ ا] على [illegible]

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله.

قد بينّا في مباحث الفلسفة أن العلم هو إدراك النفس صور الموجودات على ما هي عليه، ولهذا قال بعض الأوائل إن النفس مكان للصور، [illegible] أفلاطون، [illegible] لأن النفس إذا اشتاقت إلى العلم الذي هو [illegible] [illegible] صورة [illegible] في ذاتها حتى تكون الصورة التي [illegible][1] [illegible] صورة [illegible]، لا [illegible]، ولا [illegible]، وهو حينئذ علم محض وإن كانت الصورة [illegible] إلى النفس غير [illegible]

وهذه الصورة كلما كثرت عند النفس [illegible] على [illegible]، وليس في هذا المعنى كالمحسوس [illegible] وذلك أن الجسد إذا حصلت فيه

(١) في الأصل «[illegible]».

صورة ضعفت عن قبول صورة غيرها ، إلا أن تنمحي الصورة الأولى منه ، أو تركب الصورة الأولى والثانية الواردة فتختلط الصورتان ولا تحصلان لإحداهما على التمام ، وليست النفس كذلك .

ولما كانت نفس الإنسان هيولانية مشتقة من كلام الموصوفين هنا أن الصور بعموم الموجودات كلها ، على الأمور الكلية دون الجزئية ، وكانت قوية في ذلك ، وكانت صور الموجودات فيها غير مضيقة بعضها مكان بعض ، بل هي ضد من الأجسام في [illegible] كلما استفادت صورة في ذاتها قويت على استفادة أخرى ، وحصلت الصور كلها بعضها من بعض ، وذلك بلا مباينة — [٣٠ ب]
أن الإنسان محتاج إلى [illegible] إلى استفادة صور الموجودات ، حقيقتها منه .

* * *

وما أحسن قسم هذه [illegible] الصور والمعقولات ، ونحن في اقتناء هذه الصور حول إلى سكينة واحدة مشبعة [illegible] النفس [illegible] .

فأما عدمها فليس بما يسكنها ويشغلها ، بل النفس عدمه لذلك ، ومثل [illegible] من المحسوس صورة [illegible] لا كتابة فيه ، وينبت الكتابة ، وصور الحروف [illegible] تتشكل ، فأما تركه حاليه فلا كتابة فيه ، إلا على مذهب من يرى صور [illegible] موجودة للنفس [illegible] ، وإنما عرض [illegible] النسيان ، وأن التعلم [illegible] [illegible] لآفة النسيان عن النفس .

ولو كان الأمر كذلك لكان حوالة [illegible] هذا المذهب [illegible] [illegible] التعب بإزالة آفة واحدة ، وتركه مؤوفا[1] لا يعتريه فيه .

ولكن هذا مذهب غير مرغوب فيه ، وللشك به في هذا الموضع فصل :

(١) مؤوفا : أي مصابا

لأنه ليس من المسألةِ في شيء، وإن كان الكلامُ قد جرَّ إليه، ولكنّا ندلُّ على موضعِه فليُؤخذْ من هناك، وهو كتبُ النفسِ.

* * *

فقد تبيّن أن العلمَ تصوُّرُ النفسِ بصورةِ المعلومِ، والتصوُّرُ تقبُّلٌ من الصورة. والجهل هو عدمُ الصورة، فكيف يُستفادُ التقبُّلُ من الصورةِ في [٣١-١] عدمِ الصورة؟ هذا مُحال. /

(١٦)

مسألة طبيعية

لِمَ شارك المتعجِّبُ من نفسه المتعجَّبَ منه؟

مثال ذلك: شاعرٌ يُغرِقُ في دقيقة فيتعجّبُ منه السامعُ حسب ما اقتضى بديعُه، والشاعر لِمَ يتعجّبُ أيضاً وهو المتعجَّبُ منه؟ وهذا تجدُه في النظم والنثر، والجوابِ والكتابِ والحسابِ والصناعة.

وعلى ذكرِ المتعجِّبِ والتعجُّبِ، وعلى ماذا يدُلّ؟ فقد قال الناسُ فيه كلاماً: قيل لبعض الحكماء: ما أعجبُ الأشياء؟ قال: السماء بكواكبها.

وقال آخر: أعجبُ الأشياء النارُ.

وقال آخر: أعجب الأشياء اللسانُ الناطقُ.

وقال آخر: أعجب الأشياء العقلُ اللاحقُ.

وقال آخر: الشمسُ.

وقال أرسطاطاليس: أعجبُ الأشياء ما لم يُعرفْ سببُه.

وقال آخر: بل أعجبُ الأشياء الجهلُ بعلة الشيء.

فَعَلَى قِيادِ[1] ما قال أولئك كلُّ شيء عجبٌ .

وعلى وضع ما قال هـذا الحكيمُ كل مجهولٍ منه ، فهو عجبٌ ، كان ذلك من الحقير ، أو من النفيس .

وقال آخر : أعجب الأشياء الزرق ؛ فإن ساحله بعيدٌ ، وغوره عميقٌ ، والعقلُ في شرحه فيه حيرانُ ، والعاقلُ مع اجتهاده سكرانُ .

وقال آخر : لا عجبَ . وصدق .

في هذا التفاوت والتباين ، وليس في الحقّ اختلافٌ ، ولا في الباطلِ ائتلافٌ ؟

وعلى ذكرِ الحقّ والباطلِ ، ما الحقُّ والباطلُ ؟ و ستطم في هذا الفصل .

قال بعض الأولين : أعجب الأشياء إكداء الزاهدِ[2] ، ومَنالُ العاجزِ[3] . [٣١-ب]

وقال آخر من الصوفية وشاهدته وباطرته واستفدتُ منه — أعجب الأشياء بعيدٌ لا يُجحَدُ ، وقريبٌ لا يُشهَدُ ، وهو الحقُّ الأحدُ .

* * *

وعلى ذكر الله تعالى ، بم يحيط العلمُ من المشار إليه باختلافِ الإشاراتِ والعباراتِ ؟ أهو شيء تَنصبُ بالاعتقاد ؟ أم هو مُطلَقٌ لفظٍ بالاصطلاحِ ؟ أم هو مضاف إلى صفةٍ من الصفات مع الجهلِ بالموصوف ؟ أم هو غيرُ منسوبٍ إلى شيء بعرفان ؟

---

(١) في اللسان : « القياد : حبل تقاد به الدابة » .

(٢) المراد بالزاهد هنا : الكامل الفاضل والحق والمسلم ، وإكداؤه تحرمه عن المطامع ، وقد جاء في اللسان : « الكدية : قطعة صلبة لا يعمل فيها الفأس » ، ومنه حديث عائشة تصف أباها — رضي الله عنهما — سبق إذ ونيتم ، ونجح إذ أكديتم ، أي ظفر إذ خبتم ولم تظفروا ، وأصله من حافر البئر ينتهي إلى كدية ، فلا يمكنه الحفر فيتركها » .

(٣) قال أبو حيان في كتاب البصائر ص ٣٤ : « قال معاوية يوماً وعنده الضحاك بن قيس الفهري ، وسعيد بن العاص ، وعمرو بن العاص ، ويزيد ابنه — ما أعجب الأشياء ؟

فقال الضحاك : إكداء العاقل ، وحظ الجاهل .

وقال سعيد : أعجب الأشياء ما لم ير مثله .

وقال عمرو : أعجب الأشياء غلبة من لا حق له ، ما ليس له بحق ، من غير غلبة .

وقال يزيد : أعجب الأشياء هذا السحاب الراكد بين السماء والأرض لا يدعمه شيء »

فإن كان منعوتاً بنعت، فقد حصَرَه الناعتُ بالنعت.

وإن كان غيرَ منعوتٍ، فقد سنحته الجهلُ، وراحةُ المعدوم.

ولا بد من الإثبات إذا استحال نفيٌ، وإذا وقف الإثبات والنفي على المُثبِت النافي، فقد سبق إذن كلَّ إثباتٍ ونفي.

فإن كان سابقاً كلَّ هذه الأنماطِ، وحجيجَ هذه الأغراضِ، فما نصيب العارف؟ وما بُغيةُ ما ظفِرَ به الموحِّد؟

هيهات! هيهات! اشتد اللغط، وكثر الغلط، ورجع كلٌّ إلى الشطط، وفات ثقةُ الفهم والدهم(1)، ووهمَ الواهمُ، وبقي مع الخلق علمٌ مختلَفٌ فيه، وجهلٌ مصطلَحٌ عليه، وأمرٌ قد بُرِم به، ونهيٌ قد ضُجِر منه؛ وحاجةٌ فاضحة، وحجةٌ داحضة، وقولٌ مزوَّق، ووعظ منمّق، وعاجل ممشّق، وآجل مُعوَّق، وظاهر مُلفَّق، وباطن مُمزَّق.

[١٠٣٢] إلى الله الشكوى من غلباتِ الهوى، وسطوات العدى؛ إنه رحيم ودود

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

هذه المسألة التي ذنَّبَ فيها صاحبُها(2) بمسائلَ أعظمَ منها، وأبعدَ غوراً، وأشدَّ اغتياصاً، وأصابه فيها ما كان أصابه قبلُ في مسألة تقدَّمتها(3)، فظهر لي في عذرِه أنه داءٌ يعتريه، ومرضٌ يلحقه، وليس من طغيانِ القلمِ، ولا سلاطةِ(4) الهَذَرِ، ولا أشَرِ الاقتدارِ في شيء، كما أنه ليس من جنسِ ما يستخفُّ المتكهِّن

---

(١) في الأصل: «الفهم».
(٢) أي جعل لها أذناباً.
(٣) يريد بها المسألة الرابعة.
(٤) في اللسان: «رجل سلِط: أي صخِب حديد اللسان بيّن السلاطة»، والهذر الهذيان.

سد الكهانة ، ولا من نمط ما يفترى المتواجد من الصوفية ، وما أحسبه
إلا من قبيل المسّ والحسّ والعاتب من الشخص الذى يتعوّذ بالله منه ، فقد
علق فى سجاعته القافية عما تنبو له الآذان ، وتصرف عنه الأبصار والأذهان .

ولولا أنه اشتكى إلى الله تعالى فى آخره من سطوات الدهر فاعترف بالآفة ،
واستحق الرأفة ، لكان لى فى مداواته ، شغل عن تسطير جوابه .

* * *

وهم — عافاك الله — أن آثار النفس وأفعالها كلها تابعة لمزاج الحسّ
وتركيبه ، وذلك لأن أكثر الناس منصرفين عن النفس نفسها ، متحيرين فيها ،
تذهب بهم ضروب الظنون ، وليس يخلون مع كثرة تحيرهم فى هذه الظنون من
أن يجعلوها جسما على عاداتهم فى الحس ، وتصورهم فى المحسوسات ، ثم يجدون
أفعال هذه النفس وآثارها غير متشابهة شيئا من آثار الجسم وأفعاله ، فيزداد
تحيرهم ، ولو أنهم حصّلوا ماهية النفس لكان تعجبهم من آثارها فى أنها [٣٢-ب]
ذات هى غير جسم ، ولو صح لهم أنها جسم لم يكن بدعا عندهم أن تكون
آثارها غير جسمانية .

ولما كان الشعر المنفق ، والنظر فى الصناعة الموسيقية من الحساب وغيره
من الصناعات — إنما تستدعى نظرا عقليا ، ووجودا عقليا ، وحركة نفسية
لا غير مكانية ، لطلب مطلوب غير حسى ، ثم وجدت هذه الحركة من
النفس منفصلة بالإدمان والإمعان إلى وجود المطلوب — تعجب أولا من هذه
الحركة التى تجدها من نفسه ضرورة ، وليست مكانية على عادة الجسم فى حركة
الجسم ، ثم من وجوده المطلوب بعقب هذه الحركة . فعرض له هذا العارض من
التعجب ولم يكن السامع أولى بهذا التعجب منه ؛ لأنهما قد اشتركا فى الجهل
بالنفس ، وبآثارها وأفعالها ، وكل واحد منهما حقيق بالتعجب . فأما العارف

بالنفسِ وجوهرِها ، العالمُ أنها ليست بجسم ، وأن آثارها وأفعالها لا يجب أن تكونَ جسمانيةً — فإنه لا يعترض له هذا العارض في نفسه ، وكذلك صورة مُشتبِهة إذا كانَ عالمًا كلَّه .

***

فأما التعجبُ نفسُه الذي سأل عنه السائلُ في عَرَضِ مسألتِه الأولى فإنه حَيرةٌ تعرض للإنسانِ عند جهلِ السببِ ، فكلما كانت المعرفةُ بأسباب [٣٣ - ا] الموجوداتِ أقلَّ كانت المجهولاتُ أكثرَ ، والتعجبُ بحسبها أشدَّ ، وبالضد إذا كانت المعرفةُ بأسباب الموجوداتِ أكثرَ ، كانت المجهولاتُ أقلَّ ، والتعجب بحسبها أقلّ ؛ ولذلك قال قوم : كلُّ شيء عجبٌ . وقال قوم : لا عجبَ من شيء .

فإن كانت[1] الطائفةُ[2] الأولى اعترفوا بالجهل العام ، وزعموا أنهم يجهلون أسبابَ الأمور ، فالطائفةُ الثانية ادّعت لنفسها مرتبةً عظيمة ؛ لأنهم زعموا أنهم يعرفون أسبابَ الأمور .

***

فأما قولك — أعزك الله — عندما عددت أقوالَ المتكلمين في التعجب ما هذا التفاوتُ والتباينُ وليس في الحق اختلافٌ ، ولا في الباطل ائتلافٌ ؟

فالجواب : أنّ التعجبَ ليس شيء له طبيعةٌ ، ولا وجود له من خارج ، وإنما هو كما ذكرنا حيرةُ النفس عند جهلها السببَ ، وما كان ما يجهله زيد قد يعلمه عمرو ، ولم يُنكَرْ تفاوتُهما في العجب ؛ لأن كلَّ واحدٍ منهما متعجّبٌ مما يجهل سببَه ، ومجهولُ هذا هو بعينه معلومُ هذا .

وإنما كانت تكون المسألةُ عويصةً وبديعةً لو كانَ لأمرٍ مّا وجودٌ من

---

(١) في الأصل : « كان » .

(٢) في الأصل : « والطائفة » .

. ح ثم اختلف فيه قوم فضلاء نعتد بآرائهم ، ونذكر أسماءهم ، وقال قوم منهم : هو حق ، وقال آخرون : هو باطل .

على أن مثل هذا قد وقع فى مسألة الخلاء ، وفى الزمان والمكان والعدم وشبهه من المسائل ، فقال قوم : هى جواهر لا أجسام لها ، وقال قوم : هى . . . ، وقال آخرون : ليست أجساما ولا جواهر ولا أعراضا . واحتج [٣٣-ب] . . قوم بحجج قوية . إلا أن جميع هذه المذاهب تحررت فى زمان الحكيم . . . استقر قرارها ، ووضح مشكلها ، وبان صحيحها من سقيمها .

وليس من شأننا الإطالة فى هذه المسائل ، فنذكرها ونحكيها . فإن أحببت . . . فقف عليها من مظانها ، وحرر ذلك متى نتفرغ لها زمانا ونظرا ، إن . . . الله .

* * *

وأما سؤالك فى آخر هذه المسألة . . . يحيط علم الخلق من المشار إليه تقدس « الله » باختلاف الإشارات والعبارات ؟ مع سائر ما ذكرت ، فإنا نعرف شيئا . . . ، ولا يقول أحد إنه يحيط علمه بشىء من هذا ، ولا ينقص به كما ذكرت ، . . . نعترف أيضا بهذه النعوت فيه

والكلام فى هذا الموضوع لا يمكن استقصاؤه : إذ كان جميع سعى . . . الحكماء بالفلسفة إنما ينتهى إلى هذا ، وإليه قصد بالنظر كله ، وليس يمكن أن . . . تكلم فيه إلا بعد تحصيل جميع المقدمات التى قدمت له ومهدت لأجله ، أعنى الرياضيات والطبيعيات ، ثم ما بعد الطبيعة من علم النفس والعقل ، ثم بعد معرفة جميع هذه الجواهر الشريفة يمكن أن يعلم أنها عاجزة ناقصة متكثرة مضطرة إلى سبب أوّلى ، وموحد قديم ، ومبدع ليس كهى فى ذاتٍ ولا صفةٍ

فيكون هذا الحال أشرف من كل علمٍ سبقه، وهو من الصعوبة والغموض بحيث تراه.

[١-٣٤] ولو كان إلى معرفة هذا الموضع طريقٌ غير ما ذكرناه لسلكه القدماء وأهل الحرص على إشاعة الحكمة وإذاعتها، فإنهم — رضي الله عنهم — ما بخلوا ولا ضنوا، ولكن لم يجدوا إلى هذا المطلوب إلا طريقاً واحداً فسلكوه وسهّلوه بغاية جهدهم، ودلّوا عليه، وأرشدوا إليه؛ وهو — لأنه سعادة البشر، لا شك فيه — فليتكلف الصبرَ على سلوك طريقٍ إليه صعباً كان أو سهلاً، وطويلاً كان أو قصيراً، على عادة المشتاق فيما يسلك السبل في الظفر بمحبوبه كيف كانت، غير منكر في الوعورة والبعد. ومن لم يطق الصبرَ على هذا السلوك فليقنع برُخَصِ الأخبار والصفاتِ المصدِّقة له في الشرائع الصادقة المؤيدة وتُصدِّق الحكماء والأنبياء والمقتدين بهم، وتخمين الظن، فليس يجد غير هذين الطريقين. والله وليّ معونته والتوفيق.

(١٧)

مسألة اختيارية

لِمَ إذا اشتد الأنس واستحكم، وتمحّضت الزُّلْفة، وطال العهد — سقط التقرب، وسَمُجَ الثناء؟ ومن أجله قيل: إذا قدُم الإخاء سقط الثناء. وهذا عِيانُه مشهود، وخِبْرُه[1] موجود.

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

إن الثناء في الوجه وغيرِ الوجه إنما هو إعطاء المُثْنَى عليه حقوقه من أوصاف

(١) في اللسان: «الخبر بكسر الخاء وضمها: العلم».

[illegible] ، والاعتراف بها له ، وإعلامه أن المسيء قد شعر به ، وأوجبها له ،

[illegible] عليه ؛ يصير ذلك له قرابة ووسيلة ، ولتحدث بينهما المودة وليث كلفة ، [٣٤ - ب]

[illegible] الود ، وشخ [illegible] معرفة . فإذا حصلت هذه الأمور في نفس كل

واحد منهما ، وعلم المثني عليه أن المثني قد أنصفه ، وسر إليه حقه ، واعترف له

[illegible] ، ولم يبخسه ماله ، وحدثت المودة والمحبة التي هي نتيجة الإنصاف ،

[illegible] العدل ، وقد مت [illegible] ، [illegible] ومن [illegible] سكلف [illegible]

[illegible] ؛ [illegible] الأول ، وحصول [illegible] الأولى

[illegible] كلف مثل هذا عبث وسفه ، مع ما فيه من [illegible] الأول ،

[illegible] في [illegible] [1] [illegible] ؛ لأن الشهادة الأولى [illegible]

[illegible] .

وهذا [illegible] المودة التي [illegible] شدة الأسر ، واستحكام

[illegible] ، ووثاقة السبب .

(١٨)

مسألة طبيعية

[illegible] صار الأعمى يجد فائتة من البصر في شيء آخر ؟ كما نجد من العميان من

[illegible] حاذق ، طيب الصوت ، غزير العلم ، سريع الحفظ ، كثير [illegible] ،

[illegible] التمتع ، قليل الهم .

---

(١) في [illegible]

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

إن للنفس خمسة مشاعر تستفيد منها العلوم إلى ذاتها، وكأنها في [illegible]

[٣٥-١] منافذ وأبواب لها إلى الأمور الخارجة عنها

أو مثل أصحاب أخبار يؤدون إليها أخبارا تخص نواحي وهي مقسمة [illegible]

إلى هذه الأشياء الخمسة.

ومثلها أيضا في ذلك مثل عين ماء ينقسم ما ينبع منها إلى خمسة أنهار [illegible]

خمسة أوجه مختلفة.

أو مثل شجرة لها خمس شعب، وقوتها منقسمة [illegible].

وقد علم أن هذه العين متى سد مجرى ما [illegible] على أحد لا

الأربعة الباقية أو انقسم فيها [illegible] سواء، أو على [illegible] ولا أكثر [illegible]

ذلك القسط من ماء النهر المسدود، ولا يغيض، ولا يضيع.

وكذلك الشجرة إذا قطعت شعبة من شعبها [illegible] كان [illegible]

[illegible] من غصون الشجرة وعروقها [illegible] على شعبها [illegible] الباقية؛ حتى

في [illegible] وورقها وأغصانها، وفي زهرها [illegible]، وقد عرف [illegible]

[illegible] وهم [illegible] من الشجر [illegible] والأغصان [illegible]

[illegible] من الأغصان [illegible] على [illegible]

[illegible] في الأشجار [illegible]

[illegible] في الأغصان [illegible] الشجر [illegible]

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

والدُّلْبِ[1] وأشباهها مما يُحتاج إلى حشه بالقطع والنحت والنجر، فإنهم يتفقدون أيَّ / الأغصان أولى بأن ينبت مستوياً غير مضطرب، وأيُّها أحقُّ [٣٥-ب] بالأصل الذي يَمُدُّه بالغذاء فيُقوِّيه، ويحذفون الدقيق فيشتدُّ ذلك الغصن في أسرع زمان وأقصر مدة؛ لانصراف حصة الغذاء إليه.

وإذا كان هذا هكذا من فعل الطبيعة، فكذلك حال الأعمى في أن إحدى قوى نفسه التي كانت تنصرف في مراعاة حس من حواسه لما قُطعت عن مجراها توفرت النفس بها إما على جهة واحدة، وإما موزعة، فتبينت [illegible]، وظهرت إما في الذهن وجودة الفكر، أو الحفظ، أو غيرها من [illegible] النفس.

وهذا يبين لك [illegible] ... وهو في [illegible] الدقيقة [illegible] ... [2] ... أذكى [illegible] ... وكالحب في [illegible] ... من مبصرات [illegible] ... [3] [illegible] ... فلا يزال [illegible] ... [illegible]

[illegible]

[١-٣٥] فأما صدق شمّه فهو صحة تقصّيه من المشمومات عن المسافة البعيدة جداً.

* * *

فأما سبب الأعمى نادراً[1]، وعلة أمره، فإن سببه أن تجتمع نفسه جملة الآلات التي كانت تضيّعها على هذه الأشياء وجزئياتها، فإذا انصرفت إلى الله في شيء آخر قوي فيه منه.

وإذا كانت الاهتمامات منتشرة كثيرة، ودواعي النفس إلى الفكر شديدة كالمسموعات وأصنافها، والمبصرات وأنواعها، والمشروعات وآلاتها، وتوجه جميع همته إلى البصر وصدّه، فصدّت عن أكثر الأشياء التي تحوم الحس، وأنشئت في الفكر، واستعد الحيّ في خصائصه وقت ما يتوجه بنفسه على فرد بجملته، فقلّ عموم الأعمى لأجل ذلك.

(١٩)

مسألة طبيعية واختيارية

لم قال الناس لا خير في شركة؟

وهذا الحد ظاهر الصحة: لأنا ما رأينا مشتركاً ثبت، ولا أمر ولا تقدّم أصح شركة، وحتى قال الله — عز ذكره —: «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا[2]» وصار هذا المعنى أشرف دليل في توحيد الله عز وجل شأنه — ونفي كل ما عداه.

---

(١) راجع حكمة العين في كتاب الحيوان ص ٢٦
(٢) سورة الأنبياء ٢٢

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

إنما صارت الشركةُ بهذه الصفة لأن كلَّ من استغنى بنفسه، وكفته قوّته في تدوين حاجته لم يَستَعِن فيها بغيره، فإذا عجز واحتاج إلى معاونة غيره اعترف بنقص، واستمدّ قوة غيره في تمام مطلوبه.

ولما كان العجز/ مذموما، والنقص معيبا كانت الشركة التي سببُها العجزُ [٣٦-ب] والنقص معيبة مذمومة؛ لأنه يُستَدَلّ بها على نقص المشاركين جميعا وعجزهما.

على أن الشركة بالإنسان ليست مذمومة في جميع أحواله، بل إنما تذمّ في الأشياء التي قد يستقلّ بها غيره، وينفرد بحملها سواه، كالكتابة وما أشبهها من الصناعات التي لها أجزاء كثيرة، وقد جمعها إنسان واحد فينفرد بها، وينفرد بصناعة أجمعها، فإذا نقص فيها آخر [و] احتاج إلى الاستعانة بغيره ظهر به، وبان عجزه، ودخل في صناعته خلل. وكاحتمالِ مائة رطل من الثقل، فإن الإنسانَ الواحدَ يكمل له، ويستقل به، فإذا احتاج إلى غيره في احتماله دلّ على نقصه وعجزه وخوره.

ثم يعرض في الأمر المشترك فيه من النقص والتفاوت لأجل القوى المختلفة، والهمم المتباينة، والأغراض المتضادةِ التي قد تعتوره — ما لا يعرض في غيره من الأمور التي ينفرد بها ذو القوة الواحدة، وتخلص فيها همة واحدة، ويخصها غرض واحد؛ فإن مثل هذا ينتظم ويتّسق، ويظهر فيه فضل بيّن على الأول.

فأما الأمور التي لا يكمل الإنسانُ الواحدُ لها، ولا يستقلّ بها أحد، فالشركة واجبة فيها، كاحتمال حجر الرحى، ومدّ السفنِ الكبار/ وغيرها [٣٧-أ]

من الصناعات التي تتمّ بالجماعات الكثيرة ، وبالشركة والمعونة ؛ فإن هذه الأشياء وإن كانت الشركة فيها واجبة ؛ لعجز البشر ، وكان الذمّ ساقطاً ومصروفاً عن أصحابها بذلك وصحّ من عذرهم فيها — فإن المعلوم من أحوالها أنها لو ارتفعت بقوة واحدة ، وتمّت بمقدَّر واحد كانت لا محالة أحسن انتظاماً وأقلّ اضطراباً وفساداً ، وأولى بالصلاح وحسن الموضوع .

فالشركة بالإطلاق دالّة على عجز الشريكين ، وعائدة بالفساد على الأمر المشترَك فيه بالخلل والفساد عمّا يتمّ بالتفرّد ، وإن كان البشر معذورين في بعضها وغيرَ معذورين في بعض .

* * *

وأما الملك البشريّ فإنه لما كان من الأمور التي ينتظم بتدبير واحد وأمر واحد — وإن اشتركت فيه الجماعة فإنهم يصدرون عن رأي واحد ويصيرون كالآلات بالملك ، فتتّحد الكثرة ، ويظهر النظام الحسن — كان الاستبداد والتفرد به أفضل لا محالة ، كما شرحناه فيما تقدم .

فإذا اختلفت الجماعة التي تتعاون فيه ، ولم تصدر عن رأي واحد ظهر من الخلل والوهن والتفاوت ما يظهر في غيره باختلاف الهمم ، وانتشار الكثرة المؤدي إلى فساد النظام المتّحد ، ثم يكون فساده أعمّ وأظهر على حسب عدّته وعائدته وعظم محلّه وجلالة موضعه .

[٣٧-ب] وقد أبان الله — تعالى — جميع ذلك بأحصر لفظ / وأوجز كلام ، وأظهر معنى ، وأوضح دلالة في قوله عز من قائل « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » سبحانه وجل ثناؤه ولا إله غيره .

(٢٠)

مسألة اختيارية

لِمَ فَزِعَ الناسُ إلى التوسط فى الأمور مع ما دونوه فى المسألة الأولى من فساد الشركة والشركاء؟ حتى إن جماهير الأمور ومعظم الأحوال[1] فى الشريعة والسياسة، لا تتمّ ولا تنتظمُ إلا بوسيط يُلحِمُ ويُسْدِى، ويرتُق ويفتق، ويُخشِّن ويُجمِّل.

الجـــواب

قال أبو على مسكويه رحمه الله

لما كانت ضروراتُ الناسِ داعية إلى شركةِ الأحوال التى قدمنا ذكرها فى المسألة الأولى، وكان كلُّ إنسانٍ يحبُّ نفسَه، ويحبُّ له المنفعة، ويحرِصُ على الاستئثارِ بها دون صاحبه — ظهرَ الفساد، وحدث التظالم الذى ذكرته فى المسألة المتقدمة، ولم يثق أحدُ الشريكين فى الأمر بصاحبه؛ لأنه ذو نصيب منه، ومحبة للمنفعة العائدة منه لنفسه، وكان للهوى تطرّقٌ فيه، وتسلّقٌ عليه، احتاجا إلى واسطة يكون حالُه فى ذلك الأمرِ بريئةً من حالهما[2]؛ ليعتدلَ حكمُه، ويصحَّ رأيُه، ويُعْطِى كلَّ واحدٍ قسطَه ونصيبَه من غير حيفٍ[3] ولا هوًى.

وليس يجب إذا كانت الشركةُ مذمومة أن يخلو منها الإنسانُ؛ لأنه يضطر لضعف البشرية إليها، كما ضربنا له المثلَ من الحجرِ الثقيل، أو كثرةِ أجزاء [٣٨ - ١] الشىء المنظور فيه.

---

(١) فى الأصل «الأموال».
(٢) فى الأصل: «[illegible]».
(٣) الحيف: الميل فى الحكم، والجور والظلم.

فإن تُرِكَتْ الشركةُ فى مثل هذه الأمورِ، وأُهمِلَتْ المعاونةُ، فاتَ ذلك الأمرُ جملة، وفى فوته فوتُ منافعَ عِظامٍ، فكان تحصيلُه على ما يقع فيه من الخلل أولى من تركه رأساً.

وأكثر أمور البشر لا يتم إلا بالمعاونة والتشارُكِ؛ لعجزهم عن التفرُّدِ وتقصيرهم عن الكمال، وظهورِ أثرِ الحق والإبداعِ فيهم. فما كان المتشاركون فى الأمر أكثر عدداً، والآراء أشدَّ اختلافاً، والأهواء أخصَّ مدخلا كانت الحاجاتُ إلى المتوسِّطِ أصدقَ، والضرورةُ إليهم أشدَّ.

والسياسة من هذه الأمور، أعنى التى تكثر فيها الأهواء، ويُحتاج فيها إلى الاشتراك والتعاونِ فيُحتاجُ فيه إلى من يصدق رأيه، ويسلم من الهوى والعصبية، فإنْ أمكن أن يكون الوسيط خِلواً من ذلك الأمرِ كان أخلق بالحكم العدل، والرأىِ الصائب، وإن لم يمكن ذلك فحسبه أنْ يكون حظّه فى الأمر أقل من حظ المختصمين، أو يكون أكثر ضبطاً للنفس، وأقمع للهوى وأكثر رياضة من غيره، وكل ذلك سَتْرٌ من دواعى الهوى، والميل معه والانصباب إليه، فتتفق الكلمةُ، ويحدثُ الفعل الذى هو سببُ التحابِّ وزوالِ الكثرة.

(٢١)

مسألة طبيعية خلقية

[٣٨-ب] لمَ طال لسان الإنسان فى حاجة غيره، إذا عُنِىَ به، وقصر لسانه فى حاجته مع عنايته بنفسه؟ وما السر فى هذا؟

الجـــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله —:

بِنْيَــةُ الإنســان وتركيبُهُ ومبدأُ خلقِهِ وقَعَ على أنه مَلِكٌ، فكل إنسان

أن يكون مستكفيًا بما عنده من القوى المساعدة عليه، ولا ينبغي لأحد أن يقصّر عن أحد في هذا المعنى إلا لآفة أو نقص في البِنْيَة.

وقد عرض للواحد بعد الواحد أن يسأل غيره، مع أن موضوعه موضوع الآخر، ولم يكن بأن يحتاج إلى صاحبه أولى من أن يحتاج صاحبه إليه — وجب أن تحدث له عزة نفس تمنعه من ابتذال.

ولهذه العلة وجب التمدّن، وحدث الاجتماعُ والتعاونُ، وحسُن بين الناس التمنّ، وأن يدفع الإنسان إلى صاحبه [حاجته][1] إذا كانت عنده ليستدعي مثلها منه، فيجدها أيضاً عنده.

فالسائل إذا لم يكن معوِّضاً، ولا معاملاً، والتمس الرِّفد من غيره من غير دالّة عليه، ولا وعدٍ من نفسه بمثله، كان كالظالم، وأيسرُ ما فيه أنه قد أنزل نفسه عن رتبة حق عليه، ووضعها حيث قصّر عنه، واحتقر نفسه.

فأما إذا تكلم في حاجة غيره لم يعرض له هذا العارض، فكأنه إنما يُحيل بالنقص على من تكلّم عنه فانطلق لسانه، ولم تذِلّ نفسه.

(٢٢)

مسألة طبيعية خلقية

ما سبب الصِّيتِ الذي يتفق لبعضهم بعد موته، وأنه يعيش خاملاً، ويشتهر ميتاً / كمعروف الكرخي[2]؟ [١٠٣٩]

(١) زيادة يوضحها السياق.

(٢) كان معروف بن فيروز الكرخي من كبار مشايخ الصوفية، ومن موالي علي بن موسى الرضا، وكان أستاذ السري السقطي، توفي سنة مائتين، كما في رسالة القشيري ص ٩ — ١

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

معظم السبب في ذلك الحسدُ الذي يعتري أكثرَ الناس، لا سيما إذا كان المحسودُ قريبَ المرتبةِ من الحاسد، أو كان في درجته من النسب أو الولاية والبلديةِ أو ما أشبهها؛ فإنّ هذه الأسباب إذا تقاربت بين الناس فاشتركوا فيها، ثم انفرد واحد منهم بفضيلة نفسية دون غيره، وحسدوه إياها حتى حملهم الأمر على أن يجحدوه آخر الأمر؛ ولذلك قيل: **أزهد الناس في عالمٍ جيرانُه**؛ لأن الجوار وكثرة الاختلاطِ سبب جامع لهم يتساوون فيه، فإذا انفرد أحدهم بفضيلة لحق الباقين ما ذكرناه.

وربما كان سببُ زهدهم فيه غيرَ هذا، ولكن الأغلبَ ما ذكرناه.

فأما البعيد الأجنبيُّ فإنه لمّا لم يجمعهُ وإياه سبب خفّ عليه تسليمُ الفضل له وقلّ عارضُ الحسد فيه؛ ولأجل ذلك إذا مات المحسود، وانقطع السبب الذي بينه وبين الحسّادِ أنشئوا يصفونه، ويتمنّون له ما منعوه إياه في حياته.

(٢٣)

مسألة خلقية

ما الحسد الذي يعتري الفاضلَ أكثرَ من غيره في النقص، مع علمه بشناعة الحسدِ، وقبحِ اسمِه، واجتماعِ الأولين والآخرين على ذمه؟ [٣٩ - ب]

وإن كان هذا العرضُ لا فكاكَ لصاحبه منه لأنه داخل عليه، فما وجه ذمّه والإلحاء عليه؟

وإن كان مما لا يدخل عليه ولكنه يُنْشِئُه في نفسه، ويضيّقُ صدرَه باجتلابه، فما هذا الاختيار؟

وهل يكون مَنْ هذا وضعُهُ في درجة الحكمة أو قريبا من العقلاء؟

وقد قيل لأرسطاطاليس : ما بال الحسود أطول الناس غما ؟

قال : لأنه يغتمّ كما يغتم الناس ، ثم ينفرد بالغم على ما ينال الناس من الخير .

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

الحسد أمر مذموم ، ومرض للنفس قبيح ، وقد غلط فيه الناس حتى سمّوا غيره باسمه مما ليس يجري مجراه . وهذا نفسه هو الذي غلّط السائل حتى قال : ما الحسد الذي يعتري الفاضل ؟ لأن من يكون فاضلا لا يكون حسوداً .

وسنتكلم على الحسد ما هو ؟ لتُعرَف ماهيّتُه فيُعرَف قبحُه ، ويوضع في موضعه ، ولا يختلطَ بغيره ، فنقول :

إن الحسد هو غم يلحق الإنسان بسبب خير نال مُستحِقَّه ، ثم يَتْبَع هذا الانفعالَ الرديء أفعالٌ أخر رديئة ، فمنها أن يتمنى زوالَ ذلك الخير عن المستحِقّ ، ويتبع هذا التمني أن يسعى فيه بضروب الفساد فيتأدّى إلى شرور كثيرة .

فمَنْ عرض له عارضُ الحسد الذي حددناه فهو شرير ، والشريرُ لا يكون فاضلا .

ولكنْ لما كان هذا الغمُّ قد يعرض للإنسان على / وجوه أخرَ غيرِ مذمومة [٤٥-١] غلِطَ فيه الناس فسمَّوه باسم الحسد ، ومثال ذلك أنّ الفاضلَ قد يغتمُّ بالخير إذا ناله غيرُ مستحقه ، لأنه يُؤثِرُ أن تقع الأشياء مواقِعَها ، ولأن الخيرَ إذا حصل عند الشرير استعمله في الشر إن كان مما يُستعمَل ، أو لم ينتفع به بتة .

وربما اغتمَّ الفاضلُ لنفسه إذا لم يصب من الخير ما أصابه غيرُه إذا كان مستحقا مثله .

وإنما لم أسم هذا حسدا لأنّ غمَّه لم يكن بالخير الذي أصاب غيره ، بل لأنه حُرِمَ مثلَه . وإذا آثر لنفسه ما يجدُه لغيره لم يكن قبيحا ، بل يجب لكلِّ أحدٍ

إذا رأى خيرا عند غيره أن يتمناه أيضا لنفسه ، لأن هذا التمنّى لا يمنعه أن يتمنى زوال الخير عن مستحقه .

وقد فرّقت العرب بين هذين فسمّوا أحدهما حاسدا ، والآخرَ غابطا .

ونحن نؤدب أولادنا بأن نحملهم على الأدباء ونَشْحَذُهم على عصائهم ، فيرى ذا الطبع الجيِّدِ منهم يتمنى لنفسه مثلَ حال الفضل ، ويسلكُ سبيله ، ويجتهد فى أن يَحْصُل له ما حصل للفاضل ، وبهذه الطريقة ينتفع أكثرُ الأحداث

وأما ذو الطبع الردىء فإنه يغتمّ بما حصل لغيره من الأدب والفضل ، ولا يسعى في تحصيل مثله لنفسه ، ولكنه يجتهد فى إزالته عن غيره ، أو منعه منه ، أو يحسده إياه ، أو يَعِيبُه به فهو حينئذ حاسدٌ شرير !!

***

فأما قولك إنّ هذا العارضَ لا يفكّك صاحبه منه لأنه داخلٌ عليه إلى آخر الفصل / فإنى أقول : [٤٠-ب]

إن الانفعالات — أعنى ما لم يكن منها نحو الاستكمال — كلّها مذمومة لأنها من قبيل الهَيولى ، ولذلك لو أمكن الإنسانُ ألاّ ينفعل البتة لكان أفضل له ، ولكنْ لما لم يكن إلى ذلك سبيلٌ وجب عليه أن يُزِيلَ كلَّ ما أمكن إزالته من الانفعالات ؛ ليتمّ ويكمُلَ ، وذلك بالأخلاق والآداب المرضيّة ، ويحصل له ذلك بسياسة الوالدين أولاً ، ثم سياسة السلطان ، ثم سياسة الناموس والآداب الموضوعة لذلك ؛ فإنّ الإنسانَ يستفيد بهذه الأشياء صُوَرا وأحوالا ، ثم تصير قُنْيَةً وملكة ، وهى للسياسة فضائلَ وآدابا .

(٢٤)

مسألة طبيعية وخلقية

ما سبب الجزع من الموت ؟ وما الاسترسال إلى الموت ؟

وإن كان المعنى الأولُ أكثر فإن الثانى أبيَنُ وأظهرُ .

وأىُّ المعنيين أحقّ: أالجزعُ منه أم الاسترسالُ إليه؟ فإنّ الكلامَ فى هذه الفصولِ كثيرُ الرَّيْعِ جمُّ الفوائد.

الجـــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله:

الجزع من الموت على ضروب، وكذلك الاسترسالُ إليه. فبعضه محمود، وبعضه مذمومٌ؛ وذلك أنّ من الحياة ما هو جيّدٌ محبوب، ومنها ما هو رديءٌ مكروهٌ، فيجب من ذلك أن يكون ضدُّها الذى هو الموتُ بحسبِه: منه ما هو ضدُّ الحياةِ الجيّدةِ المحبوبةِ، فهو رديءٌ مكروه، ومنه ما هو ضدُّ / الحياةِ الرديئةِ المكروهةِ، فهو جيّدٌ محبوب. [١٠٤١]

ولا بدّ من تبيينِ هذه الأقسام ليتبيّنَ سببُ الجزعِ والاسترسالِ[1]، وأيُّهما أولى، فأقول:

إنّ الحياةَ المقترِنَةَ بالآفاتِ العظيمةِ، والمَهْيِ الهائلةِ[2]، والآلامِ الشديدةِ: مثلُ أن يُسْبَى الرجلُ وأهلُه وولدُه ويَمْلِكَهم قومٌ أشرارٌ حتى يَرَى فى أهلِه وحرمِه ما لا طاقةَ له به، ويُنالَ فى نفسِه وجسمِه ما لا صبرَ عليه، ويقعَ فى الأمراضِ الشديدةِ التى لا برءَ منها، ويُضطَرَّ إلى فعلٍ قبيحٍ بأصدقائه ووالديه، فهذا كلُّه رديءٌ مكروهٌ، وليس أحدٌ يختارُ العيشَ فيه، ولا يؤثِرُ الحياةَ معه، فضدُّه إذاً جيّدٌ محبوبٌ؛ لأنّ الموتَ أمامَ هذه المحنِ فى مجاهدةِ عدوٍّ يسومُ هذا السَّوْمَ — موتٌ مختارٌ جيّدٌ. فيجب بحسب هذا النظرِ أن نقولَ: إنّ تلك

---

(١) يقال: استرسل إلى فلان: انبسط إليه واستأنس به، ويريد بالاسترسال إلى الموت الرضا به عن سماح.

(٢) مهى فلانًا الأمرُ: جهده، فالمهة هنا: الجهد والشدة.

الحياة المكروهة تستحب فيها الموت الذي هو ضده ، فالاسترسال إلى هذا الموت جيد ، وسببه ظاهر .

وكذلك إذا عكست الحال ، فإن الحياة المحبوبة والعيش المغبوط ، التي معها صحة البدن ، واعتدال المزاج ، ووجود الكفاية من الوجوه الجميلة والتمكن بهذه الأشياء من السعي نحو السعادة القصوى ، وتحصيل الصورة المكتسبة للإنسان مع مساعدة الإخوان الفضلاء ، وقرة العين بالأولاد النجباء والعز بالعشيرة وأهل البيت الصالحين — كله محبوب مؤثر جدًّا . ومقابل [٤١ ب] هذا الذي هو موت رديء مكروه ؛ لأن هذا موت ينقطع به استكمال السعادة وتمام الفضيلة ، ويفوته جزء عظيم كان معرضًا له .

فالجزع من هذا الموت واجب ، وسببه بين .

وهذا ضرب من النظر ، وباب من الاعتبار

وضرب آخر وهو أن البقاء بنفسه أمر مختار ؛ لأنه وجود متصل ووجود كريم شريف . وضداه العدم ، ذل خسيس ، والرغبة في الشيء الكريم واجبة ، كما أن الزهد في الشيء الخسيس واجب .

وإذا كانت حياة ما منقطعة لا محالة ، ثم كان ذلك يفضي إلى حياة أخرى أبدية ، ووجود سرمدي — صار هذا الموت غير مكروه إلا بقدر ما يكره من الدواء المر إذا أدى إلى الصحة ، فإن العلاج المؤلم والدواء الكريه مختار إذا أديا إلى صحة طويلة ، وسلامة متصلة . فإن لم يكونا مختارين[1] بالذات فهما مختاران بالعرض .

فالإنسان المستبصر الذي يرى أن أخراه أفضل من دنياه ، وآخرته خير له من عاجله — يسترسل إلى الموت استرساله إلى الدواء الكريه والعلاج المؤلم ؛ ليفضي به إلى خير دائم ، وإن كان هذا الاختيار بالعرض

(١) في الأصل « مختاران » .

بالذات، وربما ظن ذلك ظنا فحسن أيضا معه الاسترسال إليه بحسب قوة ظنه
ووقع إقناعه به، كما يحسن في الدواء إذا قوى ظنه بمعرفة واصفه له. [٤٢ ا]

فأما من خلا من هذا الاعتقاد والظنّ القوىّ فهو يجزع من الموت؛ لأنه
عدم ما، والعدم مهروب منه، وهذا سبب صحيح وعلّة ظاهرة.

وهذا ضرب آخر من الاسترسال إلى الموت، والجزع منه، وهو أن من
قوى ظنه واستحكمت بصيرته في عاقبته ومعاده ولكنه لم يقدم ما يعتقد أنه يسعد
به، ولم تتهذب نفسه، ولا استعد له عدة، فهو يكره الموت، ويجزع منه،
ولا يسترسل إليه.

والمستعد من يرى أنه مستعد لعدته، آخذ أهبته، فهو حريص عليه،
مسترسل إليه.

وأنت ترى ذلك في أصحاب الأهواء المختلفة، والديانات المتضادة، كالهند
وتسرعهم في إحراق نفوسهم، وتقدمهم على ضروب المثل والقتل في أبدانهم،
والخوارج في حرصهم على الموت، وبذلهم نفوسهم في مواقفهم المشهورة،
وحروبهم المأثورة، وأن الرجل إذا طعن قدّم نفسه يسبح في الرمح، ويسعى
إلى طاعنه(١)، ثم قرأ: «وعجلت إليك رب لترضى(٢)»؛ ولذلك اتخذ أصحاب
السلطان في صدور رماحهم [حاجزا](٣) لئلا يسبح فيها المطعون فيصل إلى الطاعن.
والصابرون على أنواع العذاب، وضروب المثل(٤) والقتل من أهل

---

(١) يريد أن الخارجي إذا طعنه عدوه ... مع ضرب فرسه ليتقدم حتى يلحق طاعنه فيقضي عليه، غير عابئ بنفاذ الرمح في صدره.
قال المبرد في الكامل ٣: ٩٥٤: «وكان في جملة الخوارج [illegible] واحتجاج، على كثرة خطبائهم وشعرائهم، ونفاذ بصيرتهم، وتوطين أنفسهم على الموت، فمنهم الذي طعن فأنفذه الرمح فجعل يسعى فيه إلى قاتله وهو يقول: «وعجلت إليك رب لترضى».
(٢) سورة طه ٨٤.
(٣) مكان الزيادة [illegible].
(٤) المثل: مصدر مثل يمثل من باب نصر ينصر، يقال مثل به: إذا نكّل به بجدع أنفه وقطع أذنه أو نحو ذلك.

[٤٢ - ب] الأهواء — أكثر من أن يُحصَوْا . وإنما ذكرنا سبب الجزع من الموت والاسترسالِ إلى الموت ، وأيُّهما يحسن ، وفى أى موضع ، وعلى أى حال /

(٢٥)

مسألة طبيعية

لِمَ كانت النجابة فى النِّحاف أكثرَ ؟

ولِمَ كانت الفَسُولة فى السِّمان أكثرَ ؟

الجـــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله :

هذه المسألة كأنها عن الحال الأغلب ، والوجودِ الأكثرِ

والسبب فيه أنه لما كانت الحرارة الغريزية سببَ الحياة ، وسبب الفضائل التابعة للحياة ، أعنى الذكاء والحركة والشجاعة وما أشبهها — كانت الأبدان التى حظُّها منها أكثرُ — أفضلَ .

والحكم الصحيح فى هذا أن الأبدان المعتدلة فى النحافة والسمن ، والطول والقصر ، وسائر الكيفيات الأخر — أفضلُ الأبدان .

ولما كانت مسألتك مخصوصة بالنحافة والسمن خصصت الجواب أيضاً ، فنقول

إن الحرارة إذا قويت أخلاط البدن فذابت فضول الرُّطوبات منه ، وبعد البرد الغالب عليه الذى هو ضده كان ذلك سبباً للحركة واليقظة ، وسبباً للإقدام والنَّجدة . ويتبع هذه الأشياء سائر الفضائل اللازمة لها ، وذَكَوُ[1] الحرارة التى فى القلب ، وهى أول هذه الفضائل كلِّها . وإذا غلبت الرطوبات عليها

(١) الذكو مصدر ذكت النار تذكو ذكوا : اشتد لهبها . وفى الأصل « وذكر »

نفسه وعزته ، وحالت بينه وبين فضله ، وعاقته عنهما ، فكان ذلك سبباً للسهولة ولواحقها من الكسل والملالة والخبث وسائر / الرذائل التي تتبعها . [٤٣-١]

و للحافة والسمن ، وإن كانا جميعاً قد خرجا عن الاعتدال ، فأحدهما وهو النحافة خروجه عن الاعتدال بإفراط الحرارة التي هي سبب الفضائل ، وهي أولى من الطرف الآخر الذي هو ضده ، أعني السمن الذي هو خروج عن الاعتدال بجانب البرد وعدم الحرارة المؤدي إلى بطلانها وزوالها .

وقد تبين في كتب الأخلاق أن أطراف الفضائل كلها مذمومة ، ولكن بعضها أقرب إلى المدح . وإن كان الضد من الوسط فيهما واحداً كان الاعتدال الممدوح بالجود والسخاء له طرفان ، أحدهما البخل ، والآخر التبذير ، وهما جميعاً مذمومان ، وخارجان من الاعتدال ، إلا أن أحد الطرفين ، وهو التبذير أشبه بالمدح من الطرف الآخر ؛ لأن أحد الطرفين بالإمساك يتأدى إلى بطلان الشيء الممدوح وعدمه ، والآخر يتأدى إلى الزيادة فيه بالإفراط . ولعمري إنهما في فقد الاعتدال سواء ، ولكن أحدهما أشبه به من الآخر . وهذا هو موضع لا يدفع ولا ينكر .

(٣٦)

مسألة طبيعية

لم كان القصير أخبث ، والطويل أهوج[1] ؟

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

هذا أيضاً طرفان لموضع الفضيلة ، وذلك أن الاعتدال من الطول والقصر هو

---

(١) الهوج : الحمق .

المحمودُ ، ولكن تطول بالتفاوت فى الخلق أقرب إلى الذم ، وذلك لبعد

[٤٣-ب] / الأعضاء الرئيسية بعضها من بعض ، لا سيما العضوان اللذان هما أظهر الأعضاء

رئيسة ، أعنى القلب والدماغ ، فإن هذين يجب أن يكون بينهما مسافة معتدلة

لتمكن الحرارة التى فى القلب من تعديل برودة الدماغ ، وحفظِ اعتداله ، و

الروح النفسانى الذى ينجذب فى بطون الدماغ ، وتتمكن بعضُ برودة الدماغ

تعديل حرارة القلب ، وحفظِ اعتداله عليه .

وهذا الاعتدال إذا بَعُد أحد العضوين من الآخر تفاوت واضطرب نظام

وفسد التركيب ، وفسدت الأفعال الصادرة عن الإنسان ، ونقصت فضائله .

وليس يعرض فى قرب من التفاوت ما يعرض فى بعد أحدهما من الآخر

(٢٧)

مسألة خلقية

لم صار بعض الناس إذا سئل عن عمره نقص فى الخبر ، وآخر يزيد

عمره فى الخبر ؟

الجــــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله :

غرض الرجلين جميعاً أعنى الناقص من مدة عمره ، والزائد فيها — غرض

واحد وإن اختلفا فى الخبر .

وربما فعل الرجل الواحد ذلك بحسب زمانين مختلفين ، أو بحسب حالين

فى زمان واحد .

وهو من رذائل الأخلاق ؛ لأنه يوهم بالكذب فضيلة نفسه ليست فيه

[٤٤-ا] وسبب هذا الفعل محبةُ النفس ، وذلك أن الإنسان يحب أن يعتقد فيه

فضل أكثر مما هو، ويجب أن يُعذَر في نقص إن وجد فيه

وهو إذا كان حدثاً وظهرت منه فضيلة أو نقيصة نقّص من زمان عمره، علم غيره أن الفضيلة حصلت له في زمان قصير، وأن ذلك لم يكن ليتم له إلا بنية كثيرة، وحرص شديد، ونفس كريمة، وانصراف عن الشهوات الغالبة على أقرانه، وترك اللعب الذي هو يستولى على لِداتِه، وكلما كان زمان أقصر كان إلى الفضيلة أقرب، وكان التعجب منه أكثر.

وإن كانت منه نقيصة عُذِر في فعله لقلة الحنكة والدُّربة، وينتظر فلاحه ورُجي تلافيه وإنابتُه.

وإن الإنسان مرشح طول عمره لاقتناء الفضائل، والاستكثار من المعارف، فيجب أن يكون أبداً بحال من الفضل يُستكثر في مثل سنه أن يبلغ فيها، ويُتعجبُ من كثرة تدربه بالزمان القصير في الأمور التي يحتاج فيها إلى الزمان الطويل.

وأيضاً فإن المكتهلَ، وذا السن الكبير المجرب ممن صحب الزمان، ولقي الحال، وتصرَّف في العلوم — مهيب في النفوس، جليل في الصدور، موقَّر المجالس، مستشار في النوائب، مرجوع إليه في الرأي. وهذه حال مرغوب فيها، فإذا بلغ الإنسان من السن ما يحتمل أن يدعي فيه هذه الدعوى أو يتشبه فيه بأصحاب هذه المراتب — زاد في عمره لتسلم له هذه الرتبة فيتعقد فيه. [٤٤-ب]

فكل واحد من الرجلين، أو الرجل الواحد في الزمانين أو الحالتين، غايته في التكذب في بعض ما يريد من عمره التمويهُ بالفضل، وادعاء رتبة ليست له.

وهذا شر ظاهر فظاعته شديدة، وأفاضل الناس لا يعتريهم هذا الشر: لأنهم لا يتدنسون بالكذب، ولا يتكثرون بالباطل.

(٣٨)

مسألة طبيعية

لِمَ صار الإنسان يحب شهراً بعينه ، ويوماً بعينه ؟

ومن أين يتولد للإنسان صورة يوم الجمعة على خلاف صورة يوم الخميس ؟

وقيل للرودكي[1] — وكان أكمه ، وهو الذي ولد أعمى — كيف اللون عندك ؟ قال : مثل الجمل .

الجـــــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

أما محبة الإنسان شهراً بعينه فلأجل ما يتفق له فيه من سعادة ما ، بحصول مأمول ، أو ظفر بمطلوب ، أو انتظار مَرجُوّ في وقت بعينه ، أو سرور يعقب غم أو راحة بعد تعب ، وربما استمر ذلك به ، وتكرر عليه مدة من عمره في وقت بعينه ، فيأنس به ويألفه ويحبه لما يتفق له فيه ، ولذلك أحبَّ صبيان المسلمين الجمعة ، وألِفوه بعد ذلك طول عمرهم ، وكرهوا يوم السبت ؛ لأن يوم الجمعة [٤٥-١] / مفروض لهم فيه الراحة ، مُرخَّص لهم للعب ، ويتلوه يوم السبت الذي هو يوم تعبهم وعودهم إلى ما يكرهون من فقد اللعب . فأما صبيان اليهود فإنما يعرض لهم ذلك في يوم السبت وما يليه ، وصبيان النصارى في يوم الأحد وما يليه ،

(١) الرودكي : كما في أنساب السمعاني ٢٦٣ واللباب لابن الأثير ١ / ٤٨٠ « بضم الراء وسكون الواو ، وفتح الدال المهملة ، وفي آخرها الكاف — هذه النسبة إلى « رودك » وهي ناحية بسمرقند ، والمشهور بهذه النسبة الشاعر المليح القول بالفارسية ، الذي سار شعره أبو عبد الله جعفر بن محمد بن حكيم بن عبد الرحمن الرودكي ، الشاعر السمرقندي ، وتوفي بها سنة تسع وعشرين وثلاثمائة » .

وكذلك[1] أيام الأعياد التي تطلق للناس فيها الراحة والزينة ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنها أيام أكل وشرب وبعال »[2] .

وهذه الأيام مختلفة في أحوال [illegible] ، ولكل قوم يجعلون الأيام التي هي أعيادهم تطلق لهم ضروب الزينة وسعة و[illegible] .

فأما من سوى هؤلاء من الأمم التي ليست تحت شريعة ، ولا لهم [illegible] في [illegible] وحوادثهم [illegible] ، فليس [illegible] [illegible] يحتاجون [illegible] ، ولا [illegible] ، ولا وقت مخصوص .

فأما قولك [illegible] على خلاف [illegible] على ما تقول :

فإن الزمان الطبيعي للأمر الذي هو [illegible] دورة واحدة من الفلك الأقصى ، [illegible] وجميع الأفلاك و[illegible] في [illegible] حركاتها ، وذلك من [illegible] إلى المغرب ، ومن [illegible] إلى [illegible] ، وهو أربع وعشرون ساعة .

وإنما صار هذا [illegible] [illegible] [illegible] من [illegible] [illegible] ، [illegible] [٤٤-ب] [illegible] ، وسمي [illegible] الشمس في بعض هذه المدة فوق الأرض ، وغيبتها في بعض تحت الأرض .

وتكرر هذه الأدوار على الأيام والليالي ، وفي كل دور منها للناس أفعال وحركات ومواليد ومعاملات ليست في الدورة الأخرى .

ويتعلق بعظم هذه أحكام وقضايا في مدد معلومة ، وآجال مضروبة ، في [illegible] مضروبة ، يحتاجون فيها إلى [illegible] في دورة بعد دورة من الفلك الأقصى التي

---

(١) في الأصل : « وذلك » .

(٢) في اللسان [illegible] : [illegible] حدثت [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] الكلام ، ومنه الحديث في أيام التشريق : إنها أيام أكل وشرب [illegible] ، و[illegible] المباشرة » .

هى سبب لكون اليوم والليلة ؛ لتصحيح معاملاتهم ، وتصدق قضاياهم ، وتتم آجالهم المضروبة فى أعمالهم ومعاملاتهم .

وههنا زمان آخر تحدثه دورة أخرى تختص بها الشمس فى سيرها .

وذلك أن تبتدئ الشمس من نقطة مفروضة ، وتعود إليها بعينها بحركة نفسها دون تحريك المحرك الأول .

وهذه الدورة هى من المغرب إلى المشرق بخلاف تلك .

وتتم الدورة الواحدة من هذه الحركة التى تخص الشمس ، فى ثلاثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم على التقريب .

وهذا هو زمان أيضا ، ولكنه منسوب إلى حركة الشمس نفسها ، ويسمى « سنة » .

وههنا زمان آخر قد تعرفه الناس أيضا ، واشتهر بينهم ، وظهوره وإن لم يكن كظهور الشمس فهو تال له ، وهو ما يكون ويحدث بدورة واحدة من حركة القمر التى تخصه دون تحريك المحرك الأول .

[٤٥ - ١] وتتم الدورة الواحدة بهذه الحركة التى تخص القمر ، وهى أيضا من المغرب إلى المشرق ، فى ثمانية وعشرين يوما ، وتسمى « شهرا » .

فهذه الأزمنة الثلاثة ، كانت ظاهرة مكشوفة ترها العيون ؛ لأجل تعلقها بالشمس والقمر اللذين هما أنور الكواكب وأعظمها وأكبرها[1] فى الظاهر تعارفها الناس ، وتعاملوا عليها ، وحدثت صورة كل دورة بحسب ما يقتضيه الناس فيها من مصالحهم ، وبحسب ما يشاهدونه ويحدث من الأعمار والمواليد وبحسب سعة حركاتها إليها مبدأ ومنتهى .

(١) فى الأصل « الشمس والقمر الذى هما أنور الكواكب وأعظمها وأكبرها » .

وإذا نظر الإنسان إلى هذه الأدوار في نفسه حسبه من حركات الشمس والعالم، ولم ينسب إليها حركة أخرى، وفعلاً آخر — لم يكن منه وفق منه إلا التكرار الذي لا بد فيه من العدد بالأول والثاني والثالث، وإلى حيث انتهى الإحصاء.

فإن نظر فيها بحسب الأحوال، ونسب إليها فعلاً أو تأثيراً، وخلطها بالحساب حدثت صور مختلفة بحسب اختلاف الأمور الواقعة فيها المنسوبة إليها.

* * *

فأما الأكمه الذي ذكرته في المسألة، فإن الفاقد حاسة من حواسه لا يتصور شيئاً من محسوساته؛ لأن التصور في النفس من كل محسوس إنما يقع بعد الإحساس به.

وذلك أن هذه القوى من قوى النفس التي تأخذ الرسوم من الحواس، إنما تؤديها إلى قوة التخيل عن الحس، فحينئذ تثبت صورة المحسوس في القوة المتخيلة، وإن زالت صورة الحس وفاتت.

فأما إذا فقد الحس فكيف يترقى المحسوس إلى قوة التخيل؟ فبحق صار الأكمه لا يتخيل شيئاً من الألوان ولا يتصوره. [٤٥-ب]

وكذلك إن فقد فاقد حس الشم والسمع من مبدأ ولادته لم يتخيل شيئاً من محسوساتهما بما قدمناه.

وحدثني بعض أهل التحصيل من المتكلمين أنه سأل رجلاً أكمه: كيف تتصور البياض؟ فقال: «حلو».

فكأنه لما لم يجد صورة البياض في تخيله ردها إلى حاسة أخرى هو واجد لمحسوسها، فسماه بها، وظن أنه هو.

(٣٩)

مسألة في حد العدل

ما معنى قول الشاعر : —

[illegible] (١)

[illegible] (٢) [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

جواب

قال أبو علي مسكويه رحمه الله

[illegible]

[illegible]

مشروحا ، وهو في معنى [illegible] هو مصدر [illegible] لأن [illegible]

[٤٦ ا] [illegible]

يكون في المعاملات ، فالعدل من الاعتدال ، وهو القسط والتسوية ، و[illegible]

التسوية من المساواة بين الأشياء الكثيرة ، والمساواة هي التي توحد الكثرة ،

وتعطيها الوجود ، وتحفظ عليها النظام .

فالعدل والمساواة شبيه المحبة بين الناس ، و[illegible] بينهم ، و[illegible]

[illegible] ، و[illegible] معاملاتهم ، وتقوم [illegible] .

---

(١) [illegible] ٣٨٣,٢ [illegible]

(٢) [illegible]

وشرح هذا الكلام ، وتحقيق حقيقة القول في العدل وذكر أقسامه
وخصائصه [illegible] كثيراً من طول الكتاب ، وخروجي فيه عن الشريطة التي
شرطتها في أول وصفه من الإيجاز ، وقد أوردت فيه رسالة ستراها مفردة
[illegible] ، على ما شئت بمعونة الله .

وقد قلت فيه كلاماً منسوقاً بحكم مشهور ، أو كلام مؤلف مشروح —
أشهد به على ما قلت ، وأحتج عليه بحجة ، وسكنت فيه إلى رسالة
[illegible] مستخرجة من كلام الفلاسفة ، وسميتها في هذا المعنى ، وإعطاء
[illegible] على [illegible] [illegible] محجوب [illegible]

وإذا عرفت العدل من هذا الوجه ، عرفت [illegible] بقصد حكمته .
وكان [illegible] هو نقيضه [illegible] ، فقد أخطأ وتعدى
فكثير الملامة — [illegible] كالعطف بين الأمور نفسها
[illegible] ، كانت [illegible] عنها كثيرة [illegible] وعلى حسب القرب والبعد
[illegible] الصحيح ، [illegible]

فأما قول الشاعر « [illegible] في حق [illegible] » فهي شهادة لا تحتمل من
[illegible] لا قدر ما يليق بصناعة الشعر .
[٤٦ - ب]

وقد [illegible] الشعر على الصحيح [illegible] ، والمنطق في [illegible] ،
[illegible] ، ومع ذلك [illegible] أكثر مما نظم شاعر [illegible] التي
[illegible] نظم في حقه .

على [illegible] ، [illegible] ، وأصل [illegible] ،
وإن هذه الأجوبة مبنية على حقيقة [illegible] الشعراء ، ومذاهبهم ، وعاداتهم
في [illegible] .

ثم قال :

إن النظم الذي ذكرنا حقيقته يجري مجرى غيره من سائر الأفعال ، فإن

صدرَ عن هيئة مكتسبة من غير فكر ولا رويةٍ سمى خلقا، وكان صاحبه ظلوه

وهذه سبيل غيره من الأفعال المنسوبة إلى الخلق، لأنها صادرةٌ عن هيئة

وملكاتٍ من غير رويّة.

فأما إذا ظهر الفعل بعد فكر وروية فليس عن خلق، [illegible] كان [illegible]

وإذا لم يكن عن خلق فكيف يكون عن خلق

وقد يستمر الفعل على فعل ما بروية منه فتحدث من تلك الروية له

هيئة يصدر عنها الأفعال من بعد بلا روية، فيسمى تلك الهيئة: «خلقا»

فأما الشيء الصادر عن هذه الهيئة، ويقال لكل علاقة بين الهيئة والأثر

تُسمى «صنعة»، واشتق من ذلك [illegible] كما في [illegible]

كالنجارة والحدادة والصياغة، والملكات [illegible] فإن هذه الأفعال إذا صدرت

عنهم بلا روية، سموا بهذه الأسماء، ووصفوا بهذه الصفات

[٤٧ - ا] فأما إن [illegible] مستقلين بالنجارة، والحدادة، والكتابة

والصياغة، وأمثالها بلا استعمال روية وفكر، فهي سبيل حكاية [illegible]

فإن أحدا لا يسمى هذا [illegible] ولا كذا؛ وذلك [illegible] من [illegible]

شعر، ولا من خط [illegible] أو [illegible](1) [illegible]

والصناعة كلها تجرى هذا المجرى: فهذه الأفعال كما ترى، والأفعال

التي لا [illegible] جارية هذا المجرى.

وعلى هذه السبيل جرت أمور الأخلاق والأفعال الصادرة عنها، لأن

الأخلاق هيئات [illegible] تصدر عنها أفعالها بلا رويه ولا فكر.

* * *

(1) في اللسان: [illegible] الخيط الذي يخاط به الثوب، وجمعه سلك وأسلاك

وسلوك [illegible] جمع جمع.

قال الوزير الذي تقدمه يقول : « إن الشر أشدّ بالطبع » ، فإن الاختيارات مذمومة كلها إذا صدر منها هيئات وملكات صارت شروراً ، وتُسمّى بعضها شراً

ومن يختص لفظه في استحقاق اسم الشر ، وخروجه عن الوسائط التي هي ... النفس — شيء دون مثله وشاذ نادر .

وفقد هذه الوسائط هو[1] شرور ورذائل تلحق النفس ، كالشره والبخل والجبن ، سوى أن الشر المختص بالمعاملة ، وترك به حسن الاعتدال والمساواة .

وهذه النسبة العددية ، والمساواة في المعاملة — قد بينها[2] أرسطوطاليس في كتاب الأخلاق ، وأن المعاملة هي نسبة بين البائع والمشتري ، والبيع والمشتري ، نسبة الأول إلى الثاني كنسبة الثالث إلى الرابع على التكافؤ ، وفي النسبة العددية فيه ، وعلى ما هو مشروح مبين في غيره من الكتب .

فأما قولهم : لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا ، فإذا تساووا هلكوا[3] ، فإنهم لم يذهبوا فيه / إلى التفاوت في العدل الذي يساوي بينهم[4] في العيش ، وإنما [٤٧-ب] ذهبوا فيه إلى الأمور التي يتم بها التمدن والاجتماع . والتفاوت بالأعداد فيه هو نظام للكل .

وقيل : إن الإنسان مدني بالطبع ، فإذا تساوى الناس في الاستغناء هلكت المدينة ، وبطل الاجتماع .

وقد تبين أن اختلاف الناس في الأعمال ، وانفراد كل واحد منهم بعمل هو الذي يحدث نظام الكل ، ويتم المدنية ، ومثال ذلك الكتابة التي كليتها

---

(١) في الأصل « هي »
(٢) في الأصل « بينه » .
(٣) ورد هذا القول غير منسوب في كتاب البصائر والذخائر ٦٨/٩ — ا
(٤) في الأصل « تساوى بينه »

تتمّ باختلاف الحروف في هيئتها وأشكالها ووضع بعضها عند بعض ، فـ
هذا الاختلاف هو الذي يقوّم ذات الكتابة التي هي كمّية ، ولو استوت
الحروف لبطلت الكتابة .

(٣٠)

مسألة خُلُقية ولغوية

لِمَ صار الرجل إذا حسن كلّ شيء حسن(1) قيل له : حدّ ممتدّ ،
ولا شك كلّ ما عسيت ليكون وأولى بك ؟

ألم يكن المثل كلّه مضروبًا في كلّ موضع ؟

وعلى ذكر المثل كلّه ، ما المشاكلة ، والموافقة ، والمضارعة ، والمماثلة
والمعادلة ، والمناسبة ؟

وإذا وضح الكلام في هذه الأسماء وضح الحقّ أيضًا في المخالفة ، والمباينة
والمنافرة ، والمعاندة .

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

هذا مثل عامّي يذهب إلى طرف بيّن . وعند القوم أنّ الشيء إذا كمل
[٤٨ -] من جهاته سرعت العين إليه بالإصابة ، فإذا كان منه شيء منتقص ، أو صغر
فيه عيب ، شُغلت العين به عن الإصابة .

* * *

وكان ينبغي ألّا تخلط هذه المسائل هذا الاختلاط ، فإني أرى المسا

(١) في الأصل « حسد » .

[illegible] إلى جانب الأخرى التي لا [illegible] بينهما [illegible] .

[illegible] الشكوك ، ولأجل هذا اضطررت

[illegible] الكلام في جميعها على حسب [illegible] .

* * *

[illegible] على الأصول التي [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] من

[illegible]

[illegible] [2] [illegible]

[illegible] البحث والحد

[illegible]

[illegible]

[illegible] [3] [illegible] .

[illegible]

[illegible] مسكت عنه

---

(1) [illegible]

[illegible]

[illegible]

(2) في اللسان [illegible]

[illegible]

(٣١)

مسألة خلقية

[٤٨-ب] لِمَ اشتدت عداوة ذوى الأرحام / والقُرْبَى حتى لم يكن لها دواء؛ لشدة الحسد، وفرط التنافس، وحتى زالت منها نعم، وحدثت بؤس، وانتهى إلى الجلاء والهلاك ؟.

وهل كان الحول وما يتعوذ بالله منه فى شكل هذه العداوة أم لا ؟

الجواب

قال أبو على مسكويه رحمه الله :

قد تقدم فى مسألة حد الحسد، وفى معنى القرابة التى يعتد الناس بها وفى ذكر التنافس، ما فيه غنى عن إعادته فى جواب هذه المسألة؛ لأنا ذكرنا هناك أن الاثنين والجماعة من الناس إذا اشتركوا فى أمر، وجمعهم سبب فتساووا مع تساويهم فى الأسباب ثم انفرد من بينهم واحد بفضيلة — حسده غيره، أو غبطه.

وذوو الأرحام هم جماعة مشتركون فى نسب واحد، ولا يرى أحدهم للآخر فضلا، فإن انفرد واحد منهم نافس فيه الآخر.

وأيضا فإن موضوع الشركة فى النسب هو الموازرة والمعونة والتساوى فى الأحوال. وهذه حال منتظرة يتوقعها كل واحد من الآخر، فإذا أخلف الظن كان أشد إخلالا، وأصعب علاجا، وصار بمنزلة الدين المجحود، والحق الممنوع. فإذا اقتضى ثقل، وإذا ثقل تنوكر، وإذا تنوكر ثارت قوة الغضب بالحمية، والغضب يزرع الحقد، ويبعث على الشرور

ويضاف إلى هذا شدة المنافسة وتفقد الأحوال، وهذا لا يكون مع البعداء،
ولا يمكن فيهم، فتكثر وجوه المطالبات بالحقوق وادعاءاتها وإن لم تكن، وتثور
أسباب / [التعصب](1)، والتعصب يجري أكثره مجرى الحب نفسها، ويطلب [٤٩-١]
كلٌّ واحد من صاحبه، وينتظر مثل ما يطلبه صاحبه وينتظره، ويبقى من
ذلك وكثرة الوجوه من حيث يتعذر(2) دواؤه، ويقع اليأس منه.

والجوار أيضاً سبب قوي، لأنه شركة ما تبعث على تفقد الأحوال وتفتح
الحسد، وجميع الأحوال التي ذكرناها في ذوي الأرحام، إلا أن هذه عصبة
الجوار، وإن قرابة معلومة(3) لا يوجد مثلها في الجوار، فشر إذا تمت منه صروف
الحسد فيه محض، لا مزج للخير فيه، ولا داعي إلى العطف معه.

(٣٢)

مسألة خلقية

لم تعصب الإنسان من شر ينسب إليه هو فيه؟
ولم تعصب لعصبه من شر ينسب إليه وليس هو فيه؟
ويصدق في الأول من باب المحبوب المحمود، ويكذب في الثاني من باب
اللوم المكروه.

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:
سبب ذلك محبة النفس، وقد تقدم شرحه
والإنسان إذا ذكر بشر هو فيه كره أن يفطن له، وإن فطن به أن يحققه

(1) زيادة يوضحها السياق.
(2) في الأصل «يتعدى».
(3) في الأصل «... عصبة صحيحة وقرابة معلومة».

أو يغضب به ؛ لأنه يعرف قبح الشر ، ويجب [illegible] في شيء [illegible] أن يكون

[illegible] من كل عيب ، بعيدة من كل ذنب [illegible] . فمتى شعر لحقته [illegible] ولا

ثم يجد [illegible] منه

والغضب حقيقته حركة النفس للانتقام ، وهذه الحركة [illegible] الغضب [illegible]

[illegible] ؛ [illegible] الغضب [illegible] الانتقام

* * *

[٤٩ - ب] فأما غضب الإنسان من شيء [illegible] إليه [illegible] فهو [illegible] لا

[illegible]

وأما [illegible] الإنسان [illegible] من ذلك ،

أو [illegible] على نفسه [illegible] الإنسان [illegible]

منه ، وتحركت نفسه لذلك ، فحدث الغضب .

فقد استبان من [illegible] وأكثرت [illegible] في هذه المسألة [illegible] شيخ [illegible]

وما [illegible] .

(٣٣)

مسألة طبيعية

ما علة حضور [illegible] عند [illegible] وهو [illegible]

هذا كثير معهود ، وإن لم يكن من [illegible] ، وهو كان من [illegible]

لسقط [illegible] ، وزوال الإشكال ، ووقوع الاشتباه .

ومن هذا الضرب أنه [illegible] لم يكن [illegible] .

وكذلك شيئك بعض من [illegible] طرفك عهود لك ، حتى إذا حدقت

نحوه لم يكن ذاك ، ثم إنك لا [illegible] حتى [illegible] المشبه به .

وهل هذه كلمة بالأرق ؟

وإن كان بالأرق [illegible] الأرق ، [illegible] هو [illegible]

[illegible] حتى تكون [illegible] عن الأول ، [illegible] ، و

[illegible] .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] (١) [illegible]

[illegible]

[illegible]

و[illegible] كانت [illegible] وكانت [illegible] فوق الحركة ، [illegible] في غير

[illegible] الأمور [illegible] ولا [illegible] ولا [illegible] ، [illegible]

الأمر [illegible] في [illegible] في [illegible]

و[illegible] [illegible] الأمور ، [illegible]

[illegible] في بعض [illegible] حتى [illegible] إلى حد [illegible]

[illegible] المستقلة . وهذا الأمر [illegible] كان في زمن [illegible] ، [illegible] كان [illegible] ،

[illegible] ، كان أبدع [illegible] و[illegible] ، ثم لا [illegible] الزمن ، و[illegible]

حتى [illegible] وقت الإبدار [illegible] كبير [illegible]

وهذه الحال [illegible] لمن [illegible] الأ[illegible] [illegible] المذكور [illegible]

---

(١) في الأصل « [illegible] » .

(٢) في [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] ، وهي فاعل من [illegible] » .

ذكره، ولم يكن ذكره سبباً لحضوره، بل كان الأمرُ بالضدّ؛ فإنّ قوة حضوره أشعر النفس حتى آذنت به.

وكذلك الحال في الرؤية والالتفات: فإنّ قوة المتلفت إليه هو الذي حرّك النفس حتى استعملت آلة الالتفات.

واستقصاء هذا غير لائق بشرطي في ترك الإطالة، ولولا ذلك لذكرت أموراً بديعة من هذا الجنس، وفي هذا القدر كفاية وبلاغ فيما سألت عنه.

* * *

وأما مسألتك عن الاتفاق، وهل هو وفاق؟ وما الوفاق؟ فقد وعد بالكلام فيه في مسألة تجيء بعد هذه.

ولعمري إن الاتفاق هو وفاق؛ لأنه افتعال منه، والأصل واحد، والاشتقاق دال عليه.

[٥٠ ب] وسنخبر عنه بحسب الكفاية عند ذكر البخت والجد، إن شاء الله.

(٣٤)

مسألة تشتمل على نيف وعشرين مسألة طبيعية ولغوية

وفيها الكلام في البخت والاتفاق

ما الخصائص الفارقة بين حقائق معانٍ في ألفاظ دائرة بين أهل اللغة والدين، وهي أسماء ضاقت أغراضها لكنها جمّة الأصول جليّة المعاني وهي: القوة، والقدرة، والاستطاعة، والطاقة: فهي[1] وفاء القوة بالمجهود عليها. والشجاعة، والنجدة، والمعونة، والتوفيق، واللطف.

---

(١) في الأصل «فهو».

والضحضحة ، والتمكن ، والجذلان ، والنضرة ، والولاية ، والخنث ، والملك ، والرق ، والسفولة ، والحدة ، والحدة .

ولم أذكر البحث ؛ فإنه ليس من كلام العرب ، ومعناه قد التبس ببعض هذه الأشياء ، وكذلك المبخوت .

فأما المحدود ، والمجدود ، والمحظوظ ، والحظى ، والحذى ، فكل ذلك مراد به معنى ، ومرمى به غاية ، ولكن لبيان عيب عزيز ، والتحقيق فيه شديد .

الجـــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله :

وجدت فى هذه المسائل مع اختلافها ما تعرف ، وما تقعد فى معانى ، وما اشتكل إلى شكله ، ولم أراع ترتيبها ونظمها .

* * *

أما القوة فاسم مشترك يقال على القوة التى هى فى مقابلة الفعل .

وهذا اسم خاص يستعمله الحكماء حسب ، ولا يعرفه الجمهور ، ومعناه أنه ما يمكن أن يظهر فيصير موجوداً بالفعل ، فيقال : الجرو مبصر بالقوة ، والصبى كاتب بالقوة ، وإن لم يكن فى الوقت كذلك .

ويقال على القوة التى يشار بها إلى معانٍ موجودةٍ للنفس كقوة الإبصار ، [٥١-١] والسمع ، والفكر ، والتمييز ، والغضب ، وما أشبهها[1] .

ويقال على المعنى الذى فى الحديد وأشباهه من الصلابة والامتناع على الثنى والكسر .

---

(١) د : وأشبه ، و : وما أشبهها .

ويقال أ[illegible] على العطش و[illegible] الذى يخص الحيوان ، وأصلك بها عليه
باسمه ؛ لأنه [illegible] كثرت مع [illegible] و[illegible]

وقد [illegible] أكثر هذه الأشياء ، ويخص [illegible] ، وهو
القوة [illegible] القوة [illegible] شى [illegible] .

[illegible] فهو [illegible] فى الأطعمة
من [illegible] و[illegible] ، و[illegible] فى [illegible]
[illegible] ، [illegible] ، و[illegible] فى [illegible] و[illegible] ، [illegible]
عليه ذلك ، و[illegible] [illegible] .

و[illegible] ، و[illegible] ، و[illegible] ذى قوة ،
يقال [illegible] قوى ، و[illegible] . كما [illegible] ، و[illegible]

* * *

[illegible] فهى[1] و[illegible] القوة [illegible] ، وهى مستعملة فى [illegible]
وفى قوة [illegible] ، وفى الأفعال [illegible] .

وقد تستعمل [illegible] فى الأفعال [illegible] شىء و[illegible] ، فيقال [illegible]
[illegible][2] أى فى قوته وقد [illegible] ، و[illegible]
يطيق الكلام ، ولا يطيق [illegible] ، ولا [illegible] والسرور ، وإن استعمل فى [illegible]
الحيوان فهى [illegible] .

* * *

[٥١-ب] فأما القدرة فهى التمكن من إظهار هذه القوة عند الإرادة ، ولذلك [illegible]

(١) فى الأصل « [illegible] »
(٢) فى اللسان عن الجوهرى « [illegible] » ، وهو [illegible] ، والجمع [illegible] ،
[illegible] أ[illegible] »

بالحيوان ، ولا تستعمل فى غيره ألبتة لما حددناه به [١]

***

وأما الاستطاعة فهى استفعال من الطاعة ، أى استدعاؤها ، هذا بحسب الاشتقاق ، ودليل اللغة .

فأما على الحقيقة فهى كلمة مستعارة ؛ وذلك أنك لا تستدعى طاعة شىء لك وأنت تستحقها منه بالقدرة عليه .

وتلخيص هذا الكلام أنك إذا قلت استطعت كذا ، وأنا أستطيع الأمر ، فإنما استدعيتُ طاعته لى .

وهى تؤولُ إلى معنى القدرة وإن كانت أبعد منها بالذات ، وكأن بينهما ... من هذا الوجه : لأن النفس هى التى تستدعى طاعة الشىء بالقدرة عليه ، ... بإجابته لها .

وهذه المعانى مضمنة لفظة الاستطاعة ، واشتقاق الاسم دال عليه ، فتأمله ... إن شاء الله [٢] .

***

فأما الشجاعة فهى استعمال قوة الغضب بقدر ما ينبغى ، وفى الوقت الذى ... ، وفيما ينبغى ، وعلى الحال التى ينبغى .

(١) قال أبو هلال العسكرى فى الفروق اللغوية ص ٨٩ « الفرق بين الطاقة والقدرة أن ... الطاقة ... القدرة ، والاستفراغ وسعه فى المقدور عليه . هذا ... ، أى قدر ... ولا يقال لله تعالى مطيق لذلك » .

(٢) قال أبو هلال العسكرى فى الفروق اللغوية ص ٨٩ « الفرق بين القدرة والاستطاعة ... الاستطاعة فى قولك طاعت جوارحه للفعل ، أى انقادت له ، ولهذا لا يوصف الله بها ... أطاعه ، وهو مطيع ، وطوع له ، وهو طائع له إذا انقاد له ... وقد تسمى الاستطاعة ... الإجابة ، وهو قوله تعالى « هل يستطيع ربك » أى هل يجيبك إلى ما تسأله ومثله قوله ... « لا يستطيعون سمعا » معناه أنه يثقل عليهم استماع القرآن ، لا أنهم لا يقدرون على ذلك . وأنت تقول : لا أستطيع أن أنظر فلانا ، تريد أن رؤيته تثقل عليك » .

وهي خلق يصدر عنه هذا الفعل على ما يحدّه العقل ، وهي حال واسطة بين طرفين مذمومين : أحدهما زيادة بالإفراط ، والأخرى زيادة بالتفريط .

فأما من جانب الزيادة فأن تستعمل بأكثر مما ينبغي في سائر شرائطها فتسمى « تهوّراً »

وأما من جانب النقصان فأن تستعمل بأقل مما ينبغي في سائر شرائطها فتسمى « جبناً » .

والشجاعة لفظة مدح كالجود والعفّة ، وما جرى مجراهما .

وأول ما يظهر سبب أثرها في الإنسان نفسه إذا هُيّجت شهواته ، فاستعمل [١٠٥٢ منها قدرَ ما يحدّه العقل بسائر شرائطها ، ثم يظهر أثرها في غيره إذا قصده أحد بضيم أو ظلم ، فإنه يدفعه عن نفسه بالشروط المذكورة من غير إفراط ولا تفريط .

* * *

وأما النجدة ، فهي في معنى الشجاعة ، أعني أنها لفظة مدح ، وتؤدي معناها ، إلا أنها بحسب اللغة مأخوذة من الارتفاع ، والرجل النجدُ كأنه المرتفع عن الضيم ، الذي علا عن مرتبة[1] من يُستذَلّ ويُمتهَن ، كالنَّجدِ من الأرض الذي هو ضد الغَوْر[2] .

* * *

وأما البطولة — وإن كانت في معنى الشجاعة — فإنها مختصة بما يظهر في الغير ، ولا تستعمل في قهر الإنسان شهواتِ نفسه ، وهي تابعة للفروسية ، كما يقال فارس بطل .

---

(١) في الأصل « مرتبته »

(٢) قال أبو هلال العسكري في الفروق اللغوية ص ٨٨ : « الفرق بين الشجاعة والنجدة أن النجدة شدة البأس وثبات الجنان ، وأصلها الارتفاع ، ومنه سمي النجد لارتفاعه ، والرفيعة نجد ، وقيل للمتجالد نجد ؛ لأنه يجمع ثيابه ويرتفع ، ثم قيل للشجاعة نجدة ، لأنها تكون مع الحسم في أكثر الحال » .

وأحق بالبطولة أن تكون عائدة إلى معنى البطلان؛ لأن صاحبها
— أبداً — متعرض لذلك من أقرانه[١]. لا سيما والعرب لا تميز بين الشجاعة
ممدوحة، وبين الزيادة فيها مذمومة، من عندهم أن الإفراط هو الشجاعة.

فأما ما تسميانه عن الشجاعة — فهو بالإضافة إلى ما تسميه … ، كما
فعلوا ذلك في السخاء والجود، فإنهم استعملوا هذا المذهب بعينه.

وأقول: إن الشجاعة ربما أدت إلى بطلان الحياة، وكان الموت حينئذ
خيراً جيداً ممدوحاً لك وقع بحسب الشجاعة، أعني على ما حدّه العقل، وكما سعى،
على سائر الشروط؛ لأنه لو قصّر صاحبها، أعني الشجاعة، لكان مذموماً جباناً
كما بينا وأوضحنا، وكما تقدم من شرحنا معنى الموت الجيد، والحياة الرديئة،
فيما تقدم.

* * *

فأما المعونة، فهي إمداد القوة بقوة أخرى من جنسها خارجة عنها
والخذلانُ / تركُ هذا الإمدادِ مع التمكنِ منه. [٥٢ - ب]

فإذا كانت المعونةُ من البشر، كانت نافعةً مرة، وضارةً مرة؛ لجهلهم بعواقب
الأمور، ولكنْ اسمَ المعونة اسمُ مدحٍ؛ لأن المعول عليه بين الناس هو النيةُ
القصدُ في الوقت، لا عواقبُ الأمور.

فأما إن كانت من الله — تعالى — فليست إلا نافعةً غيرَ ضارة؛ لعلمه
بالعواقب، ولأن الله — تعالى — لا يفعل إلا الخيرَ والنفع، وهو متعالٍ عن
الشر، منزّه عنه، جلّ ذكرُه، وتقدس اسمه، وعلا علواً كبيراً عما
يقول الظالمون.

---

(١) في اللسان: رجل بطل بيّن البطالة والبطولة: شجاع تبطل جراحته فلا يكترث لها،
ولا تبطل نجادته، وقيل: إنما سمي بطلاً لأنه يبطل العظائم بسيفه فيبهرجها، وقيل: سمي
بطلاً لأن الأشداء يبطلون عنده، وقيل: هو الذي تبطل عنده دماء الأقران، فلا يدرك
عنده ثأر.

و إذا تبين ما المعونة ، وكيف تقع من البشر ومن البارى — تعالى — فقد تبين ضدُّه الذى يسمى الخذلان ، فلا معنى لإطالة الكلام فيه .

* * *

فأما اللطف والمصلحةُ فلفظتان مختصتان بأصحاب الكلام ، وإن كانتا أيضاً معروفتين عند الجمهور ، ومعناهما عند القوم معروف .

وأنت — أبقاك الله — رزين شبعان من كلامهم ومعانيهم وأغراضهم ، غيرُ محتاج أن تتكلف مك إيضاح شيء منه . زادك الله ، وأمتع بالنعمة فيك .

* * *

وأما التمكين فهو تفعيل من الإمكان ، والإمكانُ فى الشيء هو جواز ظهوره من قوته إلى الفعل ، وطبيعته بين الواجب والممتنع .

وذلك أنك إذا تصورت طبيعة الواجب كانت طرفاً ، و بإزائه فى الطرف الآخر — أعنى ما هو فى غاية البعد منه — طبيعةُ الممتنع ، وبينهما طبيعةُ الممكن

ولأجل هذا صار للممكن عرضٌ كبيرٌ ، ولم يكن للواجب ، ولا للممتنع عرض ؛ لأن بين الطرفين مسافة تحتمل الانقسام الكثيرة ، فأما الطرف فلا [٥٣ - ا] مسافة له ، والمسافة التى بين هذين الطرفين — أعنى الواجبَ والممتنعَ — إذا لحَظتَ وسطها على الصحة ، فهو أحق شيء وأولاه بطبيعة الممكن . وكلما قربت هذه النقطة التى كانت وسطاً إلى أحد الطرفين كان ممكناً بشرط وتقييد ، فقيل ممكن قريب من الواجب ، وممكن بعيد منه

وكذلك نقول فى الممكن القريب من الممتنع ، والبعيدِ منه .

فأما إذا كان فى الوسط فهو ممكن على الإطلاق ، وحينئذ ليس هو بالواجب أولى منه بالممتنع ، ولا هو بأن يظهرَ من قوَّته إلى الفعل أولى من أن يبقى بحاله فى القوة .

فالتمكين هو مصدر مَكَّنَ تمكيناً كما تقول : كرَّم تكريماً ، وكلَّم تكليماً .

والإمكان مصدر أَمْكَنَ إمكاناً كما تقول : أكرم إكراماً ، ومُمكن مفعل منه كما تقول مُكرِم .

وأما الاسم الذى منه اشتق هذا الفعل فلم يستعمل فى اللغة ، ولا جاء منه [فعل] ملك[1] ؛ لأن الشىء لا فعل له إلا الفعل المتعدى بالهمزة ، فإذا قلت فى الشىء : هو ممكن ، فكأنك قلت : إن هذا الشىء الذى فى القوة ولم يستعمل له اسم ، هو فى التقدير ، وتقديره امكن – قد أعطاك ذاته ، وحصل من نفسه بحيث [تخ]رجه إلى الفعل بالإرادة .

والإمكان مصدر أمكن الشىء من ذاته . وأما التمكين فهو فعل شىء آخر [يحد]ث ، إذا حصلت من هذا الشىء ، بحيث تخرجه إلى الفعل بالإرادة ، وهو مصدر [م]كّن ، وهذا التشديد يجىء فى مثل هذا الوضع من اللغة إذا أريد به تكرير [٥٣ ـ ب] [الف]عل وتأكيده ، كما تقول : ضَرَبَ وضَرَّبَ ، وشَدَّ وشَدَّدَ .

وقد يجىء التمكين بمعنى آخر ، وهو أن يكون تفعيلا مشتقا من المكان ، كما تقول : مكّنت الحجرَ فى موضعه إذا وفيته حقه من مد[2] المكان ليلزمه ، [و]لا يضطرب .

ومنه تمكّن الفرس من السَّرْج ، وتمكّن الإنسان من مجلسه . وتمكّن [الإ]نسان من الأمير من هذا على التشبيه والاستعارة .

وبين هذا المعنى والمعنى الأول بون بعيد كما تراه .

* * *

(١) الاسم فى اصطلاح النحويين ما دل على الذات أو المعنى من غير دلالة على حدث ، ويقابله المصدر ، وهو الدال على الحدث ، فالإعطاء مصدر ، والعطاء اسم ، والخروج مصدر ، والمخرج [اسم] . يريد المؤلف أن يقول : إنه فى هذه المادة يوجد المصدر ، وهو الإمكان ، ولا يوجد فى [ما]ته الاسم الدال على المعنى من غير حدث .

(٢) مد المكان : بسطه وسواه

وأما الرزق فهو وصول حاجات الحي إليه مما هو حي

وهي أشياء توصل إلى هذه الحاجات ، وهي عوض منها ، ولذلك عمّ[1]

أعني ما يعوض من غيبة ، فصيغت [illegible] هي ، وسميت [illegible] أرزاقاً إذ كانت إليها

والأصل الأول ، قال الله تعالى : (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا)[2] .

ولما كانت أسباب الوصول إلى الحاجات كثيرة فمنها قريب ، ومنها بعيد

ومنها طبيعي ، ومنها غير طبيعي وغير الطبيعي منها اتفاق ومنها غير اتفاق ، وغلط

الناس ضروباً من الغلط : منهم أقوام [illegible] جعلوا الأسباب الكثيرة سبباً

واحداً ، ومنهم أقوام الأسباب البعيدة قريبة ، فلما خفي عنهم ذلك و

جدوه حيث طلبوه — لحقتهم حيرة ، و [illegible] بالسبب عرض لهم العجب

من الأمر

* * *

فأما نقول في قولك : دولة الشيء بين القوم ، وقد وقع بينهم إذا تعاوروه

بالمعاطاة ، قال الله تعالى : « كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم »[3] .

[٥٤ ا] ليتعاوره الكل ، ولا يخص قوماً دون قوم

وهي عندي مختصة بالأمور الدنيوية الخارجية لا سيما العلمية ، وأسبابها

كثيرة . فمنها بعيد ، ومنها قريب ، ومنها طبيعي ، ومنها غير طبيعي ، وغير الطبيعي

منقسم إلى الإرادي والاتفاقي وكل واحد من هذه الأقسام أيضاً ينقسم ويتشعب

عنه ويتركب ويختلط ، ويتركب ضروب التراكيب ، ولذا فقد الجمهور وجه

سببه عرض لهم فيه من الحيرة والتعجب ما عرض في الرزق

* * *

(١) في الأصل « [illegible] » .

(٢) سورة مريم ٦٢

(٣) سورة الحشر ٧ .

فأما التوفيق والاتفاق ، والموافقة والوفاق ، فقد مر ذكر كل واحد منها مفرداً ، وفي مسائل متفرقة ، ووعدنا الكلام عليها في هذا الباب مع ذكر البحث [illegible] حد ، لأنها أشكال وقرائب .

وهذه الألفاظ الأربعة التي عددناها متقاربة المعاني ، وهي مشتقة من الوفق ، [illegible] من ألفاظ الإضافة ؛ لأنها لا تقع إلا بين شيئين ، أو بين أشياء . ويقال هذا [illegible] هذا ، أي مثله وصِنْفه ومُلائمه ، ويستعمل في كل متلائمين من حيث [illegible] وغيرها . وفي المثل : وافق شَنٌّ طَبَقَةً[1] ، ووافقه فاعتنقه[2] ، فقولك وافق فاعل من الوفق .

وهذا الوزن يجيء في كلام العرب ما كان بين اثنين ، وكان كل واحد منه وافق الآخر ، وهو موافق ، كما قيل : ضارب صاحبه فهو مُضارب .

والاتفاق افتعال من الوفق . وهذا الوزن يجيء فيما لم يكن فاعله خارجاً منه . كما يقال : اقترب واعتنق واضطرب ، والأصل في اتفق / اوتفق . [٥٤ ب]

وكل هذا مشتق من الوفق . وهذا الوزن لا يجيء[3] فيما لم يكن فاعله [illegible][4] الذي ذكرناه .

فإذا اجتمع شيئان أو أشياء على ملاءمة بينهما بسبب إرادي[5] مجهول ، [illegible] منهما موافقة لإرادة إنسان ما — كان اتفاقاً له ، ولا بد أن يكون فيه

---

(١) [illegible] من دهاة العرب [illegible] وقال والله لأطوفن حتى أجد امرأة مثلي أتزوجها [illegible] وافق شن طبقة ، فذهبت مثلا يضرب للمتوافقين . [illegible] طبقة قبيلة من إياد كانت لا تطاق فوقع بها شن [illegible] فانتصف منها ، [illegible] فصار مثلا للمتفقين في الشدة وغيرها [illegible] الأصمعي عن ذلك . راجع مجمع الأمثال ٢ ، ٣٢١ — ٣٢٢ .

(٢) في مجمع الأمثال « وزاد المتأخرون فيه : وافقه فاعتنقه » .

(٣) في الأصل : « ولا هذا الوزن يجيء » .

(٤) في الأصل « إلى » .

(٥) في الأصل « بسبب إرادتي » .

قِسْطٌ [من] الإرادة ، ونصيبٌ من القصد والاختيار ، فإن لم يكن للإرادة فيه نصيبٌ ، وإنما وقع بسبب طبيعي مجهول ، وكان فيه أمر نافع للإنسان سُمِّيَ بختًا له .

ولما كانت الأمورُ بعضها يتم بأسباب طبيعية ، وبعضها بأسباب إرادية وبعضها بالمشترك ، فيكون تمامه بأسباب طبيعية وأسباب إرادية ، وكل واحد منها يتم منه أمر واحدٌ محبوبٌ أو مكروه ، وإن اختلفت أسبابه بحسب إنسانٍ إنسان ونحو غرضٍ غرض — خولف بين أسمائها ، بنيت بها على اختلاف أسبابها .

وما كان من الأمور له سبب طبيعي بعيد أو قريب إلا أنه مجهولٌ ، ثم عرض أن يكونَ نافعًا للإنسانِ من غير إرادة ، ولا قصدٍ سُمِّيَ بختًا .

وما كان من الأمور له سببٌ إرادي بعيد أو قريبٌ إلا أنه مجهول ، ثم عرض له أن يكون نافعًا للإنسان ، موافقًا لغرض له وإرادةٍ سُمِّيَ اتفاقًا .

ولا يُشتق للإنسان اسم من هذين إلا بعد أن يتكررَ له أمر ، أعني أنه إنما يسمى مبخوتًا إذا عرض له مراتٍ كثيرةً أن تحدث أفعال طبيعيةٌ لأسباب له مجهولة ، فتتمُّ بها أغراض مطلوبةٌ محبوبة .

وأيضًا فإنما يسمى موفقًا إذا عرض له مراتٍ كثيرةً أن تقعَ أفعالٌ إرادية لأسباب لها مجهولةٍ ، فتتم بها أغراض حسنةٌ / محبوبة . [١-٥٥]

وأنا أكشف هذين المعنيين بمثالين ليصحَّ أمرهما وينكشفَ .

على أني رأيتك تستبعد أن تفهمَ معنى البخت ، لأنك لم تجده في كلام العرب ، كأنك حظرْتَ على نفسك أن تفهمَ حقيقةً إلا أن تكونَ في لفظ عربي وإن عدمتَ لغة العرب رغبتَ عن العلوم ، لكنا — أيدك الله — لا نترك البحث (١) عن المعاني في أي لغة كانت ، وبأي عبارة حصلت ، فأقول :

(١) في الأصل « البحت ».

أما مثال البخت فأن يسقط حجر من مكان عالٍ ، فيصيب رجلا فى عضو له يتفجر منه عروق ، ويخرج منه الدم ، فإن كان الرجل محتاجا قبل ذلك إلى إخراج الدم صار سقوطُ الحجر الذى فجّر العرق ، وأخرج الدم سببا لصحته ، ومنع المرض عنه ، فهذا بخت جيد .

فإن كان عرض للرجل أشياء كثيرة تشبه هذا فهو مبخوت .

وإن كان خروجُ الدم غيرَ نافع للرجل ، ولا كان به حاجة قبل ذلك إلى إخراجه ، بل تعجّلَ بسقوط الحجر الألمُ ، وبخروج الدم سقوطُ القوة ، والوقوع فى مرض كان غير مستعدّ له ، فهو بخت ردىء .

وأما المثال فى الاتفاق فأن يخرج إنسان من منزله بإرادة وقصد إلا أنهما كانا منه نحوَ التماس الحاجة[1] ، فلقىَ فى طريقه ذلك صديقاً كان يهوى لقاءه ، أو غريماً كان يطلبه فلا يجده ، فهذا اتفاق جيد ، فإن عرض للرجل مثل هذا كثيرٌ فهو موفق .

وإن كان لقاؤه أيضا وافق عدواً كان يهرب منه ، أو غريما كان متوارياً عنه ، فهو اتفاق ردىء ، والرجل إذا دام عليه مثل هذا غيرُ موفق .

ولما كانت أسبابُ / الحركات الإرادية إنما تكون من خواطر وعوارض [٥٥-ب] لله ليست بإرادة ، إذ لو كانت عن إرادة لوجب من ذلك وجود إرادات لا نهاية لها ، وهذا محال — كانت هذه الخواطرُ والعوارضُ التى هى آثارٌ وأفعالٌ منسوبة إلى فاعل ، وقد قلنا إنّ فاعلها غيرُ الإنسان ، فهى إذن فعلُ غيره لا محالة ، فإن كانت مؤديةً إلى خيرات ومنافعَ كانت منسوبةً إلى الله — تعالى — وهو التوفيق ، تفعيل من الوفق ، وهذا التوفيق ربما فعله الله —

---

(١) فى الأصل « نحو التماس الحاجة » وفى الهامش « لعله التماس » .

تعالى — بالنعمة من غير مسألة ، وربما كان بعد مسألة وتضرع ، إلا أن الناس كافة يرغبون إلى الله — تعالى — فيها ، ويسألونه إياها دائمًا في كل وقت ، فإذا سنحت هذه العوارض والخواطر للنفس فزعت إلى حركات يتم بها [illegible] أمرٌ واحدٌ مختارٌ للإنسان من حوز غرض جيد له — كان ذلك توفيقًا و [illegible] الرجل موفقًا .

* * *

وأما الجد فكأنه اسمٌ شاملٌ للذين المميزين حينئذ ، لأن الإنسان إن [illegible] بخت فهو مجدود ، وإن تفرد أحد بحد فهو محدود أيضًا

* * *

وأما الحظ فهو القسم والنصيب ، ولما كان لكل إنسان نصيبٌ من السعد ، وقسط من الخير مقسوم له من البخت بحسب مولده — كان ما يصيبه من ذلك منسوبًا إلى الحظ .

* * *

فأما المحدود فهو الممنوع ، واشتقاقه من الحد وهو المنع ، ويقال للبواب حداد من هذا ، وكأن المحدود ممنوع مما يصيب غيره من الخير [1]

* * *

والحظيُّ والجَدِّيُّ منسوبان إلى الجد والحظ ، كما يقال تميمي وبكري

* * *

(١) ذكر أبو حيان في كتاب البصائر ١/٢٧ قول الشاعر :

و [illegible] لكل شيء [illegible] … [illegible] فلكل شيء صائر

[illegible] الحد [illegible] ، و [illegible] هو [illegible] ، و [illegible] هو [illegible] و [illegible] منه ، ومنه سمي البواب حدادًا ، لأنه يمنع ، كذا قال ثعلب ، ومنه حدود الله ، أي محارمه ، كأنها مانعة من معصيته ، ومنه حدود الدار .. والحداد [illegible] ، كأنه منع من الطرب ؟

وأما النصر فهو المعونة إلا أنه فيما أدى إلى الغلبة والقهر ، وقد فسر ما المعونة في سلف[1] [٥٦ - ١]

* * *

وأما الولاية فاسم مشترك ، وتصرّفه بحسب تصرف اسم مولى ، أعني أنه يكون من فوق ، ويكون من تحت ، [illegible] الحقيقة فيه أنه حال توجب اختصاصاً وتحققاً يدعو الأعلى إلى الحنوّ والشفقة ، والأسفل إلى النصيحة والطاعة

وإذا أُخذ هذا الاسم[2] بحسب الشريعة وأنه عقد شرعي [illegible]

[illegible] الشريعة ، وإن كان الأصل [illegible]

فأما الملك [illegible] فهو المتفرد [illegible]

وهذا قد يكون بالطبيعة ، وبالشريعة ، وبالاصطلاح :

أما بالطبيعة فمثل الرأس للأعضاء [illegible] ، وحركاته التي [illegible]

[illegible] .

وأما بالشريعة فمثل ملك [illegible]

وأما بالاصطلاح فمثل [illegible]

فأما [illegible] فهو [illegible] ، وهو [illegible]

ويكون الأمر فيه على طريق [illegible] كان بحسب الشرع ،

[illegible] وقوانينه ، [illegible] أحكامه ، وحمل الناس عليه طوعاً وكرهاً ، ورعاية [illegible] ، وحملهم كافة بلا هوى ولا عصبية [illegible] فهو الملك الحقيقي الذي يستحق

[illegible] الاسم ، ويستوجبه بحسب معناه .

وإن لم يكن بحسب الشرع وشروطه التي ذكرناها فهو غلبة[3] ، والرجل

(١) راجع ص ٩٩

(٢) يقصد الولاية

(٣) في الأصل « غلبه »

متعلِّـ ، ولا يجب أنْ يسمى ملِـكا ، ولا صناعتُه مَلَـكية ، ولا نقودُ أمره بحسب اللك .

وقد استبان من هـذا الـكلام حقيقةُ المُلْكِ ، والفرقُ بينه وبين المتغلب ، [٥٦ - ب] وإن كان شرح ذلك يضيق عن هذا المكان لـكنْ الإشارة إليه كافية بإذن الله .

(٣٥)

مســـألة

ما معنى قول الناس : هذا مِنَ الله ، وهذا بالله ، وهذا إلى الله ، وهذا لله ، وهذا مِنْ تدبير الله ، وهذا بتدبير الله ، وهذا بإرادة الله ، وهذا بعلم الله ؟

***

وحكاية طويلة في إثر هذه المسألة عن شيخ فاضل مقرّظ ، وحوادث له

الجــــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

أمّا الناس ومقصِدهم بهـذه الحروف من المعاني ، فلا يمكن أن ينضبط ، لكثرة وجوه مقاصدهم ، واختلافِ آرائهم ومذاهبهم . وليس من الممكن تكييفُها ذلك ، ولو ذهبنا نعدّد آراء الناس لطال ، فكيف الاعتذارُ لهم ، وتأويلُ أقوالهم .

وأنا أضمن بالجملة أن أعرّفك وجه الصواب عندي في هذه المسائل ، وما أذهبُ إليه ، وأجتهد لك في إيضاحه على غاية الاختصار والإيجاز ، كما شرطته في الرسالة التي صدرت بها ، فأقول :

إن جميع ما يطلق على الله - تعالى ذكره — من هذه المعاني ، وما يُنسَب إليه من الأفعال والأسماء والصفات ، إنما هو على المجاز والتّسمّح ، وليس يُطلَق

من حقائق ما نعرفه بهذه الأسماء — شيئاً مما هناك .

وأول ذلك أن لفظة « من » فى هذه المسائل تستعمل فى اللغة وبحسب
النحويين لابتداء الغاية ، ولفظة « إلى » لانتهاء الغاية ، والباء للاستعانة ،
وكذلك سائر الحروف لها معان متبيّنة عندهم .

ولست أطلق شيئاً من هذه الحقائق فى الله — عز وجل — إلاّ مجازاً ،
لا أقول إنّ لفعله ابتداء ولا نهاية ، ولا له استعانة بشىء ، فيطلق عليه [٥٧ - ١]
، ومعنى أن يقال هذا بتدبير الله ، ولا تدبير هناك ، ولا حاجة به إلى هذا
ولا غيره . وكذلك أقول فى سائر الأفعال المنسوبة إليه ، وكذلك أقول
فى الأسماء والصفات التى أطلقت ، ورخّص فيها صاحب الشريعة ، وإنما أتبع
الأثر ، وأمتثل باستعمال الأمر ، وإلا فمن ذا الذى يطلق [1] حقيقة الرحمن
الرحيم وغيرهما من الأوصاف على البارى المتعالى عن الانفعالات ، وإنما الرحمة
للنفس مصدر بحسب أفعال محمودة بينا ، وليس هناك شىء من هذه المعانى
البتة ، ولكن لما كان الإنسان قدير الجهد [2] والوسع ، وليس عليه ما لا يطيق
بحقيقته — أطلق أكرم الأسماء التى هى ممدوحة شرعية بين على الله —
كمثل السميع البصير ، والجبار العزيز وأشباهها .

وأنا أعتقد أن الشرع خاصة أطلق لنا هذه الأسماء والصفات ، ولو خُلّينا
وما أقدمنا على شىء منها أصلاً برخصة ولا سبب . فإذا سمعنا شيئاً من
هذه الأسماء والأفعال والحروف منسوبة إلى الله تعالى — نظرنا فيه : فإن كان
فى الشريعة أطلقناه ، ثم تأملنا مُراد قائله ، فإن كان خيراً وحكمة وعدلاً
قبلناه ورأيناه ، وإن لم يكن كذلك ، ولا لائقاً بإضافته إليه أبطلناه ، وزيّفناه ،

---

(1) فى الأصل « يعطى » .

(2) قدير : ضيق ، والجهد — بضم الجيم وفتحها ، والوسع بضم الواو . .....

وكذلك نفسه ، وتزهدا بأن الواحد المنزه لمتعلق عن هذه الأوصاف الماطلة

* * *

ثم إنى وجدتك — أيدك الله — تحكى فى هذه المسألة حوايات عن ش
فاصل نشى عنه ، وشكى إلى قوله ، وتقنع نحو ته ، فرأيت أن أقنعه
[٥٧ ب] أيضا بت به ، وجدت أنت إذ كرت فى آخر المسألة ما هذه حكايته :

طال هذا الفصل عن هذا الشيخ فى معان متفرقة ، تجمع فوائد غريبة ، بأ
محررة ، ومأثورات مستحسنة ، ولو أمكن أن يتبع كل ما تقدم مثل هذا ل
فى ذلك معين قرة ، وللروح راحة ، ولكن الوقت مانع من الفروض الموقت
فصلا عن غيره ، وأنا إلى تمام الرسالة أحوج منى إلى غيره . »

(٣٦)

مسـألة

ما الإلف الذى يجده الإنسان بمكان يكثر القعود فيه ، وشخص
الأنس به ؟

وهذا تراه فى الرحل يألف حماماً ، بل بيتاً من الحمام ، ومسجداً ، بل
فى المسجد .

ولقد سمعت بعض الصوفية يقول : حالفتنى حمى الربع (٢) أربعين س
ثم إنها فارقتنى فاستوحشتها

ولم أعرف لاستيحاشى معنى إلا الإلف الذى تحت الغيبة به وطو
الفطرة عليه ، وصُبغت الروح به .

(١) ... الكلام
(٢) ... ع : بكسر ... : أن تأخذ يوماً وتدع يومين ، ثم تجيء فى اليوم ال

الجواب

الإلفُ هو تكرر الصورة الواحدة على النفس ، أو على الطبيعة مرارًا
[كثـ]ـيرة .

[فأ]ما النفس فإنما تتكرر عليها صور الأشياء إما من الحس ، وإما من العقل .
[فأ]ما ما يأتيها من الحس فإنها تجده في شبيه بالحركة لها ، أعنى موضع
[...] ، وتكون الصورة كالغريبة حينئذ ، فإذا تكرر مرات شىء واحد ، وصورة
[واحـ]ـدة زالت الغربة ، وحدث الأنس ، وصارت الصورة ، ولعلها هى كالشىء
[الواحـ]ـد ، فإذا عادت النفس النظر فى الجزئية التى ضربناها مثلا — وجدت
[الصـ]ـورة الثانية بعرفتها بعد أنس ، وهو الإلف .

وهذا الإلف يحدث عن كل محسوس بالنظر وغيره من الآلات [١٠٥٨]

فأما ما تأخذه من العقل فإنها تركّب منه قياسات ، وتُنتج منها صورا
[...]ـ أيضًا غريبة ، ثم بعد التكرر ستطمع فيقع لها الأنس ، لأنه فى هذا الموضع
[يسـ]ـمى « إلفا » ولكن « عِلمٌ وملَكة » ، وهذا يحتاج فى العموم إلى كثرة
[الدر]س ؛ لأنه فى أول الأمر يحصل منه الشىء الذى يسمى حالا ، وهو كالرسم ،
[ثم] مع ذلك التكرر يصير قُنية وملَكة ، ويحدث الاتحاد الذى ذكرناه .

فأمّا الطبيعة فلأنها أبدا مُقتفية أثر النفس ، ومتشبّهة بها ، إذ كانت كالظل
[لـ]ـلبدن الحادث منها ، فهى تجرى مجراها فى الأشياء الطبيعية ؛ ولذلك إذا عوّد
[الإنـ]ـسان طبيعةً شيئًا حدثت منه صورة كالطبيعة ؛ ولهذا قيل : العادة[1]
[طبيعة] ثانٍ .

وإذا تصفحت الأمور التى نعتاد فتصير طبيعة وجدتها كثيرة واضحة أبين

(١) فى الأصل « العادة » .

وأظهر من الإلف الذي في النفس ، كمن يعوّد نفسه الفصْدَ ، والنوم ، والبَرَ...
وغيرها في أوقات بعينها ، وكذلك الهضم في الأكل والشرب ، وسائر ما ...
أضافها إلى الطبيعة .

(٣٧)

مسألة طبية

لم صار الصَّرْعُ من بين الأمراض صعْبَ العلاج ؟ و سبب ذلك ...
الطبيب كاليس من برئه ، ويقال : إنه فيمن طعَنَ في السن وأخذ بدنه ...
الخلوقة أصعب ، وفي الصبيّ اللّين العود ، الرَّطْبِ الطين ، السريع الخَ...
أقربُ أمراً ، وأسهلُ برءاً .

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

الصَّرْعُ هو تشنُّج يحدث في الأعصاب ، ومبدأ لعصب الدماغ ؛ لأنه
[٥٨ - ب] هناك / ينبت في جميع البدن ، وسبب هذا التشنج بخارٌ غليظ يكون من ...
لزج ، وكَيْمُوس[1] غليظ يسد منافذ الروح التي في بطون الدماغ ؛ ولأن الد...
— وإن كان غليظاً — فهو سريع التحلل ، تكون الإفاقة سريعة بحسب تحـ...
وهذا الانسداد ربما كان من الدماغ نفسه ، وربما كان باشتراك المـ...
من بخار غليظ يرتفع إليه منها ، وهو الأكثر ، وربما كان باشتراك عضو آخر
والعليل يُحِسُّ قبلَ وقت النوبة إذا كان من عضو غير المعدة كأنَّ ...
يبثُّ من هناك ، ويصعد إلى فوق ، فيربط الطبيب ذلك الموضع ، ويلف ...

(١) الكيموس في اللسان « والكيموس في عبارة الأطباء : هو الطعام إذا انهضم في المعدة قبل أن ينصرف عنها ويصير دماً ، ويسمونه الكيلوس . قال أبو منصور : لم أ... فيه من كلام العرب الفصحاء شيئاً صحيحاً » .

عند ثبات قوته، ليمنع البخار من الصعود إلى الدماغ. ولما كان الصبي ضعيف الدماغ رطبه كان سريعاً إلى قبول البخارات، وحرارته في النشوء مغمورة بكثرة الرطوبات، وليس للبخار شيء أكثر من رطوبة كثيرة تضعف الحرارةُ عن تحليلها وحلّها؛ فلذلك كثرت البخارات في رأسه، فحدثت منه الشُّدَدُ التي ذكرناها.

ولهذا السبب الماهر لا يعالج الصبي بشيء من أدوية الصرع، بل يتركه، ويداوي الموضع بإصلاح الغذاء، فإن الطبيعة إذا قويت، وجفت فضول الرطوبات عن جميع البدن، وذلك بحركة [illegible] زال الصرع نفسه بزوال سببه، الذي هو البخار الكثير، ولصلابة جوهر الدماغ، وقلة قبوله للآفات التي كان سببها لينه وضعفه، وإنما غاية الطبيب إصلاح نفس مرضعته بالغذاء الذي [illegible] فحسب.

وأما الصرع في الشيخ فإن أمره بالضد؛ لأن ضعف آلاته كلها يكون من يبس الأعضاء، وضعف القوى والأعصاب، وليس يقتصر [illegible] في البدن [illegible] هي في كل يوم في النقصان والضعف، فإذا قبل دفعة من عضو [١٠٥٩] من رأسه أو من عضو آخر صار معتاداً له، وازداد في كل نوبة قبولاً والحرارة التي هي سبب تحليل البخارات تضعف عن التحليل؛ فلذلك يتمكن منه.

ومن شأن المادة التي تنصرف إلى موضع من البدن، إذا عاودته مراراً، أن تتسع المجاري، وتدفع الطبيعة بالمادة التي ذكرناها في المسألة المتقدمة. فالآلة تزداد ضعفاً، والمادة تزداد انصباباً، والبخار يزداد كثرة للرطوبة الغريبة التي تحدث في أبدان المستعدين لها واستحالة ملحها[1] في معدتهم، والحرارة تزداد ضعفاً على

(١) في الأصل « ملحم ».

التحصيل ، ولا يكاد [illegible][1] لأجل ذلك

(٣٨)

مسألة

ما سبب محبة الناس [illegible][2] ، حتى [illegible] الشعر [illegible] [illegible] ، و [illegible][3] على [illegible] ، و [illegible] بين يديه [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] كان كثير [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible][4] [illegible] و [illegible] و [illegible] [illegible][5]

و [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] و [illegible][6] ، و [illegible] [illegible]

الجواب

[٥٩-ب] قال أبو علي مسكويه رحمه الله :

[illegible] لأن الإنسان [illegible] [illegible] [illegible] ، و [illegible] المتحركة بالإ [illegible]

(١) [illegible]
(٢) [illegible]
(٣) في [illegible]
(٤) [illegible] ، أي [illegible] ذلك .
(٥) [illegible]
(٦) [illegible]

[illegible] ، و [illegible] الملائكة ، فهو [illegible] وشرف [illegible]
[illegible] والأعضاء [illegible] ، و [illegible]
[illegible] القوة النامية .

فأما النفس [illegible] فلا [illegible] الأكل والشرب .

ولما كانت [illegible] شرف من الإنس [illegible] على [illegible] ،
[illegible] — كان الإنسان [illegible] أكرم وأشرف من الإنسان
[illegible]

[illegible] الإنسان [illegible] الملائكة ،
[illegible] [1] [illegible] في كل شيء [illegible]
[illegible] .

فهذا [illegible] ،
[illegible] .

(٣٩)

مسألة

[illegible]
[illegible]

وما الفرق بين الرزق [illegible] من [illegible] — وقد [illegible]
[illegible] كثير الرزق ، وكم من [illegible] فتبين
[illegible] الحمد لله عز وجل [2] .

---

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه رحمه الله

[١-٦٠] قد تقدم لنا في هذه المسائل كلام في السبب الذي يحمل الناس على ما تقبح عاقبته مع علمهم بذلك ، وضربنا فيه مثل المريض الذي يعلم أن تناول هذا الشيء ينقض صحته ؛ ولكن هذا إنما يبيح به الصحة ، فيحمد للشهوة الحاضرة لذة العاجل على سوء عاقبته ، وضعف عقله ، وانقياده للنفس البهيمية ، وغلبتها للنفس الناطقة ، فلا وجه لإعادته[1]

والمنعكس فقد تبين [illegible] ، وإذا قد تقدم كل هذا فقد تبين

(٤٠)

مسألة خلقية

لم يكون بعض الناس يحب أن يخفي ما في نفسه ، ويكتم ما يعتقده ، ويكره أن يطلع على شيء من أمره ،

وآخر يظهر ما يكون منه ، ويتشيع به[2] ، ويدل الناس على قبيحه وكثيره ، وما معنى قول النبي عليه السلام : « استعينوا على أموركم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود » .

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

قد مضى بعض جواب هذه المسألة في تقدم ، وقلنا : إن للنفس قوتين تشتـ

---

(١) راجع ص ٢٩ [illegible]

(٢) يتشيع به : أي يحدث به ويظهره ويشهره

بإحداهما إلى الأخذ، وبالأخرى إلى الإعطاء. وكما يعرض للنفس في الأموال الشحُّ والسماحةُ، كذلك تعرض لها في المعلومات، فمرة تسمح، ومرة تضنّ، وربما كان الإنسان شحيحاً بعلمه، سمحاً بماله، وبالضد.

وقد تقدم جميع ذلك مستقصى حيث تكلمنا على السر فيما مضى[1].

(٤١)

مسألة إرادية

لم قبح مدح الإنسان لنفسه، وحسن مدح غيره له؟ [٦٠ ب]

وما الذي يجب للممدوح من المدح؟ وما سبب ذلك؟

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

المدح تزكية للنفس، وشهادة لها بالفضائل، ولما كان الإنسان محباً لنفسه في محاسنها، ويخفى عليه مقابحها، بل يرى لها من الحسن ما ليس فيها؛ قبحت منه الشهادة لها؛ لأنه لا يُقبل منه، ولا يُزكّى له.

فأما غيره فلأجل غربته منه، وخلوّه من آفة العشق صارت شهادته مقبولة، ومدحه مسموعاً.

وربما كان هذا الغير يجري في محبة الممدوح مجرى الولد، والأخ، والصديق الذي محبته منه قريب من محبة نفسه، فعرضت له تلك الآفة بعينها، أو قريب منها، فقبح ثناؤه ومدحه، ولم يُقبل منه، وإن كان دون قبح الأول، أعني مادح نفسه؛ لأن أحداً لا يبلغ في محبته غيره درجة محبته نفسه.

فأما ما يجده الممدوح من المدح فهو حلاوة الإنصاف، ولذّة الحق، وسماع الكلام الطيب في المحبوب للموافق للإرادة.

---

(١) راجع ص ١٥ — ١٩

(٤٣)

مسألة إرادية وخلقية ولغوية

ما سبب ذم الناس البخل مع غلبة البخل عليهم ؟

وما سبب مدحهم الجود مع قلة ذلك فيهم ؟

وهل الجود والبخل طبيعيان أو مكتسبان ؟

وهل بين البخيل ، والقتير[1] ، والشحيح[2] ، واللموح[3] ، والـ[illegible] والوخ[4] ، والمسيك[5] ، والجعد[6] ، والكز[7] — فروق ؟

الجـــواب

[٦١ - أ] قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :

ما سبب ذم الناس البخل فلأن البخل منع الحق من مستحقه على الوجه الذي قد تقدم ذكره ، وهو في نفسه أمر مستقبح عند العقل ، وليس عند [illegible]

(١) في اللسان [illegible]

(٢) [illegible] في [illegible] ١٤٤ [illegible] شح [illegible] على [illegible] مع ذلك

[illegible]

(٣) في اللسان [illegible]

(٤) في اللسان [illegible] — أي خسيس ، ووخ فلان عنه أي أخسه .

(٥) في اللسان [illegible] أي بخيل [illegible] مسيك [illegible] أي [illegible] في يده لا يعطيه أحدا .

(٦) في اللسان : [illegible] جعد [illegible] وجعد الأنامل ، إذا كان بخيلا لئيم لا يعطي خيره .

(٧) في اللسان : رجل كز ، وكز اليدين أي بخيل .

مستقبحة عندهم عليهم ، وهو خلق مذموم ، ومرض النفس مكروه ، وكما لا يعمهم أمراض البدن وإن كانت موجودة فيهم ، كذلك لا يعمهم أمراض النفس وإن كانت غالبة عليهم ، على [أن] الإنسان في أكثر أمره يدعي هذا المرض للنفس من البخل ولا يعترف أنه موجود فيه إلا إذا كان منصفاً من نفسه ، عارفاً عالماً و[ما] عليها ، فقد سمعت جماعة من أصدقائي يقولون لنفسهم أموراً ، ويشكون أنهم في جهد من مداواتها ، وحرص على إزالتها ، وأن العادة السيئة قد أفسدت عليهم كثيراً من أخلاقهم.

وأما سبب مدحهم الجود فلأن الجود في نفسه أمر حسن محبوب ، وقد ذكرناه فيما مضى ، وهو في النفس كالصحة في البدن ، فالناس يؤثرونه ، ويمدحونه وجد لهم أو لم يوجد.

وأما قولك : هل الجود والبخل طبيعيان أم مكتسبان ؟ فإن الأخلاق كلها ليست طبيعية ، ولو كانت كذلك لما عالجناها ، ولا أمرنا بإصلاحها ، ولا طمعنا في نقلها وإزالتها إذا كانت قبيحة ، ولكانت بمنزلة الحرارة والإضاءة للنار ، وبمنزلة الثقل والانحطاط في الأرض ، فإن أحداً لا يروم معالجة هذه الطبائع ، ولا إزالتها ونقلها ، ولكن نقول : إنها وإن لم تكن طبيعية — فإنها بالعادة ، أو بحسبها تصير قريبة من الطبيعية في صعوبة العلاج / وإزالة [٢٩١ ب] صورة من النفس.

وإنما نسميها خلقاً بعد أن تصير هيئة للنفس يصدر عنها فعل واحد بلا روية ، وأما قبل ذلك فلا تسمى خلقاً ، ولا يقال : فلان بخيل ، ولا جواد إلا إذا كان ذلك دأبه.

وأما الطفل والناشئ فقد يكون مستعداً بمزاج خاص له نحو قبول خلق بعينه لكنه يؤدب ويعوّد الأفعال الجميلة ؛ لتصير صورة لنفسه ، وهيئة لها يصدر

عنها — أبداً — ذلك الفعلُ المحمود، كما يكون مستعداً لقبول مرض بعينه فيد.

بالأغذية والأدوية إلى أن ينقل من ذلك الاستعداد إلى ضده فيعتدل المزاج

أن يصحّ، ولا يَقبل ذلك المرض.

* * *

وأما قولك: هل بين الألفاظ التي عددتها فروق، فلعمري إن بينها فرو.

أما البخيل واللئيم، فقد فرق بينهما فيما تقدم من أن اللؤم أعمّ من البخ

لأن كلّ لئيم بخيل، وليس كلّ بخيل لئيماً. واللؤم لا يختص بالمال والأعر.

حسب، بل يكون في النسب والخلقة. والبخل خاص بالأخذ والإعطاء.

وأما المسيك، والممسك فاشتقاقهما يدل على معناهما.

وأما الجعد والكزّ، فلفظتان مستعارتان مأخوذتان من الجمادات.

وأما النذل والوَتِحْ، فاسمان مستعملان في الذم، وكل واحد أبلغُ من الآخ.

والنذالة أشبه من اللقاعة والوتاحة، وفي مثل للعامة: فلان مقعد العرس ود.

بعينه أرسطاطيس. ودلّ على أن تلك اللفظة وافقت هذه اللفظة في هذا المثل، و

أخذه قوم عن قوم. وهذا قد تجاوز البخل الذي هو منع الحق أخذه على الشرو[ط]

[٦٢ - ١] والحظ إلى / غاية في معاملة نفسه أكثر من غاية البخيل في معاملة غيره.

(٤٣)

مسألة إرادية وخلقية

وعلى ذم الناسِ البخلَ و[مدحهم] الجودَ، ما سبب اجتماعهم على استشناع

الغدر، واستحسان الوفاء، مع غلبة الغدر وقلة الوفاء؟

وهل هما عرضان في أهل الجوهر، أم مصطلح عليهما في العادة؟

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

سبب استحسان الناسِ الوفاءَ حسنةٌ في العقل ، وذلك أن الناس لما كانوا مدنيين بالطبع اضطروا إلى أمور يتعاقدون على رسوم ؛ فتصير بالمعونة سببا لتمام أغراض أخر .

وقد تكون هذه الأمور في الدين والسيرة [و] في المودة والمعاملة ، وفي الملك والنعمة ، وبالجملة في كل ما يحتاج فيه إلى التمدن ، وما يتم بالمعاونات فتُقدَّمُ لها أسباب تعقد بينهم حالا يلتزمونها أبدا في تمام ذلك الأمر ، فإذا ثبت عليها قوم ، ودوموها تمت أغراضهم ، وإذا زالوا عنها ، وخاس[1] بعضهم ببعض فيها انتقضت عليهم الأغراض ، وانقطعت عن بلوغ التتمات .

وبحسب الأمر المقصودِ بالتمام يكون حُسْنُ الوفاء وقبحُ الغدر ، فإن كان الأمر شريفاً كريماً عاماً نفعه استشنع الغدر فيه ، واستُحسن الوفاء ، وبالضد .

(٤٤)

مسألة في مبادي[2] العادات

ما مبدأ العادات المختلفة من هذه الأمم المتباعدة ؟ فإن العادةَ مشتقة من عاد يعود ، واعتاد يعتاد[1] ، فكيف فزع الناس إلى أوائلها ، وجروا / عليها ؟ [٦٣ ب]

وما هذا الباعث الذي رتب كلَّ قوم في الزي ، وفي الحلية ، وفي السيرة ، والحركة ، على حدود لا يتعدَّونها ، وأقطار لا يتخطَّونها ؟

---

(١) في اللسان : « خاس فلان بوعده خيساً : إذا أخلف . وخاس بعهده : إذا غدر ونكث » .

(٢) راجع الإمتاع والمؤانسة ٣/١٣٢ — ١٣٣ .

الجـــواب

قال أبو على مسكويه رحمه الله :

لعمرى إن العادة من عادَ يعود ، فأما السؤال عن مبادىء العادات ، وكيف تدرّج الناس إلى أوائلها ؟ وما كانت تلك الأوائل ؟ ومن سبق إليها ورتّبها فوق ما ترى ؟ فإنى لا أضمن لك الجواب عنه ، ولو ضمنه ضامن لى لما رغبت فيه ، ولا عددته علما ، ولا كان فيه طائل (١)

(٤٥)

مسألة طبيعية

لِمَ لَمْ يرجع الإنسان ، بعد ما شاخ وخرف ، كهلا ، ثم شابا غريرا ، ثم غلاما صبيا ، ثم طفلا كما نشأ ؟

وعلام يدل هذا النظم ؟ وإلى أى شىء يشير هذا الحكم ؟

الجواب

ليست الشيخوخة والهرم نهاية نشوء الإنسان ، ولا غاية الحركة لصيغتها ، أعنى النامية ، فتروم — أيدك الله — أن يعود الشيخ فى مسلكها إلى المبدأ الذى تحرك منه ، بل ينبغى أن تعلم أن غاية النشوء والحركة إنما هى عند منتهى الشباب ثم حينئذ يقف ، وذلك زمان التكهل ، ثم ينحط ، وذلك زمان الشيخوخة ؛

(١) موضوع هذه مسألة لو عبرنا عنه بالعلم الحديث لقلنا : ما منشأ العرف ؟ وكيف بدأ أول أمره ؟ ثم تكرر فى قوم فيكون عرفا لهم ، كعرفهم فى الأزياء وطريقة الأكل والشرب والتحية ونحو ذلك .

وهو سؤال دقيق يحتاج إلى تفكير طويل ، والحديث فيه من صميم علم الاجتماع وله كل فائدة ، ومع زعم مسكويه أنه ليس من العلم فى شىء وأنه لا طائل فيه !!

وذلك أن حرارة الغريزية التي في الأجسام المركبة من الطبائع الأربع ما دامت في زيادة قوتها فهي تنشئ الجسم الذي هي فيه [illegible] رطوبات ملائمة [illegible] يتحلل [illegible] فيكون عوضاً له [illegible] حتى تبقيه [illegible](1) فمتى القوة [٦٣ - ١]

[illegible] عن قدر الغذاء [illegible] عوض من المتحلل [illegible] في [illegible] الجسم ، [illegible] [illegible] ، فإذا [illegible] القوة وقفت عن الزيادة [illegible] [illegible] حينئذ تحفظ على ذلك الجسم [illegible] [illegible] تحدث من [illegible] تسري في الجسم عوضاً عما يتحلل بلا زيادة فتنصرف إلى [illegible]

ثم [illegible] ضعف [illegible] في [illegible] في زمن الكهل ، فيبتدئ النقص في [illegible] من [illegible] الأولى ، [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] تركيب [illegible] ، وهو [illegible] صحيح [illegible]

وهذه سبيل كل حركة طبيعية [illegible] [illegible] ، ثم تنتهي إلى غايته [illegible] ، ثم [illegible]

[illegible] كان [illegible] الإنسان وكل مركب من الطبائع متضادة [illegible] كان جميع [illegible] [illegible] [illegible] بعضها من بعض — صارت [illegible] طبيعية ، ومن شأن الحركة الطبيعية [illegible] [illegible] [illegible] أبدا ، [illegible] بعد [illegible] ، فوجب في حركة [illegible] ما وجب في كل حركة من [illegible] ، ولم يعد الشيخ كهلا ، ثم شابا ، ثم طفلا ؛ لأن الحركة لا تقع على هذا العدم ، ولا الشيخوخة هي غاية الحركة ، بل هي غاية الضعف ، ونظير الطفولة .

---

(1) في الأصل « جذتها » .

ووسط زمان الإنسان الذي بين الطفولة والشيخوخة هو غايته ، ثم [illegible]

[٦٣-ب] الانحطاط والحركة تكون على سبيل [illegible]

(٤٦)

مسألة إرادية

ما الذي يجده الإنسان في تشبيه الشيء بالشيء حتى يخطر ذلك [illegible] قلبه ، ويلهج بذكره في قوافيه ونثره ؟

ولم إذا لم يكن التشبيه واقعاً ، والمعنى فيه بارعاً — أورث [illegible] ومنع الاستحسان ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

الذي يجده الإنسان من ذلك هو السرور بصدق التخيل ، وحسن [illegible] الصور من المواد حتى أخذت الصورة بعد أن كانت لها مادة . وذلك أن [illegible] الخوخة والجمجمة هو انتزاع الشكل الذي وجد في ماديهما وملاحظتهما [illegible] واحداً ، وإن اختلفت به المواد في الكبر والصغر ، والرطوبة واليبوسة ، وال[illegible] والمذاق ، وغيرها من الأعراض .

والتفطن لذلك ، وتجريد الصور من المواد ، وردّ بعضها إلى بعض من خاص فعل النفس ، فالسرور به سرور نفساني ، فلذلك يبتهج به كما يبتهج بما يلتذ به إذا كان طبيعياً ، بل هذا أشرف وأفضل .

(٤٧)

مسألة في الرؤيا

ما السبب في صحة بعض الرؤيا، وفساد بعضها ؟

ولم لا تصح الرؤيا كلها، أو تفسد كلها ؟

وعلام يدل رجحانها بين هذين الحدين ؟ فإن في ذلك سراً يطلب بالامتحان .

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه رحمه الله :

قد صح وثبت من مباحث متسعة أن النفس أعلى من الزمان، وأن أفعالها

غير متعلقة بشيء من الزمان، ولا محتاجة إليه؛ إذ الزمان تابع للحركة، [ر ١٠٦]

والحركة خاصة طبيعية، وإذا كان ذلك كذلك، فالأشياء كلها حاضرة في

النفس، سواء الماضي والمستقبل منها، فهي ترى بعض الأشياء واحدة، والنوم إنما هو تعطيل

النفس بعض الآلات الجسمانية — أعني آلات الحواس — وهي إذا عطلت هذه

الحواس بقيت لها أفعال أخر ذاتية خاصة بها من الحركة التي تسمى رؤية وجولاناً

وهذه الحركة التي لها في ذاتها تكون لها بحسب حالين : إما إلهياً وهو

ما يأتيها من عقلها الأعلى، وإما طبيعياً وهو نظرها في نفسها الأدنى .

كما أنها إذا كانت مستيقظة ترى بحاسة العين الشيء مرة رؤية جلية، ومرة

رؤية خفية بحسب القوة الباصرة من الحدة والكلال، وبحسب الشيء المنظور

إليه في اعتدال المسافة، وبحسب الأشياء الحائلة بينها وبينه من الرقة والكثافة .

فهذه أحوال لا يستوي فيها النظر، بل ربما نظر الناظر بحسب واحدة من هذه

العوارض إلى حيوان فظنه جماداً، وربما ظنه سبعاً وهو إنسان، وربما ظنه زيداً

وهو عمرو، فإذا زالت تلك الموانع، وارتفعت العوائق أبصره بصراً تاماً —

كذلك حتى إذا كانت النفس في غير مستعملة آلة الحس، [illegible] ترى من [illegible]
ما يتصل من الرسم الأول [illegible] على الحس [illegible] شبح الأشياء التي [illegible]
لها — ثم لا [illegible] يحصل لها صورة بعد صورة، حتى تراه صريحاً [illegible]
حتى [illegible] ترى من شيء [illegible] ترى [illegible] وبين [illegible]

٦٤ ب — مكشوفة [illegible] كانت [illegible] غير مختلطة [illegible] أن تكون شيء
[illegible] في [illegible] صورة في [illegible]

وهو [illegible] حسن [illegible] [illegible]
لا [illegible] التي هي جزء من النبوة

فأما [illegible] الأول من [illegible] الحس [illegible]
[illegible] الحس [illegible] حتى [illegible]
ومسموعات [illegible] وهي منثورة لا [illegible] ولا [illegible]
[illegible] تركيب [illegible] كما [illegible]
لا [illegible] الأشياء ولا فائدة [illegible]
وهذه الرؤيا لا [illegible] وإنما هي الأضغاث التي سمعت بها

(٤٨)

مسألة

ما الرؤيا [illegible] وهي جزء من أجزاء النبوة، وما [illegible]
يرى ما يرى؟ وما الذي يرى ما يرى؟ النفس أم الطبيعة أم الإنسان؟

وأكره أن أتوغل في البحث عن النفس، وتحقيق شأنها، وما قال الأولون
والآخرون فيها.

١) في [illegible] ولا خير [illegible] أصحاب [illegible]
[illegible] (قالوا أضغاث أحلام) أي رؤيا أحلام [illegible] رؤيا [illegible]

وإذا كان هذا معجزاً، وعن الطاقة بريئاً، فحسبك بالبحث عن العقل، وشأنه علي، وعالمه شريف، وآثاره لطيفة، وبرهانه شديد [illegible]، ووجوده محالاً، وشرعه قوي مستقيم، وفوائده أكثر عدداً.

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله

إن النفس ترى عند غيبة [illegible] آثاره من حضورها، ووجدت المحسوسات [٦٥-١] [illegible] في الحس المشترك.

وهذه حال جميع الإنسان من [illegible] لا [illegible]، [illegible] وجميع [illegible] لا [illegible] هذه صورة في الحس المشترك [illegible] لا [illegible] فيه [illegible] من الخواص [illegible] من المحسوسات، واستحالت إليه، وهذه الأسماء لا [illegible] المحسوس [illegible]، ولا هذا الحس المشترك [illegible] فيه صور المحسوسات ولا تزول، [illegible] صورته [illegible] رالت [illegible] حتى [illegible] يعرف صورته [illegible] وقعت [illegible] وكذلك المسموعات.

ولولا [illegible] صورة المحسوس أولاً أولاً في هذه القوة [illegible] الحس العام المشترك — لكنا لا نستفيد بالقراءة، ورؤية الرقص، والحركات [illegible] التي ستمضي مع [illegible] شيئاً [illegible]؛ لأن البصر مستحيل [illegible] بعد الحرف، والحركة بعد الحركة، فلا تثبت الحالة الأولى من [illegible]، ولو ثبتت الأولى لما حصلت الثانية، [illegible] الأمر [illegible] في وجودنا هذه

الصور بعد مفارقتها كأنها نصب عينه ، تراها[1] النفس .

وهذه الرؤية التي تسمى تذكرا في اليقظة هي بعينها تسمى في النوم

ويكون هذه حال أخرى زائدة على حال يقظته ؛ لأن قوى النفس عند تعطل

الحواس تتوفر على الرؤية فترى بعض الأشياء الآتية في الزمن المستقبل :

[٦٥-ب] رؤية صحيحة ، وبعضها رؤية شبيهة كاذبة .

واشتقاق هذه الألفاظ بذلك — أيها الشيخ الهولى أيدك الله — أن ...

فيه واحد ؛ لأن الرؤية ، والرؤيا ، والرأي وإن اختلفت بحركات

فهي متفقة بحروف ، وكذلك إذا قلت : رأى فلان ، ورأى ورآى ، ...

صورة الأسماء متشابهة ، وأنت تعرف أحكامها لدربتك بها .

وكذلك الحال في البصر ، والاستبصار ، وفي البصر ، والبصيرة .

وما خاصة السفر وبه استعملت هذا في الأمرين جميعا من غير

ولا نقصان ، فعين ما كان بالحس لحظ ، ولما كان بالعقل[2] : نظر ، من

تغيير حركة ولا تبديل حرف .

فهذا بيان ما الرؤيا ، وما الذي يرى ، وما الذي يرى .

أما الرؤيا فهي ملاحظة النفس صور الأشياء مجردة من موادها عند النوم

وأما الذي يرى فالنفس بآلاتها التي وصفناها .

وأما الذي يرى فالصورة المجردة .

وقد مر في المسألة المتقدمة كيف يكون بعض المنام صادقا ، وبعضه كاذبا ،

وبعضه إنذارا ، وبعضه أحلاما ، وبعضه أضغاثا ، ولكن بغية الإيجاز ؛ لأنا

لو شرحنا هذه المواضع لاحتجنا إلى تصنيف عدة كتب تقرر فيها الأصول .

---

(١) في الأصل « تراه »

(٢) في الأصل « بالعس »

ونُلَخِّصُ بعدها الحروف ، ولكن الشرط سبق بغير هذا ، وسُرعةُ فهمك —
أمتع الله بك — وقبولك ما تُشار به — يقتضي ما رأيناه ، ورَوَّيته(١)

(٤٩)

مسألة إرادية وخلقية

/ ما السبب في تصافي شخصين لا تشابه بينهما في الصورة ، ولا تشاكل [٩٦-١]
بينهما في الخِلقة ، ولا تجاور بينهما في الدار ، كواحد من فرغانة(٢) وآخر من
تاهرت(٣) ، وهذا طويل قويم ، وهذا قصير دميم ، وهذا شَخْت(٤) نَحيف(٥)
وهذا عَنْبَج(٦) جِلف(٧) ، وهذا أزَبّ(٨) أشعر(٩) ، وهذا أمْعَر(١٠) أزعر(١١)
وهذا أعْيا باقِل ، وهذا أبلغ من سَحْبان وائل ، وهذا أجْوَدُ من السحاب إذا
جاد بوَدْق(١٢) بعد بَرْق ، وهذا أعْلَق من كلب على عَرْق ، إذا ظفر بعَرْق(١٣)

---

(١) في اللسان : « الرَّوِيَّة [illegible] » .
(٢) مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر ، متاخمة لبلاد تركستان ، راجع معجم البلدان ٣/٨٧٨ — ٨٧٩
(٣) اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب ، يقال لإحداهما تاهرت القديمة ، وللأخرى تاهرت المحدثة ، راجع معجم البلدان ١/٨١٣
(٤) في اللسان : « الشخت : [illegible] » .
(٥) في اللسان : « [illegible] : غلظ العظام وعِرَضها من [illegible] » .
(٦) في اللسان : « العنبج : الرجل الشديد الغليظ » .
(٧) في اللسان : « قولهم أعرابي جِلف : أي جافٍ ، وأصله من أجلاف الشاة ، وهي [illegible] بلا رأس ولا قوائم ولا بطن [illegible] الأحمق ، [illegible] الشاة المسلوخة والدن ، شبه الأحمق بهما لضعف عقله » .
(٨) في اللسان : « الزبب : مصدر الأزب ، وهو كثرة شعر الذراعين والحاجبين والعينين » .
(٩) في اللسان : « ورجل أشعر : كثير شعر الرأس والجسد ، طويله » .
(١٠) في اللسان : « الأمعر : القليل الشعر » .
(١١) في القاموس : « زعر شعره كفرح فهو زعر وأزعر : قلّ وتفرّق » .
(١٢) الودق : المطر .
(١٣) في اللسان : « العرق بالسكون : العظم إذا أخذ عنه معظم اللحم » .

وبينهم من الخلاف والاختلاف ما يحجب النظر إليهم ، والفحص عن أمر

وعلى ذكر الخلاف والاختلاف ، ما الخلاف والاختلاف ؟ وما الإ

والائتلاف ؟

نعم ، ثم لا نراهما إلا مترخّصين في الأخذ والإعطاء ، والتصدق والوفا

والعقد والولاء ، والنقض والنماء ، بغير بحثية عامة ، ولا مقالة صادقة ، ولا

جامعة ، ولا طبيعة مضارعة

ثم هذا التصافي من يختص ذكرٌ وذكر دون ذكر وأنثى ، و

أنثى وأنثى .

وإذا تفحص الأعمار أدى إلى طرق مختلفة منها أن التصافي قد يعقد

ينقطع ، فمنها يمتد ما يبلغ آخر الدهر ، ومنها ينقطع ما لا يثبت إلا شهراً ، أ

من شهر .

ومن عجب ما ينتج منه العداوة ، والشحناء ، والحسد ، والبغضاء

أن ذلك التصافي كان عين التصافي ، وحتى يفضي إلى عظائم الأمور ،

غرائب الشرور ، وإلى ما يعيي الند والصرف ، ويأتي على البقية المرجوّة

[٦٦-ب] وربما سرت العداوة في الأولاد كأنها بعض الإرث ، وربما زادت في

ما كانت بين الآباء .

وهذا باب عسر ، والتعجب فيه مجال ومتوقع ، والعلل فيه محبوءة .

وقد نصصت في رسالة هذا ذهبت فيه بالبحث عن غامضه ، وبالكشف

عن مشكله .

وليتهم إذ زهدوا في هذه الحكمة يقتدون الخاصين فيها ، والحد

عيبا بأتمهم !!!

الجواب

قال أبو على مسكويه رحمه الله

سبب المضادات بين الناس ينقسم أولا إلى قسمين عظيمين ، وهما أسباب الذات والعرضى

ثم ينقسم كل واحد منهما إلى أقسام ، بحسب أقسام المودات تنقسم أيضا أسباب العداوات .

وبهذا عرف أحد المتقابلين بشرف معرفة الآخر ، لأن أقسامه كأقسامه

أما السبب الذاتى من أسباب العداوة فهو التضاد الذى لا يستحيل ، ويبقى مع الشخص ، وهو يشبه بين الجوهرين ، مثل ما بين الماء من العناصر ، والناس من النفس وشبيهه

أما المزاج فقد يوجد بين الإنسانين ، وبين البهيمتين : فإن التشاكل يؤلف ويجذب أحد المتشاكلين إلى الآخر من غير قصد ولا روية ولا اختيار ، كما تجد ذلك فى كثير من أنواع البهائم والطير والحشرات

وكذلك تجد بين الأمزجة المتباعدة عداوات ومنافرات من غير قصد ولا روية ولا اختيار ، وإذا تصفحت ذلك وجدته أكثر من أن يحصى .

فإن ارتقيت من الأمزجة إلى البسائط من الأمور وجدت هذا مستمرا فيها — أعنى المشاكلة والمحبة / والمودة والعداوة — فإن بين الماء والنار [١٠٦٧] من المضادة والمعاداة ، وهرب كل واحد منهما من صاحبه ينفذ عنه ، ثم ميل كل واحد منهما إلى جنسه ، وطلبه لشكله ليتصل به — أمر لا خفاء به على أحد

وإذا انضاف إلى ذلك مزاج مناسب تأليف موافق طير السبب وقوى ،

كما يوجد بين حجر المغناطيس والحديد ، وبين حجري الخل ، أعني مُحِبّ الخ . وتاعص اجين

وفي الحيوان من هذا المعنى شيء كثير بين لا يحتاج إلى تعديده ، و ... الجواب بذكره .

وإذا كان اتفاق الجسمين يُوجب المودّة بالجوهر وبالمزاج الخاص ، كم بالحري أن يوجبها اتفاق النفسين إذا كان بينهما مناسبة وشاكلة .

* * *

وأما الأسباب العرضية فهي كثيرة ، وبعضها أقوى من بعض .

فأحد أسباب مودة العرضية العادة والإلف .

والثاني الأمر النافع أو المظنونُ به النفع .

والثالث اللذة ، والرابع الأمل ، والخامس الصنعات والأعراض ، و... المذهب والآراء ، والسابع العصبيات .

ثم يكون بكثرة أحد هذه الأسباب وقصره عنه طول المودات وقصرها .

ومثال نافع مودات الأسرى أو الخدم ورؤسائهم ، وأصحاب ... والتجارات ، وطلاب الأرباح والمكاسب .

ومثال اللذيذ مودة الرجل والمرأة ، على أن هناك أيضاً مودة النافع ، ومودة الأمل ، فهو لذلك قوى وثيق ، ومودة المتعشقين والمتعاشرين على المأكول والمشروب والركوب ، وما أشبه ذلك .

[٦٧ - ب] وأما مثال الرجاء والأمل فكثير ، ولعل مودة الوالدين للولد فيها / شيء من هذا الضرب ؛ لأنه متى زال الأمل ، وقوي اليأس أيضاً من الولد ، زالت المودة ، وحدث البغض .

فأما مودة الولد فالطبع لا غير ، ثم يصير مع ذلك أيضاً إلفاً .

ولست أقول إن الأسباب كلها فى مودة الوالدين ما ذكرته ؛ فإن هناك أسبابا أخر طبيعية ، ولكن فيها شيء كثير من هذا المعنى .

ومثال الصداقات والأغراض كثير ظاهر لا يحتاج إلى ذكره مع ظهوره

ومثال التحاب والتصحيب كذلك أيضا فى البين والظهور

***

وهذه الأقسام محصورة تحت قُوَى النَّفس الشهوية والغضبية والناطقة

فما كان منها عن نسبة ومشاكلة بين النفس الغاذية والشهوية كان منه أسباب المودة للذيذ أو النافع .

وما كان منها بسبب مُشَاكَلَةٍ بين النَّفْس الغضبية كان منه أسباب المودة الغلبة كالاجتماع للصيد والحرب ، وسائر العصبيات التى تكون فيها قوة نفس

وما كان منها عن نسبة ومشاكلة فى النَّفْس الناطقة كان منه المودة التى للعلم والآراء .

وهذه تتركب وتنفرد ، فكلما تركبت ، وكثرت الأسباب قويت المودة ، وكلما انفردت ضعفت المودة ، ويكون زمان التمكث بحسب ذلك أيضا .

وأقوى الأسباب المفردة العرضية ما كان عن النفس الناطقة ، ويتلوه ما كان عن النفس الغضبية .

وأنت تستقرى ذلك وتتبينه لئلا يطول الجواب فيخرج عن الشرط الأول من تحرى الإيجاز .

وجميعها يزول بزوال أسبابها ، وليس منها شيء ثابت لا يزول / إلا الجوهرى [١٠-٦٨] الذاتى إمّا نفساً وإمّا طبيعة

(٥٠)

مسألة

ما العلم؟ وما حده وطبيعته؟

قد رأيت أصحابنا يتفاوضون الكلام فيه، حتى قال قوم: هو معرفة الشيء على ما هو به.

وقال آخرون: هو اعتقاد الشيء على ما هو به[1].

وقال آخرون: هو إثبات الشيء على ما هو به.

فقيل لصاحب القول الأول: لو كان حد العلم معرفة الشيء على ما هو به لكان حدّ المعرفة علم الشيء على ما هو به، واحتجنا إلى حد المعرفة كما احتجنا إلى حد العلم.

وهذا جواب فيه سهو وإيهام.

وقيل لصاحب القول الثاني: إن كان حدّ العلم اعتقاد الشيء على ما هو به فبيّن أن كون الشيء على ما هو به سابق للاعتقاد، ثم اعتقدتَ، والاعتقاد دون كون الشيء على ما هو به؛ فإنّ ما هو به هو المبحوث عنه، ومن أجله المنازعة، وفيه الاعتبار.

(١) من هذا في سوق ... في كتاب التمهيد ص ٣٤ «فإن قال قائل: ما حد العلم عندكم؟ قيل له: حده أنه معرفة المعلوم على ما هو به. والدليل على ذلك أن هذا الحد يحصره على معناه، ولا يدخل فيه ما ليس منه، ولا يخرج منه شيئا هو منه. والحد إذا أحاط على هذه السبيل وجب أن يكون حدا تاماً صحيحاً؛ فكل ما حد به العلم وغيره، وكان حاصراً للمحدود، ومميزاً له من غيره، والحد به على حال ما حددنا به العلم — وجب القطع بصحته. وقد ثبت أن كل علم تعلق بمعلوم فهو معرفة له؛ وكل معرفة لمعلوم فهي علم به، فوجب توثيق الحد الذي حددنا به العلم وجعلناه تفسيراً لمعنى وصفه بأنه علم.

فإن قال قائل: فلم رغبتم عن القول بأنه معرفة الشيء على ما هو به إلى القول بأنه معرفة المعلوم على ما هو به؟ قيل: لما قدمنا من الدليل على أن المعلوم يكون شيئا وما ليس بشيء، وأن المعدوم معلوم وليس بشيء ولا موجود؛ فلو قلنا حده أنه معرفة الشيء على ما هو به لخرج العلم بما ليس بشيء من المعلومات المعدومات عن أن يكون علماً، وذلك فاسد، فوجب صحة ما قلناه».

فقال المجيب مواصلا لكلامه الأول :

هو اعتقاد الشيء على ما هو به مع سكون النفس ، وثلج الصدر

فقيل له : إن الاعتقاد افتعال من العقد ، يقال : عقد واعتقد ، والكلام ... ، والتاء عرض يعرض لتيس من نوس الكلمة ؛ فإذن هو عقد مضاف إلى العاقد الذي له عقد ، والمعتقد الذي له اعتقاد ، والمسألة لم تقع عن عمل ، وإنما وقعت عن العلم الذي له قوام بنفسه ، وحصص من العالم ، ألا ترى أن له اتصالا به ، فهب أنك تحده باعتقاد الإنسان الشيء ما دام متصلا به ، فما حقيقته من قبل [٦٨-ب] أن يتصل به ؟

وهذا جواب المعتزلة ، وهم أهل التشقيق والتطبيق ، والدعوى ، والإغراب[1] ، والعصبية والتشنيع .

وقيل لصاحب هذا الجواب . لو كان العلم اعتقاد الشيء على ما هو به لكان الله معتقداً للشيء على ما هو به ؛ لأنه عالم .

فقال : إن الله — تعالى ذكره — لا علم له ؛ لأنه عالم بذاته ، كما هو قادر بذاته حي بذاته .

فقيل له . إنك لم تنتفع في هذه الحاشية فلا تتواز عن السهم ، إن كان حد العلم اعتقاد الشيء على ما هو به فحد العالم أنه معتقد للشيء على ما هو به . ... النظر : هل له علم أم ليس له علم ؟ فدع هكذا وهكذا .

وقيل لصاحب القول الثالث : إثبات الشيء عبارة مقصورة على إضافة فعل إلى فاعل ، والفعل هو الإثبات ، والفاعل هو المثبت ، وباب العلم ، والجهل ، والفطنة ، والعقل ، والنهى ، والدرك ... ليس من الأفعال المحضة ، وإن كانت

(١) الإعراب : البيان والفصاحة .

مُصَارعةً ها كمصارعة طال ، ومات ، ووش ، وشاح ، واسْتَقَر ، وباخ[1] .

وهذا البحث متوجه إلى صاحب القول الرابع ، أعنى فى قوله : حد العلم إدراك الشىء على ما هو به .

ويبقى أن نعلم أن الغرض فى حدّ الشىء هو تحصيلُ ذاته مُعَرّاةً من كل شائبة ، خالصة من كل مشْبِهة ، مقصور عليها ، وعبارة مصوغة له ، وما دامت عين الشىء ثابتة فى النفس ، ماثلة بين يدى العقل فلا بد للمتحدد من أن يلحق منه الحقيقة ، أو يُبدِيَ أخص الحصة .

الجـــــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله :

[٦٩-١] أما الأجوبة المحكية ، والاعتراضات عليها ، فأنا مُعْرِضٌ عن جميعها ؛ إذ كان هؤلاء القوم الذين حكى عنهم ما حكى لا يعرفون صناعة التحديد ، وهى صناعة صعبة تحتاج إلى علم واسع بالمنطق ، ودربة — مع ذلك — كثيرة .

وغاية ما عند هؤلاء القوم فى التحديد إبدال اسم مكان اسم ، بل ربما كان اسمُ الشىء أوضحَ من الحدّ الذى يصنعونه له .

وهذه سبيلهم فى جميع ما يتكلفونه إلا ما كان مأخوذاً من المتقدمين ، ومنقولا عنهم نقلا صحيحاً كحدّ الجسم والعرض وما أشبههما . فأما ما تكلفوه من الحدود فهو بالهذيان أشبه .

وأقول : إن الحدّ مأخوذ من جنس الشىء المحدود القريب منه ، وفُصُوله الذاتية المُقَوِّمَةِ له ، المميزة إياه عن غيره .

فكل ما لم يوجد له جنسٌ ، ولا فصولٌ مقوِّمةٌ فإنما يرسم .

---

(١) فى اللسان : « باخت النار والحرب تبوخ بوخا وبؤوخا : سكنت وفترت ، وكذلك الحر والغضب والحمى » .

والرسم يكون من الخواصّ اللازمة التى هى أشبه بالفصول الذاتيــة ، فلذلك ما نحدُّ العلمَ بأنه إدراكُ صُور الموجودات بما هى موجودات .

ولما كانت الصور على ضربين : منها فى هيولى ومادة ، ومنها مجردة خالية من المواد — صار إدْرَاكُ النَّفس أيضاً على ضربين :

أحدهما بالحواس وهو إدراكها لما كان فى مادة .

والآخر بغير الحواس ، بل بالعين الباطنة الروحانية التى تقدم الــكلام فيها فى بعض المسائل المتقدمة .

فاسم العلم خاص بإدراك الصور التى فى غير مادة .

واسم المعرفة خاصّ بإدراك الصّور ذوات المواد .

ثم يستعمل هذا مكان هذا للاتساع فى اللغة .

***

ووجدتك قد اعترضت على أجوبة من لم ترض جوابه باعتراضات يجوز أن تظن أنها لازمة لجوابنا هذا ؛ فلذلك احتجت إلى الــكلام عليها ، فأقول : [٦٩ ب]

إنّ من شأن الحدّ أن ينعكس على المحدود ، وذلك أن الاسم والحدّ جميعاً دالان على شىء واحد ، لا فرق بينهما إلا فى أن الاسم يدل دلالة مجملــة ، والحدّ يدل دلالة مفصلــة ، مثال ذلك أن تقول فى حدّ الجسم : إنه الطويل العريض العميق ، أو تقول : هو ذو الأبعاد الثلاثة ، ثم تعكسُ ذلك : إنّ الطويل العريض العميق هو الجسم ، أو ذو الأبعاد الثلاثة هو الجسم .

وكذلك تقول فى سائر الحدود الصحيحة ؛ ولهــذا تقول فى العلم : إنه إدراك صور الموجودات ، وتقول أيضاً : إدراك صــور الموجودات هو العلم ، فلا يكون بينهما فرق إلا أن العلم يَدلُّ دلالةَ إجمال ، وحدُّه يدلّ دلالة تفصيل على ماقدمنا ذكره وبيانه .

وإذا بان أنّ العلم إدراك وتصوُّر فقد بان أنهما اتصال ، لأنّ الصُّور إنما تكون

موجودة : إما مجردةً عقلية ، وإما مادّية حسّية ، وإذا أدركتْها النفسُ فإنها تنقلها في ذاتها فلا تتصعّ تلك الصُّوَر فيها ، وإذا اطلعت فيها تصوَّرت بها وهذا مستمر في المحسوس والمعقول .

وإذا بان هذا ، فقد بان أنه من باب المضاف ؛ لأنّ الإدراك أثر تعلق بالمنفعِل من الفاعل ، وكذلك التصوُّر .

والأشياء التي من باب المضاف لا سبيل إلى وجودها منفردة ، ولا إلى تحصيل ذواتها مفرَدة من كل شائبـه كما ظنت حَصْمتُكَ به ؛ لأنها لا عين لها ثابتة في النفس ماثلة بين يدي[(١)] النفس إلا من حيث هي مضافة ؛ فالمعلومُ إذن يتقدم له تقدُّمٌ ذاتي ، وكذلك المحسوسُ يتقدم الحسَّ بالذات .

والفرق بين التقدُّم الذاتي ، والتقدم العرضي والزماني بيّن في غير هذا [١٠٧٠] الموضع وإن كانا معًا بالزمان ، ثم تنتزع النفسُ صُوَرَها وتستثبتها في ذاتها فأما ما أرسمْتُه في حضرتك في الله — تعالى عن صفات المحدثين — فقد عرفت بما تقدم من المسائل أنّا لا نقول فيه — تقدّس ذكره — إنه عالم بالعلم التي نقوله في العلم فينا ، ولا نُطلِق شيئًا من صفاته بالمعنى التي نطلقها في غيره من الوجوه ، وإنما نتبع الشريعة ، ونستنُّ ما تأمرُ به ، ونسمّيه بما تحب[(٢)] الأسماء ، ونصفهُ بأعظم الصفات التي نعرفها نحن معشر البشر ؛ لأنه لا سبيل لنا إلى غير ما نعرفه فيما بيننا ، ولا طريق لنا إلا ما يستحقه — عز وجل — في ذاته ؛ لأننا لا نعلم بالحقيقة منه شيئًا إلا الإنّيّة المحض ، حسب .

ثم جميع ما يشير إليه عقل أو حس فهو مخلوق له .

وإذا كان الأمر كذلك ، ووجدنا الشريعة قد رخَّصت في أسامٍ وصفات ممدوحة عظيمة بين البشر — ائتمرنا للشرع فأطلقناها من غير أن نرجع بها إلى

(١) في الأصل « بين يدو » .
(٢) في الأصل « تحد » .

الحقائق المعروفة من اللغة ، والمعانى المحصلة بها .

وهذا موضع قد أومأتُ إليه فيما سلف ، وأعلمت وجه الصعوبة فيه . والله الموفق والمعين ، ولا قوة إلا به .

(٥١)

مســـألة

لم إذا أبصر الإنسان صورة حسنة ، أو سمع نغمة رخيمة قال : والله ما رأيت مثل هذا قط ، ولا سمعت مثل هذا قط ، وقد غبر أنه سمع أطيبَ من هذا ، وأبصر أحسن من ذلك ؟ [٧٠ - ب]

الجـــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله :

أما بحسب الفهم أو مقتضى اللغة فهو غيرُ حانث ولا مخطئ ؛ لأن شيئاً لا يماثل شيئاً بالإطلاق ، ولا يقال فى شىء إنه مماثل هذا إلا بتقييد ، فيكون مثله فى جوهره ، أو كميته ، أو كيفيته ، أو غير ذلك من سائر المقولات ، وقد يماثله فى اثنين منها(١) أو أكثر ، فأما فى جميعها فمحال .

فهذا وجه صحة قول الإنسان : والله ما رأيتُ مثلَه .

فأما من جهةٍ أخرى — وهى جهة طبيعية — فذلك يعرض لأن الحسَّ سيالٌ والمحسوس سيال ، فقد استثبت صورة ، ثم زالت عنه ، وحضرت أخرى شغلته وشغلت مثلَ الأخرى . فلا يحضرُ الحس إلا ما قد أثَّر فيه دون ما قد زال ، وإنما حصلت الأولى فى الذِّكر ، وهى قوة أخرى ، وربما لم يعتمد ، أو لم يحضر الذكرُ ، فيكون قول الإنسان على حسب الحاضر ، وحضور الذكر أو غيبته .

(١) فى الأصل : « فى اثنى منها »

(٥٢)
مســـألة

ما سبب استحسان الصورة الحسنة ؟

وما هذا الوُلُوعُ الظاهرُ ، والنظرُ ، والعشق الواقعُ من القلب ، والعشقة المتيّمةُ للنفس ، والفكرُ الصادرُ المسموم ، والخيالُ الماثلُ للإنسان ؟

أهذه كلُّها من آثار الطبيعة ؟ أم هي من عوارض النفس ؟ أم هي من دواعي العقل ؟ أم من سهام الروح ؟ أم هي خاليةٌ من العلَل جاريةٌ على الهَذَر !

وهل يجوز أن يوجد مثل هــذه الأمور لعلة ، والأحوال المؤثرة على وجه [٧١ ا] العبث ، وطريق البَطَل(١) ؟ /

الجــــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

أما سبب الاستحسانِ لصورةِ الإنسانِ فكمالٌ في الأعضاء ، وتناسبٌ بين الأجزاء مقبولٌ عند النفس .

وهذا الجوابُ بحسب غرضك من المسألة التي هي متوجّهةٌ نحو الصورة الإنسانية المعشوقة دون غيرها .

وأقول : إن الطبيعة مُقْتَفِيَةٌ أفعال النَّفْس وآثارها ، فهي تعطي الهَيُولى والأشياء الهَيُولانيّةَ صُوراً بحسب قبولها ، وعلى قدر استعدادها ، وتحكي في ذلك فعلَ النَّفْس فيها — أعني في الطبيعة — ولـكنَّها هي بسيطةٌ ، فتَقْبَلُ من النفس صوراً شريفة تامة ، فإذا أرادت أن تنقش الهيولى تلك الصور أعجزت الأمور

(١) في اللسان : « بطل في حديثه بطالة وأبطل : هزل ، والاسم البطل » .

الهيولانية عن قبولها تامة وافية ؛ لقلة استعدادها ، وعدمها القوة الممسكة الضابطة ما تُعطاه من الصور التامة .

وهذا العجز في الهيولى ربما كان كثيراً ، وربما كان يسيراً ، وبحسب قوّتها على قبول الفتور يكون حُسْنُ موقعِ ما يحصلُ فيها من النقش ؛ فإن المادة الموافقة المستورة تقبل النقشَ تاماً صحيحاً مشاكلاً لما قبلتها الطبيعة من النقش . والمادة التي ليست بموافقةٍ تكون على الضدّ . والمثالُ في ذلك أن الطبيعة إنما تعمل من مادةٍ عندَ تَجْبيلِ(١) الناسِ في الزَّجِّ الفَطَسَ(٢) في الأنفِ ، والزُّرقة في العينين ، والصُّهُوبةَ في الشَّعْر(٣) ، وبحسب قبولِ الهيولى الموضوعة لها ، لا أنها تقصد الصورَ الناقصةَ ، بل تقصد — أبداً — الأفضلَ ، ولكنَّ المادة الرطبة تأبى إلا قبولَ ما يلائمها ، وذلك / أن الدَّعَجَ في العين(٤) ، والشَّمَمَ في الأنفِ(٥) صورٌ تحتاج [٧١-ب] إلى اعتدال المادة بين الرطوبة السيالة ، واليبوسة الصلبة ، ولا يمكنُ إصدارها في المادة الرطبة ، كما لا يمكنُ صياغة خاتم من شمع ذائب .

وربما كانت المادةُ حاجزةً من طريق الكمّيةِ دون الكيفيةِ فلا تتم الخِلْقةُ على تفصيل الهيئات . وكذلك الحالُ في شعر الرأس ، وأهداب العين والحاجب ، فإنها لا تنتقشُ على ما ينبغي إذا كانت ناقصةَ المادةِ ، أو غير ممتنةٍ في الكميات فتعملُ الطبيعة منها ما يمكنُ ويتأتّى ، فتجيء الصورةُ غير مقبولةٍ عند النفس ؛ لأنها لا تطابقُ ما عندها من الكمال . فأما وأنت تتأمّل ذلك من صنعة الخاتم

---

(١) في اللسان : « جبل الله الخلق يجبلهم : خلقهم » .

(٢) في اللسان : « الفطس : انخفاض قصبة الأنف وانفراشها » .

(٣) في اللسان : « الصهوبة : أن يعلو الشعر حمرة ، وأصوله سود ، فإذا دهن خيل إليك أنه أسود » .

(٤) الدعج : شدة سواد العين .

(٥) في اللسان : « الشمم في الأنف : ارتفاع القصبة وحسنها ، واستواء أعلاها ، وانتصاب الأرنبة » .

فإنه إذا كان ناقص الكمية عن مقدار الحجم، أو يابساً، أو رطباً أو خشناً
نقصت صورة الحجم، ونقص النقش على الرسم والشكل.

وأما المثال في المادة الموافقة فهو بالضد من هذا المثال: فذلك تقبل ما تعطيه
الطبيعة على التمام، وتنتقش نقشاً صحيحاً مناسباً مشاكلاً لما في النفس، فإذ
رأتها النفس سُرّت، لأنها موافقة لما عندها مطابقة لما أعطتها الطبيعة.

فكما أن الصناعة تحاكي الطبيعة، فإن صنعة الصانع إذا لاقى مادة موافقة
قبلت منه الصورة الطبيعية صحيحة فرح الصانع، وسُرّ وعجب
وافتخر بصدق أثره، وخروج ما في قوته إلى الفعل موافقاً لما في نفسه، ولما عند
[١٠٧٢] الطبيعة — فكذلك حال الطبيعة مع النفس؛ لأن نسبة الصناعة إلى الطبيعة
في اقتفائها إياها كنسبة الطبيعة إلى النفس في اقتفائها إياها.

ثم إن من شأن النفس إذا رأت صورة حسنة متناسبة الأعضاء في الهيئة
والمقادير والألوان وسائر الأحوال، مقبولة عندها، موافقة لما أعطتها الطبيعة
— اشتاقت إلى الاتحاد بها، ونزعتها من المادة، واستثبتتها في ذاتها،
وصيرتها إياها، كما تفعل في المعقولات.

وهذا الفعل هو لذاتها، له تتحرك، وإليه تشتاق، وبه تسكن، إلا أنها
تشرف بالمعقولات، ولا تشرف بالمحسوسات.

فإذا فعلت النفس ذلك، واشتاقت إلى المحسوسات والأجسام الطبيعية —
رامت الطبيعة في الأجساد من الاتحاد ما رامته النفس في الصور المجردة، فلا
يكون ذلك ممكناً فيه؛ لأن الجسد لا يتصل بالجسد على سبيل الاتحاد، بل على
طريق المماسة، فتحصل حينئذ على الشوق إلى المماثلة التي هي اتحاد جسماني
بحسب استطاعتها.

وهذا من النفس غلط كبير، وخطأ عظيم، لأنها تتمكن من الحال الأشرف

إلى الحال الأدون، وتتصور بصور طبيعية منها تحدث، ومنها انقدت،

سوقها الصور الشريفة العقلية التي ترقى بها إلى مرتبة النفس، والسعادة العظمى.

وهذا الذي ذكرته هو الأمر الذاتي للسكون الجاري على وتيرة طبيعية تحصرها صناعة، وتضبطها القوانين.

فأما الاستحسان العرضي والجزئي — أعني ما يستحسنه شخص ما حسب مزاج ما — فهو يتبع الأحوال [illegible]، وسببه يتميز شخصي، والأمور الشخصية مهملة فلذلك لا تنحصر تحت صناعة، ولا تضبط [illegible]. [٧٢-ب]

والذي ينبغي أن نعلمه أن كل مزاج متشخص لا بد أن يكون له[1] نسبات غير محصورة خاصة به[2]، ويخرجه مزاج [illegible] هو منه في الطرف الآخر من الاعتدال حتى يستقبح هذا ما يستحسن هذا، وبالعكس. وكذلك ما يجده في المذاقات والاستمرارات، وهو موجود في استعداد المأكول والمشروب. فإن أمزجة بعيدة من الاعتدال تستحسن طعوماً غريبة، وتستطيب منها طرائف [illegible]. ولاستقراء ذلك يفيدك كل عجيبة وطريفة من هذا النحو في الروائح والسمع وسائر الحواس.

(٥٣)

مسألة

لم صار الخصي[3] المتمكن، والنفس المنزعجة [illegible] بعنق[4] [illegible] حتى يسمع شعراً مشعوراً، وحديثاً مزخرفاً[5]، وقد [illegible] شأنه،

---

(١) في الأصل [illegible].
(٢) في الأصل [illegible].
(٣) [illegible]
(٤) العنق [illegible]
(٥) مزخوف [illegible]

وانتصر لنفسه، وتعقّب غاية منافعه عاد كسراب بقيعة[١]، لا يُغني ولا يُجزئ،
حتى يتصفح عند من كان يثني الخنصر عليه بنُكْره[٢] ودهائه، ويشير
إلى صوابِ رأيه؟

ما الذي أصابه ودرن به؟

وما الذي بدّله وتحيّفَ عليه[٣]؟

وما هذا الأمر الذي وسمه بما وسمه، وأدّاه إلى ما أدّاه؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

سبب ذلك شيئان:

أحدهما محبة الإنسان[٤] ذاته، وتخوفه على نفسه من خطأ يُكتسبُ له،
أو غلط يقع منه، فتعرض له الدهشة والحيرة.

[١٠٧٣] والآخر ميله إلى الهوى، والهوى عدوُّ العقلِ، والحظُّ — أبداً — مع
الهوى، فإذا حضر الهوى غاب العقلُ، وحيث يغيب العقل يغيب الخيرُ كله.
فالإنسان — أبداً — أسير في يد الهوى، والهوى يُريه ما يقبح جميلا،
والخطأ صوابا.

ولإحساس الرجل المميِّز الحاصل بذلك من نفسه لا يأمنُ أن يكون

---

(١) السراب: ما يرى نصف النهار في اشتداد الحر، كأنه في المفاوز يلتصق بالأرض،
وسمي السراب سرابا لأنه يسرب أي يجري كالماء. والقيعة: جمع القاع؛ مثل جيرة وجار،
والقاع: ما انبسط من الأرض واتسع ولم يكن فيه نبت؛ وفيه يكون السراب.
(٢) النكر: الدهاء والفطنة.
(٣) أي ما الذي حطه ونقصه.
(٤) في الأصل «وأحدها حب الإنسان».

رأيه لنفسه من قبيلِ ما يُزيّنه الهوى دونَ العقل ، فيضطرب فكره ، ولا يصحّ رأيه لنفسه .

فأما إذا رأى لغيره فهو سليم من الخلّتين جميعاً ، فلذلك يأتي بالرأي الصحيح السليم كالقِدْحِ لغيره (1) .

وربما كان له هوى في غيره أيضاً ، فيعرض له من الخطإ مثلُ ما عرض له في نفسه .

وهذا يدلّك على صحة ما ذكرناه من السبب في خطئه على نفسه ، وسداده في أمر غيره .

وإذا احترز العاقل بنفسه أيضاً ، وتجنّب الهوى — صحّ رأيُه لنفسه ، ولم يخطئ إلا بمقدار ما يخفى عليه فيه من محبة نفسه ، واشتداد الهوى في بعض [illegible] المتعلقة بالرأي الصحيح ، فربما [illegible] غلطاً يُعذر فيه ، و [illegible] [illegible] .

(٥٤)

مسألة

لِمَ يشمئزّ الإنسان من حديثٍ قد تقدّم فيه (2) حتى إنه ليقشعرّ من الخطر بباله ، وإن [illegible] ، ويتمثّل خيالُ ذلك على نفسه ، و [illegible] ، وكلما اشتدّ نفوره منه [illegible] وولوعه به ؟

---

(1) في الهامش « [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ... على مقدار [illegible] ... [illegible] ... [illegible] [illegible] » .

(2) في الهامش « [illegible] » .

ما هذا أيضاً وفيه باب آخر في خلق المحبّ مع تقدمه ؟ وفي مسألة

[٧٣ - ب] المزاح يُشير ذلك بسببه نظر ، ويبدو علاجٌ ، وسببه حدثٌ آخر

من التفريج ... هو ... وبه(١) وعادته وطول مدة ... وملاحظته ؟ ثم سكونه

وحاجته وغيابه وعقبته ؟

فإن كان الضراوة والعادة ... في ... واحدة ؟

وإن كان جزؤه فكيف ... وحدها نفسه محدودة ؟

وهل يستوي الإنسان ... في صنعه ولا في ... ثم

ذلك عليه ، ويكون كل ولد فيه ، ولد به ؟

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله

قد تبين في المباحث الفلسفية أن النفسَ بالحقيقة واحدةٌ ، وإنما تكثرت

بالأشخاص ، وإذا كان ذلك كذلك فالإنسان إذا رأى غيره أصابه عارض

الطبيعة من حرج ، أو تعرّض في الحلق ، أو من نقص في الصورة تغيّر

له من ذلك ما يعرض له في ذاته ، وكأنه ينظر إلى نفسه وجسمه ؛ لأن النفس

هناك هي بعينها النفس هنا ، فتحق ما يعرض هذا العرض

فأما ولوعه به ، وحصوله في ذكره أبداً ، فلذلك لأجل أن النفس إذا قبلت

صورة نزعتها من مادتها ، واستثبتت في ذاتها ، وقيدت عليها قوةَ الذكر

وليس تجري النفس مجرى المرآة التي إذا قابلها الشيء قبلتْ صورتَه ما دام ذلك

الشيء مقابلاً لها ، فإذا زال زالتْ صورته عنها ، ولا كناظر العين في قبول الصور

[٧٤ - ا] أيضاً ؛ وذلك أن هذه أجسامٌ طبيعية تقبل صورةَ الأجسام قبولاً عرضيّاً ...

---

(١) في اللسان : « ضري الكلب بالصيد ضراوة ، أي تعوّد »

[illegible] نقش الصور [illegible] أشرف وأعلى ، ثم تشبثت بتلك الصورة وإن
[illegible] عن محاذاة العين .

وقد مر في هذه المسائل طرف من هذا المعنى ، وبيّنّا هناك كيف تقتني
من نفوسها الحقيقية صورة شيء [illegible] ، وكيف تبقى بعد ذلك هذه الصورة
[illegible] الذكرية حتى تراك [illegible] ويقظة [illegible] صور [illegible]
[illegible] حتى [illegible] كانوا غائبين أو منقرضين .

فهذا ذلك ، وكيف [illegible] الكلام فيه موجود في مكانه .

وأما [illegible] ما سألت عنه ، [illegible] ، وإن كان ذلك لأجل
صورة ، وإن ذلك [illegible] له . وقد [illegible] من تقدم أن الصورة
[illegible] على النفس [illegible] كالجوهري لها ، [illegible] ولولا هذه
[illegible] الأحداث ، ولا [illegible] العادات الجميلة
والأفعال [illegible] ودامت [illegible] سواء كانت حسنة أو قبيحة . وإذا
مرّن الإنسان عليها صارت ملكة له وقنية ، [illegible] .

(٥٥)

مسألة

ما العلة في حب العاجلة ؟ ألا ترى الله — تعالى — يقول : « كلا بل
تحبون العاجلة[1] » ، والشاعر يقول :

* والنفس مولعة بحب العاجل *

ومن أجل هذا المعنى ثارت الفتن واستحالت الأحوال وحارت العقول ،

---

(١) سورة القيامة ٢٠

[٧٤-ب] واحتيج إلى الأنبياء، والسياسة، / والمقابيع(١)، والمواعظ، فإذا كان حب العاجلة طباعاً، ومبذوراً في الطينة، ومصوغاً في الصيغة، فكيف يُستطاع مُزايلته(٢)؟

وكيف يرِدُ التكليفُ بخلاف ما في الطبيعة؟

أليست الشريعة مقوية للطبيعة؟

أليس الدين قوام السياسة؟

أليس الدين قضية عقل؟

أليس المعاد نظير المعاش؟

فكيف الكلام في هذا الشق؟

وكيف [illegible] على من [illegible]، وقصرت همته، كما سبق ذكر [illegible]، [illegible]، أو [illegible]؟

[illegible] في [illegible]، [illegible]

[illegible] في [illegible].

[illegible]

وتحديد عنه(٣).

[illegible]

(١) [illegible]

(٢) في [illegible]

(٣) في الأصل: [illegible]

الجــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

العاجلةُ إنما يُومَأُ بها إلى الحواس وتوابعها من اللذات في المأكل والمشارب، والمسموعات، والأمور الحاضرة. والتي تختص بهذه الأشياء من النفوس هي النفس البهيمية.

ثم ينبغي أن تعلم أن هذه النفس هي أقدم من أول النشوء، ومع الولادة، وأقواها إذ قوتها مع الزمان الممتد الطويل، فلذلك كانت قوتها أظهر، ومنازعتها أشد، وسلطانها أحكم.

وإنما تظهر النفس الناطقة بقوة العقل من بعد، فيظهر أثرها قليلاً قليلاً في وقت الذكاء والاحتلام، ونبت الأسنان، فحينئذ تحتاج لتلك [٧٥-١] مقاومة تلك النفس، والاستعداد لها، وكسر حدتها، وتليين قوتها المكتسبة، وتصير مستولية بحسب قوتها، واستيلائها عليها، وإلفها(١) لها، وتحتاج إلى تقوية النفس الناطقة بامتثال أمرها، وتصديرها، والتنفيذ لرأيها؛ فمن هذا صعب عليك قبول أمرها، وسهل قبول أمر تلك.

* * *

وأما قولك: كيف يرد الحكيم خلاف ما في الطبيعة؟ فإنا نقول:

إن طبيعة النفس البهيمية الانقياد للنفس الناطقة، والوقوف عند أمرها.

ولولا أن ذلك في جبلتها وسوسها(٢)، وهو قول الأديب، وأن تصير لها خاصة بها بحسب ما يأمرها به العقل — لكان — لعمري — تكليفاً

---

(١) في الأصل: «وألقاها»

(٢) في اللسان: «السوس: الطبع والخلق والسجية»

بخلاف ما في الطبع ، ولكنّ أحدًا لا يرَوم بعض هذه القوة [illegible]
من نقل [illegible] الأفعال على ما يرسمه العقل ، وهي موضوعة على قبول [illegible]
الأدب كما قلنا .

وليس يجري هذا المجرى ما ضُرب به المثل من الطول والقصر وغيرهما
لأن هذا شيء لا تأثير فيه للأدب ، وإنما هو [illegible] هيولى من الطبع
بحسب موضوعه ، ولا يمكن خلافه بوجه ولا بسبب .

وسبيل [illegible] التي في مُدّة [illegible] من حركة متمادة [illegible]
[illegible] الذي هو حركة [illegible] فيحدث [illegible] حسب [illegible] ، و [illegible]
[illegible] ، [illegible] ولا يمكن أن تكون إلا على ما يظهر [illegible]

[٧٥ ب] فقد بان الفرق بين هذين [illegible] ، [illegible]
في حبّ العاجلة ، وحُسْن ما [illegible] والآداب
وحرج [illegible] في [illegible]

(٥٦)

مسألة

[illegible] في [illegible] الإنسان [illegible] ، [illegible]
[illegible] ، [illegible] على [illegible] ، [illegible]
وعاشق [illegible] ، [illegible] في [illegible][1]

وما الذي [illegible] ؟ [illegible] يقصد وينوي ؟
وما الذي [illegible] ، [illegible] ، [illegible] على روح [illegible] ،
ونفس معشوقة ، وحياة عزيزة ؟

---

(١) في [illegible] ، [illegible] ، [illegible] فهو [illegible]
[illegible] فيه .

وما الذي يخلص إلى وجهه من العدم حتى يسلبه من قبضة الوجدان، ويسلمه إلى صرف الحدثان؟

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله —

الإنسان مركب من ثلاث قوى نفسانية، وهو كالواقف بينها تجذبه[1] هذه مرة، وهذه مرة، وبحسب قوة إحداها على الأخرى، يميل معها، فربما غلبت عليه القوة الغضبية، فإذا انصبغ بها، ومال معها إليها ظهرت قوته كأنها كلها غضب، وخفيت القوى الأخرى حتى كأنها لا توجد له، وكذلك إذا هاجت به قوة الشهوانية خفيت آثار القوى الأخر.

وأنصف ما يكون الإنسان، وأحسنه حالا إذا غلبت عليه القوة الناطقة، فإن هذه القوة هي الأميرة العاقلة التي ترتب القوى الأخرى حتى تظهر أفعالها بحسب ما تحده وترسمه.

والإنسان حينئذ نازل بالمنزلة الكريمة حيث هيأه الله تعالى، وكما أراده.

فإذا كان الأمر كذلك فغير منكر أن تهيج بالإنسان بعض تلك [١٠٧٩] القوى منه عند التواء أمر عليه، أو انسداد باب دون مطلب له، فيظهر منه فعل لا تمسكه روية، ولا تقتضيه تمييز؛ لخفاء أثر القوة الناطقة، واستيلاء القوى الأخرى.

وأنت تجد ذلك عيانا عند الأحوال المختصة بك، فإنك تجد نفسك في أوقات الأحوال مؤثرة لها، قاصدة إليها، غير مصممة إلى نصيحة، ولا قابلة أمر سديد، حتى إذا أفقت من تلك السكرة التي غلبت عليك في تلك الحال — تحمّلت

---

[1] في الأصل «يجذب».

من الأفعال التي ظهرت منك ، وأنكرتَ نفسَك فيها ، وكأنَّ غيرَك كان ا
آثرَها ، وقصد إليها ، فلا تزالُ كذلك حتى تَهيجَ بك تلك القوّةُ الأولى
أخرى ، فلا يمنعُك ما جرّبتَهُ من نفسِك ، ووعظتَ به — أن تقع في
وسببُ ذلك التركيبُ من القوى المختلفةِ المتباينة وليس يمكنُ الإ
يختصَّ بقوّةٍ واحدةٍ ، وتنقاد نفسُه الباقية حسبَ التي هي أفضلُ و
إلا بعد معالجة شديدة ، وتقويم كثير ، وإدمانٍ طويل ؛ فإنّ العادة إذا استم
والعزيمة إذا أُمضيت في زمان متصل طويل — حصلَ منه خلق ، فكان
به ، وصار هو الغالبَ ؛ ولذلك نأمر الأحداث بالسيرة الجميلة ، ونؤاخذُهم بالآ
التي تسنُّها الشرائع ، وتأمر بها الحكمة .

واستقصاء هذا الكلام ، وذكر علله لا تقتضيه المسألة ، ولا يفي به ا
وإن شكَّ فيها شاكٌّ ، وظنَّ أنَّ الإنسان المركَّب من القوى الثلاثة
[٧٦-ب] أن يكون لازماً لأمرٍ واحد / متحرّك من تلك القوى كما نجدُ الحالَ في
المصنوعات والمركّبات من الطبيعة ، فلعمري إنّ مثله ليس بصحيح : لأ
الإنسانِ نفسية ، [لها] من ذاتها حركات تزيد[1] وتنقص ، وأحوال — أيضاً
تهيجها . وليست كذلك قوى الطبيعيات ، فليتمّم النظر في ذلك تجده كما
إليه وذكرناه .

(٥٧)

مسألة

سألتُ بعضَ مشايخ مدينة السلام عن رجل اجتاز بطرف الجسر ، وقد
اكتنفه الجلاوزة[2] يسوقونه إلى الحبس ، فأبصر موسى ومبضعًا في طرف

(١) في الأصل « .. نفسانية من ذاتها حركات وتزيد »
(٢) الجلاوزة : جمع جلواز ، وهو الشرطي .

مريب ، فاختطفها كالبرق ، وأمرَّها على حُلقومه ، فإذا هو يخور في دمائه ، قد [illegible] في الروح وودَّع الحياة . فقلتُ : من قتل هذا الإنسان ؟

فإذا قلنا : قتل نفسه ، فالقاتل هو المقتول ، أم القاتل غير المقتول ؟ فإن كان أحدُهما غير الآخر ، فكيف تواصلا مع هذا الانفصال ؟

وإن كان هذا ذاكَ ، فكيف تفاصلا مع هذا الاتصال ؟

وإنما شيعت المسألة الأولى بهذا السؤال لأنه [illegible] ، ووقع [illegible] .

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله

كأن هذه المسألة مبنية على أن الإنسان شيء واحد لا كثرة فيه ، [illegible] شبهةُ فيها من هذه الجهة شوى ، وقد بان أن الإنسان قوى كثيرة وهو [77 - 1] [illegible] كل منها ، وأنه يميل في وقت مع قوة ، وفي وقت آخر مع غيرها ، وأنه — أيضاً — يحسب [illegible][1] إلى إحدى القوى ، وغلبتها عليه ، كما [illegible] في [illegible] المسألة التي قبل هذه [illegible] هذا الشك .

• • •

فأما قوله : كيف تواصلا مع هذا الانفصال ؟ فنقول :

إن السبب في ذلك أن الذي تعني [illegible] هذا مركب من شيء واحد [illegible] أشياء تعيمةُ من عدد وغيره ، وأنه لا قوام لجملته إلا بمادة ، وكان لا [illegible] إلى تلك المادة إلا بحركة وسعي ، وكانت [illegible] كثيرة — [illegible] قوة يصل بها إلى حاجاته ، ويدفع بها [illegible] [illegible] به البقاء .

ومن شأن هذه القوة أن تهيج وتثور في أوقات بأكثر مما ينبغي ، وفي أوقات تقصُر عما ينبغي .

(١) في الأصل : « مثله » .

وهذان الخلقان هما رذيلتان : أما الأولى فيسمّيها التهوّر ، وأما الثانية فيسمّيها الجبن .

وللإنسان بحسب قوة التمييز والعقل أن يستعمل هذه القوة على ما ينبغي وبمقدار ما ينبغي ، وعلى الشيء الذي ينبغي . فإذا حصل في هذه الرتبة فهو شجاع وممدوح ، وكان [illegible] الله تعالى منه على [illegible] له

* * *

وقد بقي في المسألة موضع شك ، وهو أن يقول قائل : إن كان الذي قد ظهر منه هذا الفعل بحسب القوة الغضبية فهو شجاع ، والشجاع محمود ، و[illegible] نعلم أن هذا الذي ظهرت منه هذه الأفعال مذموم ، فكيف حاله ؟ وأين موضع الشجاعة الممدوحة من هذا الفعل .

[٧٧ ب] لعمري إن هذا الفعل من آثار القوة الغضبية ، ولكنه بحسب رداءة وتقصيره عما ينبغي ، لا بحسب الزيادة ، ولا بحسب الاعتدال الذي سمّي شجاعة . وذلك أن [illegible] من حيث [illegible] به من قلة أو شدة ، ولا [illegible] ذرعه به ، ولا يستقصيه بحريه قوته ، ومثله مثل [illegible] ضعيف ، فيحمله [illegible] على أن يقول . [illegible] من تحت هذه المشقة التي ترد عليه وهذا [illegible] الشكوى والضعف [illegible]

وقد ذكرنا أن قوة الغضب ربما كلّت ، ونقصت عما ينبغي ، فتكون رديئة ومنقصة ، ولا تسمى شجاعة ، ولا يكون صاحبها محموداً ولا ممدوحاً .

(٥٨)

مسألة

كيف صار [illegible] في وقت [illegible] ؟ ويتيقّن من شكّ بالريب ويستيقظ من هو راقد ، ويستصحّ من هو عاشٍ ؟

وكيف صار — أيضاً — [illegible] من [illegible] على الإخلاص ، ويرب من أنف النزاهة ؟ وعلى هذا كيف يجوز(١) من استمر على الأمانة ستين عاماً ويتحرج من عنق(٢) في الخيانة ستين عاماً

ما هذه العوارض المختلفة ، والعادات المتطرفة ؟

وكذلك نجد الكذّاب يصدق [illegible] غير [illegible] ، و [illegible] قد يكذب لغير معنًى مُحدَّد ، ثم لا يتّسق [illegible] يصدق ذلك في [illegible] ، [illegible] يكذب هذا [illegible]

الجواب

قال أبو علي مسكويه رحمه الله

هذه المسألة بعضها [illegible] من مسألتين متقدمتين ، وجوابه [illegible] من [illegible] ، وذلك أن الصدق والصحيح ، [illegible] في هذه المسألة [١-٧٨] [illegible] آثار النفس [illegible] ومن [illegible] أن هذه النفس [illegible] وصحة ، [illegible] في [illegible] فيه ، [illegible] خروجها عن الاعتدال [illegible] عن اعتدالها في وقت غير [illegible] أن تعود [illegible] في وقت [illegible] ، وكا [illegible] ، ومصححه ، [illegible] ، [illegible] الأطباء [illegible] هو واعتدالها ، [illegible] وخروجها عن الاعتدال [illegible] تصدق ثم تكذب غير [illegible] ، ولا [illegible] مضرة ، [illegible] — أن [illegible] لأمر تراه ، وربما كان ذلك [illegible] وحظ ، وأما [illegible] ذلك غير [illegible] ، وغير قصد إلى ما تراه [illegible]

---

(١) في الأصل : « وعلى هذا من خان [illegible] » .

(٢) عنق الشيء [illegible]

(٥٩)

مسألة

ما معنى قول بعض العلماء: إن الله — تعالى — عمَّ خلقه بالصُّنع ولم يعمهم بالاصطفاء؟

وما مبسوط هذا المعنى؟ وكيف وجه تحصيله؟

وهل ترك الله — تعالى — شيئاً فيه صلاحُ الخلق فلم يجُد به ابتداء من غير طلب؟

كيف يكون هذا وقد تقدّم بالنعم قبل الاستحقاق، وخلق الخلق من حاجة إلى الخلق؟

فإن قيل: أتى بالحاجة ثم منع من غير بخل، قيل: فمن سعى أن يحسبه في ظهر الحيرة تقع في النفس، ومن في غيب ما امتنع ما قد يقع، و... مجهول، وهو تدبيره على ... وعلى موجب الحكمة من غير مذاقة، ولا اعترا...

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله

أما قول من قال: إن الله — تعالى — عمّ بالصنع خلقه، ولم ... بالاصطفاء فكلام قد ذهب به مذهب البلاغة، ومعناه صحيح لولا ... الذي تحشمه صحته.

[٧٨-ب]

وهذا المعنى في قول المسيح — عليه السلام — أظهر، وذلك أنه رُوي ... ونُقل من لغته إلى لغتنا أنه قال:

«لا تهتمّوا ولا تقولوا ماذا نأكل، وما نشرب، وما نلبس، فإن هذه الحاجة قد عمّ بها جميع الخلق، وإنما يلتمسون الفضول فيها، واعلموا أن ليس كل

من دعا إلى الله يرى وجه الله ، بل من أكمل رضوانه بأعمال الصلاح » .

فهذا قول المسيح — عليه السلام — على ما نقل ورُوى

فأما تفسيرُ هذا الكلام ، وهو تبيينُ الكلام الأول الذى سألتَ عن معناه ،

« الصنع البيّنَ الظاهرَ لجميع الخلق هو إعطاؤهم الحياةَ ، ثم إراحة النفس فيما هو
« ضرورىّ فى بقائها ، وذلك أن تقومها بالحرارة الغريزيّة ، وبقاء الحرارة الغريزية
« بأن يُخرَج من معدتها الذى هى متمتعة به [illegible] الدخان الذى يحدث عن
[illegible]ة والرطوبة الذهبية ، وبتبديل الهواء [illegible] بذلك الدخان بهواء آخر
[illegible] سليم موافق لمادة تلك الحرارة ، وذلك [illegible] النفس فى شبيه بكير
[illegible] وهو [illegible] ، وآلة التنفس فى [illegible] ومقدار لهذه الحرارة
« [illegible] فى الحيوانات الأخرى التى [لا] تتنفس ، ولا حاجة بها إلى
« [illegible] الحرارة متشبهة فى مدة الرطوبة الذهبية ، ثم إراحة لها فى نفس الهواء
« هو مادة تلك الحرارة ، ثم فى رطوبة التى [illegible] فى الجسم
« [illegible] الحرارة [illegible] ...

وهذه هى الأشياء الضرورية فى [illegible] واحد [illegible]
[illegible] الحياة

وقد رُجحت [illegible] جميع الحيوان . [٧٩ ،]
[illegible] الأشياء التى [illegible] هى ضرورية فى [illegible]
[illegible] من العروق [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] لا يحتج
[illegible] قول .

* * *

ويبقى بعد ذلك متحيراً حتى تفوت دون قوت مما ليس بضروري في نفسه ،
فقد أعطي بحسب حاجته — أيضاً — قوة يطيق بها التخيّر والتوصّل
قدر حاجته

وهذا كله معلوم بحسب الحق ، غير ممنوع من شيء منه .

* * *

فأما الاصطفاء فهو القرب من الباري — جل اسمه — وليس يتم
إلا بنفي وعلمه وتدبيره وقد دل — أيضاً — تقدس اسمه إلى ذلك ،
وفي أن يتحرك بعد إلى هذه الحال ، فإنه لا حجر — أيضاً — من الاصطفاء ،
بل الباب مفتوح ، والحجاب مرفوع ، ومن أمرأ بحسب نفسه ، ويتسع
للتوبة والرحمة ، والقصد منهج والسبيل لمن دل عليه ، ورغب فيه ،
بشدة عن فضول عيشه الذي هو مستغن عنه بما هو حق ، وبالميل إلى ،
الحس التي تعوقه عن مطلبه وغايته ومسعى سعادته

وهذا بحسب موضعه كافٍ فيما سئلت عنه ، والله الموفق .

(٦٠)

مسألة

ما سر النص للشريعة في إيثار النظافة ، ومحبة الطهارة ، وسبغ
[٧٩ ب] الوضاءة(١) ؟

وعلى هذا ما وجه الخبر في قوله صلى الله عليه وسلم : «النظافة من الإيمان» ؟

وقال بعض السلف : النظيف من الشرف ، والترف من السرف .

وسمعت صوفياً يقول : سر الصوفي إذا صفا لم يحتمل الحدث .

---

(١) في اللسان : « الوضاءة : الحسن والبهجة والنصاعة »

ومصدق هذا يقتضي قيساً ، ولكن دل هذا وسكت .

وسمعت فيلسوفاً يقول : إذا صح سبر اتسق الشر .

وهذا وإن كان قولاً رشيقاً ، فإن البحث فيه مثور ، والعدول عنه مترجح .

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

ينبغي أن نتكلم أولاً في سبب الحدة والمس حتى نبين معنى كل واحد ، ثم نتطرق في شوق الإنسان عن المس ، ونتبعه بالصورة والقول .

إن العناصر الأربعة إذا لم تمتزج ضروب الامتزاجات المعتدلة لم تصر [illegible] مثلاً ، ولم يستحق ذلك ، وقد يقع شيء من بعض المزاجات

وهذا معروف في المزاجات وحدها ، فهذه الأربعة إذا اختلطت ضرباً من الاختلاط على مناسبة ما كانت معتدلة ، وحصل منها مزاج الإنسان ، وهذا له عرض ما ، فكل ما يخرج عنه فهو بحسب الصورة والمزاج ، وإن [illegible] عن هذا المزاج ، وخرج عنه — لم يكن إنساناً .

ولا بد أن يكون انحرافه وخروجه إلى واحد من هذه الأربعة أكثر ، فإن كان مائلاً إلى جهة الحرارة ، وذلك العنصر مقارنة مزاج الإنسان ، أو باقية حياً — نظرنا في مقدار خروجه إلى جهة الحرارة ، فإن كان كثيراً جداً كان للإنسان قاتلاً له ، وإن كان دون هذا كان ضاراً له بحسب خروجه عن اعتداله في الحرارة ، وهذا لا يسمى دواء ، وكذلك إن خرج في جهة اليبوسة / [٨٠-١] والبرد ، فإن هذه إن أفرطت ، وحصلت مضادة لمزاج المعتدل حتى تبطله — كانت سموماً ، وإن لم تبطل ذلك المزاج فهي تضره وتغيره عن صورته ، وسواء كان هذا الخروج عن الاعتدال الإنساني نباتاً وحيواناً فإنه يعرض فيه ما ذكرنا .

فهذه حال مفردات العناصر إذا أفرطت مع اعتدال الباقيات.

فأما إذا خرج اثنان منها عن الاعتدال، فإن خروجهما أيضاً يكون ضروب وأنحاء، إلا أن الرطوبة — خاصة — إذا أفرطت فى الزيادة، والحرارة إذا أفرطت فى الزيادة — عرض من هذا المزاج حال تسمى « عفونة »، و[illegible] عجز الحرارة عن تحليل الرطوبة فيحصل مخالفة المزاج المعتدل من هذه [illegible] فتستكرهه الإنسان، ويناله سواء أكان ذلك فى حيوان أو جماد.

وهذه العفونة والتكره على ضروب بحسب خروج المزاج المقابل له عن الاعتدال، وسأضرب لذلك مثلا، وهو أن مزاج الإنسان [illegible] كان مقارب[illegible] الفرس، وكانت بينهما مناسبة [illegible] حصل بينهما قرب من تلك الجهة، فإذا [illegible] هذا المزاج حتى يكون منه الغبار والدود والجعل[1] والذباب — [illegible] الإنسان وتكرهه، وذلك [illegible] هذه الأنواع من الحيوانات مكونة من عفونات كما وصفنا من [illegible] رطوبة، وقصور حرارة — فبعدت من مزاج الإنسان [illegible] وكذلك حال [illegible] [illegible] سقوطه على [illegible] منه [illegible] الملائمة، و[illegible] في وقته، [illegible] أولاً [illegible] [٨٥ - ب] وقت [illegible] وحصته فى وقت أخرى، وهى الأ[illegible] [illegible] من الملاءمة [illegible] [illegible] رطوبة [illegible] حرارة [illegible] عنه الإنسان ويكرهه، ويحب الراحة منه. وهذا سبيل ما يرد [illegible] من سائر الفصول [illegible] [illegible]

(١) فى [illegible] وجمعه جعلان.

مستحسناً وغير نافر من البدن ، فهو محتمل بالضرورة ، فإذا برز عقيبه — حينئذ —
[illegible] ونفرنا منه . وهذه الأشياء هي التي تسمى ذماً وقبحاً بالطبع .

وههنا أشياء أخر ينفر منها الإنسان بالعادة ، ويألفها أيضاً بالعادة ، وليس
[illegible] فيه من هذه المسألة في شيء .

* * *

فأما قول النبي — عليه السلام — « البذاذة من الإيمان »[1] ، فهو بعيد
من هذا النمط الذي كنا في ذكره ؛ فإن من كان بذ الهيئة يكره الدنس ، ويحب
[illegible] ، وليس يتحدث في شيء مما ذكرناه من معنى الطهارة ، وإن تحدث فليس
من حيث بذاذة الهيئة ، لكن كما يتحدث غيره ممن ليس بذ الهيئة .

وكذلك حال التقشف الذي حكيت فيه كلاماً عن بعض الصوفية ؛ فإن ذلك
في موضوعات أخر ليست مما كنا فيه ، والكلام فيه يتصل بمعاني العفة
[illegible] والاقتصاد ، وهي فضائل قد نستقصي الكلام فيها في مواضع أخر .

وأما قول القائل [illegible] [الصوفي][2] إذا صفا [illegible] ، وقول الآخر :
إذا [illegible] الفقير [illegible] ، فهو [illegible] إلى مراتب [illegible] من المعارف ،
[illegible] اليقين

[illegible] من حصل له مرتبة في العرفان من [illegible] ، وتعالى
[illegible] / فقد [illegible] منه [illegible] ، وما يحتمل [illegible] . [١-٨١]

شرح هذا الكلام [illegible] طويل ، وقد لاح مما ذكرناه ما فيه كفاية وبلاغ .

---

(١) في [illegible] وفي [illegible] عن النبي
[illegible] « [illegible] من الإيمان » [illegible] .

(٢) الزيادة [illegible] في السؤال .

(٦١)

مسألة

الغناء أفضل أم الضرب؟
ومعنى أفضل وأشرف أم الضرب

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه رحمه الله:

أما الموسيقى فهي علم، وقد يقترن به عمل، وصاحبه يسمى «موسيقار»

فأما عمله فهو أخذ النغم [illegible] لأجل معانٍ لا [illegible] أن يأخذ حظ [illegible]

وأما علمه فيبين من النغم، وشكله [illegible] ونسب متناسبة من

أن تحرك النفس — في [illegible] موقعه، ونسبة لأنه [illegible] أن يكون من بعد [illegible]

[illegible] ن النفس

فإن كانت من الحلق فهي نغم، طبيعية عدت تشكل [illegible]

فاستعملت في غيرها.

وإن كانت خارجة من نفسه فهي آلات صناعية عدت تشكل [illegible]

تأدية [illegible] والإيقاع

وإن كان الآلات الصناعية إذ هي مستعملة في غير ما عدت له [illegible]

بالضرب، وإن خرج عن شكله، فيبدل ويتغير

فإن كان غرض المتكلف ذلك فيه الوصول إلى خسائس الأمور [illegible]

كان قبيحاً مستهجناً

وإن كان غرضه منه تطهير [illegible] النفس، لتتبين النسب التي [illegible]

النفس ، وإظهار الحكمة في ذلك — كان فعلاً مستحسناً ، وإن كان لا بد فيه [illegible] الخروج عن العادة والإلف عند قوم ، سكن مرض أهل وماس من العمل [illegible] الشهوات القبيحة ، وإعانة النفس / على النفس حتى يسول [٨١ - ...] [illegible] من غير ترتيب العقل ، وترجيحه فيه

وإذا كان قصد ذلك ، لأن صنعته فهو — لا محالة — [illegible] كاملاً [illegible] له ، يؤلف منه [illegible] في [illegible] الإبداع

[illegible] كان [illegible] أعظم [illegible] معقول [illegible] ، [illegible] قد استعمل فيه جميع [illegible] وموهبته [illegible] ركب [illegible] للنفس ، وكثرت وجوهه ، وشدت [illegible] ، [illegible] على ما يقتضي [illegible] ، و[illegible] [illegible] ، لأن [illegible] وجده عن هذه الأ[illegible] وهذه [illegible] شروط [illegible] ، وبحسب [illegible] [illegible] العقل ، [illegible] الشريعة ، وجمع منه [illegible]

[illegible] كانت الآلة [illegible] من [illegible] ، [illegible] الأعضاء فيه ، [illegible] هيئة [illegible] وصنعه [illegible] ، [illegible] ، وكان [illegible] أكثر [illegible] إدراك [illegible] ، و[illegible] على تمييز [illegible] ، و[illegible] على حقائق [illegible] [illegible] لا إلى [illegible] [illegible] موضعه

[illegible] كل في هذه الأسباب من [illegible] عود ، لأن [illegible] الأربعة مركبة على [illegible] الأربع ، [illegible] [2] [illegible] موافقة [illegible] من تمييز [illegible] ، [illegible] أن توجد [illegible] في [illegible] ، وهي محاكية ومؤداة [illegible]

[illegible] ما يحكى عن الأرغن الرومي [3] [illegible] إلا [illegible] ، [illegible] إلا مصوراً ،

---

[1] [illegible]
[2] [illegible] ص ١٣٧ – ١٣٨
[3] [illegible] في [illegible] ص ١٣٦

وقد عمل فيه الكندي وغيره كلاما لم يخرج به إلى الفعل من القوة ، ولو عملت [٨٢-١] الآلة لاحتاجت من مهارة مستعملها[١] ما يتعذر وجوده ويبعد ./ وكما أن العود خرج إلى الفعل احتيج إلى ماهر بصير به ولم يكن يجدي فيه العلم دون الدربة والحذق فيه ، فكذلك هذه الآلة لو خرجت إلى الفعل ؛ فلذلك توقف عن الحكم لها بالشرف ، وقطعنا للعود .

(٦٢)

مسألة

ما علة قبول بعض الناس في العلوم على سهولة من نفسه ، وانقياد من ذهنه وسجاحة من طبعه ، وآخر لا يسلس له شيء إلا بعد كد القلب ، ودوام السهر ، ومواصلة الدرس ، وطول مدارسته ؟

وهل الأول كان من مخروج ، والثاني من المسير

وقال بعض الناس : هذه موهبة

وقال آخرون : هي قسمة .

وقال قوم : هي طبائع مختلفة ، وعروق نزاعة ، ونفوس أمارة .

وقال آخرون : بل هي مزاجات عرضية ، ومقابلات سفلية ، واقترانات فلكية[٢] .

وبعد ، فالله أعلم بخلقه وعلمه ، ليس لنا إلا النظر والاعتبار ، فإن أفضيا بنا إلى اليقين فنعمة لا يقوم بشكرها إنس ولا جان ، وإن أديا إلى اللبس فصبر لا عار فيه على الإنسان .

---

(١) في الأصل « مستعملة »
(٢) في الأصل « فلكه »

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

إن النفس وإن كانت في ذاتها كريمة شريفة فإن أفعالها تقصر بحسب آلته ، فكما أن النجار إذا فقد الفأس ، واستعمل المِثقب أو المِنشار مكانه لم يصدر فعله الذي يتم بالفأس كاملا ، ولم تحصل له صورة مَنْجور تام ، ولم يكن ذلك لتقصير منه ، بل لفقد الآلة — فكذلك حال النفس إذا نزعت إلى معرفة ، وتشوقت / نحو علم ، ثم لم تجد آلته ، وجب حينئذ تعذر الفعل الذي ضربناه مثلا ، [٨٢ - ب] وذلك أن بعض العلوم تحتاج فيه إلى تخيل قوي ، والتخيل إنما يكون باعتدال من مزاج بطن الدماغ المقدم .

وبعض العلوم يحتاج فيه إلى فكر صحيح ، والفكر الصحيح إنما يكون باعتدال من مزاج بطن الدماغ الأوسط .

وبعض العلوم يحتاج فيه إلى حفظ صحيح جيد ، والحفظ الجيد يحصل باعتدال من مزاج بطن الدماغ المؤخر .

وبعض هذه المزاجات يحتاج في اعتداله الخاص به إلى رطوبة ما ، وبعضه يحتاج فيه إلى يبوسة ما ، وكذلك الحال في الكيفيتين الأخريين .

ولما كانت هذه البطون متجاورة أدى بعضها إلى بعض كيفيته ؛ فإن رطوبة أحدها ترطب الآخر بالمجاورة وإن كان غير محتاج إلى الرطوبة في اعتداله الخاص به ، فلذلك قل من يجتمع له الفضائل الثلاث من صدق التخيل ، وصحة الفكر ، وجودة الحفظ .

وإذا غلب أحد هذه كانت معونة العلم الموافق لذلك المزاج على الإنسان بحسب ما ركب فيه ، وأعطي القدرة عليه .

ومن فقد الاعتدال فيها كلها فقد الانتفاع بالعلوم أجمعها .

وربما حصلت الفضائل في التركيب من جهة المزاج، ثم أهمل صاحبها
ثمرة السحر الذي يجد الآلة ثم لا يستعملها كسلا وميلا إلى الراحة والهوينى
وشغلا بالعبث واللعب، فهذا هو المشؤوم المضيع حظه، الذي خسر نفسه، وقال
تعالى فيه: «قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم»[1]

فأما من استعمل الآلة بحسب طاقته، وحصل نصيبه منها بحسب استطاعته، ف
[١٠٨٣] معذور، وليس يكون ذلك بتيسير ولا فقد من حصول الآلة، وهو ما يتيسر
ويقدر عليه الإنسان بعد ذلك

فأما من نسب ذلك إلى مواضع، أو قسم، أو طالع، أو تأثيرات
أو غير ذلك فهو صادق، وليس يكذب أحد في شيء مما حكيته، لأن
واحد منهم يومئ إلى جهة صحيحة، وسبب صحيح، وإن كانت جميع هذه
والأسباب مرتقية إلى سبب واحد لا سبب له، وإن عنه وفي هي عنه مبدأ
وإلى مُبدع للجميع، جل وعز عن أن يكون مثل ما ذكرناه، وتقدس اسمه، ونحن
نستمده التوفيق، ونسأله العصمة، ونستوزعه الشكر[2]، ونفوض إليه أمورنا
وهو حسبنا ومولانا، وعليه توكلنا، ونعم المولى، ونعم النصير

(٦٣)

مسألة

ما الفراسة؟ وما الذي يراد بها؟

وهل هي صحيحة، أم هي تصح في بعض الأوقات دون بعض؟ أو لشخص
دون شخص؟

---

(١) سورة الزمر ١٥.

(٢) في اللسان: «واستوزعت الله شكره فأوزعني: استلهمته فألهمني». وفي
التنزيل: (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي) ومعنى أوزعني ألهمني وأولعني به.
وتأويله في اللغة كفني عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك، وكفني عما يباعدني عنك».

الجـــواب

قال أبو على مسكويه رحمه الله :

الفراسة صناعة تستنبط الأخلاق والأفعال التي بحسب الأخلاق ، من الأمزجة والصنائع الطبيعية ، وإن كانت في النفس

وهي صناعة صحيحة ، قوية الأصول ، وثيقة المقدمات ، ويحتاج صاحبها إلى أن يتدرب في ثلاثة أصول حتى يحكمها ، ثم يحكم بها ، فإنه حينئذ لا يخطئ ولا يغلط

والأصول ثلاثة هي هذه

فأحدها ، فالعلم بالأخلاق أنفسها

والثاني ، الأمزجة وما يتبعها ويتصل بها

والثالث ، الهيئات والأشكال وما يتبع ... الأخلاق . [٨٣ - ب]

ومن شرحها على مذهب في الإيجاز ولاسيما في الشكك ، وبدلالة بعد ذلك على مطالبها

* * *

فأما قولك : ما الذي يراد بها ؟ فإن المراد من هذه الصناعة تقدمة المعرفة بأخلاق الناس وملابستهم على بصيرة .

والفراسة قد تكون في الخيل والكلاب وسائر الحيوانات التي ينتفع بها الناس ، وقد تكون في الجمادات أيضاً كفراسة السيوف والسحاب وغيرهما ، إلا أن العناية التامة إنما وقعت بفراسة الإنسان خاصة لكثرة الانتفاع به مما سنذكره بمشيئة الله .

* * *

وأما قولك : هل تصح أبداً ، أم فى وقت دون وقت ، ولشخص دون شخص ؟ فإنى أقول :

إنها تصح أبداً فى كل وقت ، ولكل أحد ، ولكن على الشريطة [illegible] ذكرناها من إحكام الأصول التى وعدنا ذكرها محققة ، والدلالة على مواضعها معقد [illegible]

وإنما قلنا إنها تصح [illegible] ، لأن مقوماتها ودلائلها ثابتة غير منتقلة ، وليست كأشكال الفلك التى تتبدل وتتغير ، من شكل الإنسان ، وهيئاته ، ومن [illegible] والحركات اللازمة له عن هذه الأشياء ثابتة باقية ما دام حيا ، فاستدل [illegible] يتصفحها فيجدها بحال واحدة .

ونعود إلى ذكر الأصول الثلاثة فنقول :

أما الاستدلال [illegible] فهو أن الحرارة التى تكون فى قلب الإنسان — وهى سبب الحياة — من شأنها إن زادت على الاعتدال أن تزيد[1] [illegible] النفس [illegible] إلى الترويح بزيادته ، وأن [illegible] التجويف الذى يكون [illegible] بالحركة الزائدة ، وأن يكون / [illegible] على قدر المعتدل بحسب [illegible] ، [٨٤ - ١] وبقدر الرطوبة [illegible] التى حولها ، فيعرض من هذه الأحوال التى ذكرتها [illegible] يكون الإنسان الذى حرارة قلبه بهذه الصفة عظيم النفس ، واسع الصدر ، [illegible] الصوت ، كثير الشعر فى نواحى الصدر والأكتاف إذا لم يمنع منه مانع ، [illegible] يعرض لمن يكون جلده مستحصفاً[2] ، ومسام جلده مسدودة أو ضيقة .

فمن وجد هذه الصفات حكم بأن الموجب لها حرارة غالبة فهو صادق ، إلا أنه لا ينبغى أن يتسرع إلى حكم آخر حتى ينظر فى الأصلين الباقيين ، ليثق كل [illegible]

---

(١) فى الأصل « إلى أن تريد » .

(٢) فى اللسان « والحصف : بثر صغار يقيح ولا يعظم ، وربما خرج فى مراق البطن أيام الحر ، وقد حصف جلده — بالكسر — يحصف حصفاً . وقال الجوهرى : الحصف الجرب اليابس » .

الثقة ، وذلك أن الحرارة يتبعها الغضب والشجاعة ، وسرعة الحركة ، ولكن على شروط ، وهى(١) أن للدماغ مشاركة فى أفعال الإنسان ، وتعديل حرارة القلب إذا كان بارداً رطباً ، فيسعى أن يفطر فيه . فإن كان صاحب هذا المزاج صغير الرأس بالإضافة إلى صدره فاحكم عليه بما قلناه .

فإن أضاف المستدل إلى هذه الدلالة دلالة الأخريين من الأصلين الدقيقين فلا أشك فى صحة حكمه ، وصدق فراسته .

وأما الاستدلال بالأصل الثانى وهو(٢) أن ... لكل مزاج ... ملائماً ، وشكلاً موافقاً ، وذلك تحقق نفسه حتى للنفس ؛ فإن الطبيعة ... — أيضاً — من كل مزاج خلقاً خاصاً ، فلذلك لا يحصل من نطفة الحمار إلا الحمار ، ومن النواة إلا النخلة ، ومن البذر إلا ...

وكذلك أيضاً — أبداً — تعمل من مزاج المخصوص بالأسد جثة الأسد ، ومن مزاج الأرنب جثة الأرنب ، وإن ذلك لتحقيق بنفسه حتى حصص [٨٤-ب] ... — بموجب الطبيعة ؛ وذلك أن الأسد لما كان مزاج قلبه حاراً ... ، ولأنه مستعد لأن يلتهب قلبه ... يسرع إليه الغضب ، ولأن مزاجه موافق لخلقه أعدت له الطبيعة ... الفرس(٣) والنهش ، وأزاحت علته فى الأعضاء التى(٤) يستعملها بحسب هذا المزاج ، وأعطته الأيد والبطش .

ولما كان مزاج الأرانب مقابلاً لهذا المزاج صار حيواناً جباناً ضعيفاً قليل المنة فأعدت الطبيعة له [آلة] الهرب ، فهو لذلك خفيف حيذ العدو ، لا يصدر عنه شىء من أفعال الشجاعة والإقدام . فكل أسد شجاع مقدام ، وكل أرنب

(١) فى الأصل « وهو »

(٢) فى الأصل « فهو »

(٣) فى اللسان : « الفرس ... الكسر . ومنه ... فريسة الأسد ... الكسر ... والأصل فى الفرس : دق العنق ، ثم كثر حتى جعل كل قتل فرساً »

(٤) فى الأصل : « التى »

حسن قرار ، حتى لو تحدث إنسان بقرب أقبل على سمعه وولّى السمع عنه بكل
موضع صحاك .

فإذا وَجد صاحبُ الفراسة فى تحليل الإنسان وخلقه مشابهةً لأحد هذه
الحيوانين فحكم له بقريب من ذلك المزاج والخلق الصادر عنه فهو غير بعيد
الحق لأن السبب الذى أضفنا إليه لأصناف هذين .

وهذان مثالان نحتاج ذكرهما ليسهل القياس عليهما على مزاج خاص محدد ،
أعنى أنه يجمع كلّ مزاج حتى كان من القسمين والجماع ، والحبل[1] لأذى
والخبث ، وكالصقر مستنفر وذلّس ، وكالسارق لمعقعق[2] واللص

وإذا ليس للإنسان وحده لا تظهر منه الخلق الطبيعىّ ظهوراً بيّناً كظهوره فى
هذه الحيوانات لأنه تمرّد على ذوى رويّة ، فهو يستر على نفسه مذمومة الأخلاق من
[١٠٨٥] نفسه ، ويكتم فى الخصوم ، ولا يظهرها إلا فى ضمنه ، ولا فى حياته ، فيحتاج
حينئذ إلى أن يستدل على خلقه الطبيعىّ بأحد شيئين : إما بطول الصُّحبة ، وتجربة
الأحوال ، وإما بالاستدلال الذى نحن فى ذكره ، والاستعانة بصناعة الفراسة على
ما يستره من أخلاقه الطبيعية .

فإن كان مزاجه وخلقه مناسباً لخلق أرنب حكم بخلقه ، وإن كان مناسباً
للأسد حكم عليه بخلقه مع سائر دلائله الأخر .

* * *

فأما الاستدلال بالأصل الآخر ، وهو الهيئات والأشكال والحركات فهو أن
لكلّ حال من حالات النفس من غضب ورضا ، وسرور وحزن ، وغير ذلك
هيئات وحركات وأشكالاً تتبع تلك الحال أبداً ، وظهورها يكون فى العين والوجه

(١) فى الأصل « والخبث » .
(٢) فى القاموس « العقعق : طائر أبلق بسواد وبياض ، يشبه صوته العين والقاف »
وفى حياة الحيوان ٢ : ١٢٨ « ... ويوصف بالسرقة والخبث ويضرب به المثل فى جميع ذلك ،
وإذا باض الأنثى أخفى بيضها »

أكثر، وأصحاب الفراسة يعتمدون العين خاصة، ويزعمون أنها باب القلب،
ويستدلون من شكلها ولونها وأحوال [illegible] كثيرة يصدق موضعه[1] على
[illegible] — أكثر الأخلاق والشيم، وخفى [illegible]، ويصدق حكمهم لا سيما
إذا ضموا إليه أصناف الدلائل، وذلك أن [illegible] مثلا، وعين [illegible]
[illegible] هيئته وحركته [illegible] وهو [illegible] وتصيبه على أحد هاتين
[illegible] من هيئة عينه وحركتها حكم عليه [illegible]، وكم من [illegible]
[illegible] في حال سكونه [illegible]، [illegible] في [illegible] — حكم [illegible]
[illegible]، [illegible].

وهذه هي الأصول التي [illegible] أصحاب الفراسة وهي قوة طبيعية
[illegible].

وقد [illegible] فيها [illegible] من سبق إلى هذا العلم من [٨٥-ب]
[illegible]، ثم تبعه جماعة صنفوا فيه كتبا، وهي مشهورة
[illegible] لا [illegible] في هذا العلم [illegible].

* * *

وههنا نوع آخر من الاستدلال — وإن لم يكن طبيعيا فهو قريب منه —
[illegible] العادات، فإن مثل قد سبق أن العادة طبيعة ثانية[2]، وقد [illegible] من
[illegible]، وفي [illegible]، و[illegible] بهم، و[illegible] طريقتهم،
[illegible] يصحب الجند، و[illegible] الملاهي، أو [illegible] الناس، حتى يظن من
صحب البهائم طويلا أنه يحدث فيه شيء من أخلاقها [illegible] تتبين ذلك في
[illegible] والرعاة الذين يسكنون البر، ويقل مخالطتهم للناس، وفي القوم الذين
[illegible] النساء والصبيان، كيف [illegible] إلى أخلاقهم، ويتشبهون بهم.

(١) في الأصل: «موضعها»
(٢) في الأصل «طبيعة ثابية»

فهذه جملة من القول في الفِراسة .

وينبغي أن تحصرَ الحكم بدليل واحد ، وتتوخى جميع الدلائل من الأصول الثلاثة ، لتكون بمنزلة شهود عدول لا يتداخلُك الشكّ في صدقهم ، فيكون حكمك صادقاً ، وفراستك صحيحة ، وذلك بحسب دُرْبتك بالصناعة بعد معرفتك بالأصول .

وما أكثر الأشياء [illegible] العلم وتحصره : فمن رأى في أحوال [illegible] التي في الأرض ، وكثرة الأصناف التي هي ضروب من الناس ، ومخالطة أخياف الأمم[1] ، وشاهد [illegible] الأخلاق و[illegible] الفراسة ، عظم نفعها ، وتحصل فائدته .

والفراسة ربما تخفى في [illegible] لتمام الحكمة ووجه ذلك[2] أنه [illegible] فاسد ، وخلق [illegible] فيصلحه ، [illegible] [٨٦-١] [illegible] ، كما [illegible] عن فليمون[3] ، وهو أول من سبق إلى هذا العلم ، فإنه حمل إليه [illegible] متنكر فحكم عليه وهو لا يعرفه ، [illegible] حكم عليه [illegible] ، فهمّ [illegible] بالوثوب عليه ، فمنعهم [illegible] وقال : قد صدق الرجل [illegible] ولكني أقهر نفسي [illegible][4] .

(٦٤)

مسألة

ما سِرُّ قولهم : الإنسان حريص على ما مُنِع ؟

(١) في اللسان : « الأخياف : الضروب المختلفة في الأخلاق والأشكال . ومن الإخوة الذين أمهم واحدة وآباؤهم شتى ، يقال : الناس أخياف ، أي مختلفون لا يستوون » .

(٢) في الأصل : « [illegible] الحكمة ووحده وذلك » .

(٣) راجع ترجمته في أخبار الحكماء ص ٤٤ .

(٤) راجع أخبار الحكماء ص ٦٤ — ٦٥ .

ولِمَ صار هذا هكذا ؟

وكيف يسرع الملل(١) من شيء بعينه(٢)، ويتضاعف الولوع بطلب ما يخلق به ؟

هلّا كان الحرصُ في مقابلة ما وجد، والزهد في مقابلة ما فُقِد ؟

ولهذا ما صار الرخيص مرغوباً عنه، والغالي مرغوباً فيه، وهذا إذا ركب الأمير لا يحرص على رؤيته كما يحرص على رؤية الخليفة إذا برز.

الجـــــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

إن النفس غنية بذاتها، مكتفية بنفسها، غير محتاجة إلى شيء خارج عنها. وإنما عرض لها الحاجة والفقر إلى ما هو خارج عنها بمقارنتها الهيولى، وذلك أن الهيولى ناقصة من أمر النفس في الفقر والحاجة، ولأجل هذا كان مركب ما عرض له الشوق(٣) إلى تحصيل المعارف و[illegible].

فأما المعارف والعلوم فهو يحصلها في نفسه بخزانة [illegible]، ويرجع إليه متى شاء، ويستخرج منه ما يريد، أعني القوة الذاكرة التي تستودع الأمور التي تستفاد من خارج، أعني من الحواس والكتب، أو التي تستنبطها بالفكر والروية من داخل.

وأما المقتنيات والمحسوسات فإنه يروم منها ما يروم من تلك التي تقدم ذكرها [٨٦-ب] فلا يحصل فيها، ويخطئ في الاستكثار منها إلى أن يسمه بحكمه على ما يسمى [illegible] من العلوم والمحسوسات فيقتصد نحو القصد من الأمرين جميعاً، ويقف عنده.

* * *

---

(١) في الأصل « ملك ».

(٢) في الهامش « [illegible] ».

(٤) في الهامش « والشوق إلى شيء [illegible] ».

وبه حرص على ما مُنع لأنه إنما يطلب ما ليس عنده ، ولا هو موجود
في خزانته فيتحرك لاقتنائه وتحصيله بحسب ميله إلى أحد الأمرين ، أعني المعقول
أو المحسوس ، فإذا حصّله سكن من هذه الجهة ، وعلم أنه قد ذخره ، ومتى رجع
إليه وجده ، وإن كان لم يبق له طلب ، وتشوّف إلى جهة أخرى ، ولا يزال كذلك
إلى أن يعلم أن الجزئيات لا نهاية لها ، وما لا نهاية له فلا طمع في تحصيله ، ولا فائدة
في التشوق (1) إليه ، ولا وجه لطلبه ، سواء كان في المعقول أو في المحسوس .

وإنما ينبغي أن يقصد من مطلوبه من الأمرين [illegible] لسرعة
الموجودة [illegible] وحدة ، ويكون ذلك برد الأشخاص التي لا نهاية لها إلى الـ
التي تشملها [illegible] ، ومن مخصوصات معدودة في ضروراته .
ومضى به دون الاستكثار منه ، ودون استيعاب جميعها غير ممكن لأنها
لا نهاية لها .

فإذا نال ما قصد من الحاجة ، وقصر [illegible] فهو مادة الأحزان واله[illegible]
والأمراض ، وضروب المكاره .

والكلام في هذا الباب كثير ، وحسب ذلك [illegible] الإنسان في [illegible] من [illegible]
الفقر ، لأن الفقر هو الحاجة ، والغنى هو الاستقلال ، أعني ألا يحتاج [illegible]
قيل إن الله — تعالى — غني ، لأنه غير محتاج [illegible]

[٨٧ -] فأما من كثرت قنياته فهو يستكثر حاجاته بحسب كثرة قنياته وعلى قدر
منازعته إلى الاستكثار [illegible] وجوه فقره ، وقد بيّن ذلك في شرائع الأنبياء
وأخلاق الحكماء .

فأما الشيء الرخيص الموجود كثيرا فلا يرغب عنه لأنه معلوم أنه في الـ[illegible]

(1) في الأصل [illegible]
[illegible]

وحده ، وأما العشق فإنه تفتر عنه في الأحيان وتصيبه فترة بعد توحده ، [illegible] فكل إنسان يتمنى أن يكون ذلك التوحد ليخص له ما لم يحصل غيره ، وذلك [illegible] الإنسان على السبيل الذي شرحنا من أمره .

(٦٥)

مسألة

ما سبب تحير الإنسان في الموقف ؟

وما منشؤه منه ؟ وما [illegible] ؟

وما الذي [illegible] به (١) [illegible] ؟

وما مراد [illegible] في [illegible] (٢) [illegible] (٣) [illegible] (٤) .

جواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

أما تحير الإنسان في المواقف فيكون لأمرين :

أحدهما لتطلعه إلى الأمور المشكلة ، وشوقه إلى الوقوف على الأمر المشكل في حدوثه ، وقد تقدم فيه من الكلام في المسألة الأولى .

والآخر لأحد [illegible] إلى [illegible] فيه ذلك ، [illegible] الإنسان

---

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

(٣) [illegible]

(٤) [illegible]

إلى الفأل والزجر إذا عدم جميع وجوه الاستدلال من أشكال الفلك، وحركات النجوم، ومن ثم عدل إلى التكهن، وصدّق بكثير من الظنون الباطلة.

* * *

وأما قول المتقدمين: «المحتال مُلَقّى، والمسترسل مُوَقّى» فهو على ظاهر كالمنتقض للحكم الأول؛ وذلك أن الإشارة في هذا المثل هو إلى أن المُحتَفِل، [٨٧ - ب] يتوقّى ما لا بد أن يصيبه، فهو يجتهد أن يخرج من حكم القضاء أعني موجب الأقدار بتوسط حركات العبث، فيصير اجتهاده في الخروج منه سبب حصوله فيه ووقوعه عليه. وفي هذا المعنى أشار الشاعر بقوله:

وقد حذرت من الأمور مقدّر ... وهربت منه فنَحْوَهُ تتوجّهُ

فأما المسترسِلُ إلى ذلك، أعني الذي هو موقى، فهو غيرُ متعرّض، ولا هو متعصب له وإن لم يتوقه، كما أن الشاعر قال في غير هذه الصفة:

حذِرٌ أموراً لا تكونُ وخائفٌ ... ما ليس مُنجيه من الأقدارِ

ويتصل بهذا الباب شرح ما يجب أن يُتوقّى، وما يجب ألا يُتوقّى، أعني ما ينبغي فيه الفكر والرَّويّة، وما لا ينبغي فيه. وإذا مر ما يقتضيه من الكلام سنقتصه إن شاء الله.

(٦٦)

مسألة

ما نصيبُ الإنسان من قرينه في خيره وشره؟
وكيف صار يؤثر الشرير في خير أمره ما لا يؤثر الخيّر في الشرير؟
وما فائدة النفس في المقارنة؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

يقال القرين من قرينه الاقتداء والتشبه ، وكأن كل متجاورين من الأشياء
سعية لا بد أن يؤثر أحدهما في الآخر فكذلك حال النفس ؛ وذلك أن الطبيعة
تهة بالنفس ؛ لأنها شبيهة بظل النفس ، ومن شأن الشيء الأقوى في الطبيعة
حيل الأضعف إلى نفسه وتشبيه بذاته ، كأخذ ذلك في الحر والبرد ،
طب ويبس ؛ ولأجل تأثير نحو في مجاوره حدثت الأمراض في البدن ،
سه عولجت بالأدوية

ولما كانت النفس في / هذه هيولانية[1] صار الشر لها طبعا ، والخير تكلفا [٨٨-١]
، فاحتجنا معشر البشر — أن نتعب بالخير حتى نستفيده ونقتنيه ،
ن نكابد تحصيل صورته حتى نألفه ، ونتعوّده ، ونكرّر زمانا طويلا
التي حصلت لنا منه على أنفسنا ؛ لتصير ملكة وسجية بعد أن كانت حالا .
فأما الشر فليس نحتاج إلى تعب به ، وتحصيله ، بل يكفي فيه أن نخلي
وسومها[2] ، ونتركها على طبيعتها ، فيتبعها نحو من الخير ، والخلو من
هو الشر ؛ لأنه قد بين في المباحث الفلسفية أنه ليس الشر شيئا له عين
من هو عدم الخير ؛ ولذلك قيل : الهيولى معدن الشر ونبوعه لأجل
من جميع الصور ، فالشر الأول بسيط هو عدم ، ثم مركب ، وسبب
الأعدام التي هي مقترنة بالهيولى

وشرح هذا الكلام طويل ، إلا أن الذي يحصل لك من جواب المسألة
أن النفس تتشبه بالنفس المقارنة لها ، وتقتدي بها ، والشر أسرع إليها من

(١) في الأصل « لاعوية » .
(٢) في اللسان « وحليته وسومه أي وما يريد » .

الخير : لما ذكرناه وهو أنّ النفسَ التي فيها هي هيولانية ، وأعني بهذا القول أنها للصّور من العقل ، فمعقولات إنما تصير معقولات لنا إذا ثبتت صورها في النفس ، وبذلك قال أفلاطون : إن النفس مكان للصور . واستحسن أرسطاطاليس التشبيهَ من أفلاطون ، لأنه ستعارة حسنة ، وإيماء فصيحٌ عن المعنى الذى أراده .

فيجب — على هذا الأصل — أن نتوقى مجالسة الأشرار ، ومخالطتهم ، ومقارنتَهُمْ ، ونقبلَ قولَ الشاعر :

عن المرء لا تسأل وأبصِرْ قرينَهُ ... فإنّ القرينَ بالمقارن مقتدِ[1]

[٨٨ - ب] وينبغي أن تأخذَ الأحداثَ والصبيان به أشدَّ الأخذ بعد ما يُرَى من ما يحقّقُ هذا المعنى ، ويؤكِّدُه ، وينبه عليه

(٦٧)

مسألة

ما وجه تسحب من أصابه ذؤبة وسحنته ، وكبر عمامته ، وحشا رقبه[2] ، وعرّض حشته بعر صدر ، ومشى متهيّبس[3] ، وتكلم متشدّقًا ؟

ولِمَ شنئ هذا وطيره ؟ وما الذي يمنع هذا وأمثاله ؟

وإنْ يترك كلُّ إنسان على رأيه واختياره ، وشهوته وإيثاره ؟

وهل اتفق العقلاء المميّزون ، والفضلاء المبرّزون على كراهة هذه الأمور إلا لسرّ خاف ، وحكمة موجودة ؟

فما ذلك السرّ ؟ وما تلك الحكمة ؟

---

(١) يروى « وسل عن قرينه » والبيت لعدى بن زيد كما في عيون الأخبار ٣ / ٧٨ وحماسة البحترى ٣٠٧ ومجموعة المعاني ص ١٤ ونهاية الأرب ٣ / ٦٢ وجمهرة أشعار العرب ص ١٠٣ وورد منسوبا لطرفة كما في ديوانه ص ١٥٣

(٢) في اللسان « رجل قسمل : مأخوذ دمعل »

(٣) في اللسان « متهيبس : إذا كان متبخترا في مشيه »

الجواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله :

يُنكر ما ذكرته كله التكلفُ ، وذلك أن من خالف عادات الناس في
[illegible] ومذاهبهم ، وتفرّد من بينهم [illegible] ، ثم احتمل مؤونةَ ما يتجشمه ،
[illegible] ذلك منه بلا غرض محمود لأغراضهم ، وقصدٍ غيرِ ما قصدوه : فإن كان
[illegible] من هذه الأشياء أن يشهر نفسه ، ويُنبّه على موضعه فقد تعدّى إلى وهم
[illegible] لا حقيقةَ له ، وطلب حالا لا يستحقها : لأنه لو كان يستحقها لظهرت
منه ، وعُرفت له من غير تكلف ولا تجشمِ هذه المؤن لضبطه ، وإن هو كان
[illegible] ومبرّزاً فضلا ولم تعطى ذلك إلا [illegible] ، ويخدع مسترسلا . وهذا
[illegible] المحال الذى يتحرّز منه ، ويستنكف عنه . هذا إلى ما يجمعه من شبهة
[illegible] ، والمخالفةُ سببُ الاستيحاش ، وعلةُ النفور ، ونفس مضادة .

[illegible] حرص الناس وأهلُ الفضل ، وحرص من الأنبياء عليهم السلام على [٨٩ - ١]
[illegible] لهم من السنن والشرائع ؛ لتحدث بينهم الموافقةُ والمناسبةُ التي هى سبب
[illegible] ، وأصلُ مودّات ، ليشتركوا في الخيرات ، ويتحصّل لهم صورة تتّحد
[illegible] سبب كل فضيلة ، ولأجله تمّ الاجتماع في المدينة الذى هو سبب حسن
الحال في العيش والاستمتاع بالحياة والخيرات المظنونة في الدنيا .

(٦٨)

مسألة

[illegible] ما تنفّسُ النفس في هذا العالم ؟
وهل لها متنفّس ونُعَيَة ؟

وإن وُضِعَتْ بهذه المعانى خرجت من أن تكون عليّةَ الدرجة ، خفيّة القدر ؛ لأن هذا عنوان الحاجة ، وآية العجز .

ولولا أن نسيم التحقيق [illegible] ، ما نُسِب إلى الإنسان ؟

وهل له به قِوام ، أو له منه قوام ؟ وإن كان هذا فعلى أى وَجْهٍ هو ؟

وأوسعُ من هذا الفضاء حديث الإنسان ؛ فإنَّ الإنسانَ قد أشكَلَ عليه الإنسان .

* * *

ثم حكيتُ حكايات من [illegible] فى المسألة ، فتشاغلَ بالجواب

الجـــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله

لولا أن [illegible] الاتفاق [illegible] غير المعنى الصحيح فى حال النفس ، [illegible] [illegible] فى هذا العلم لا أطلقه ، ورخصتُ فيه لك كما أطلقه قوم ، ويحكى [illegible] أبى بكر محمد بن زكريا الطبيب (١) وغيره ممن كان فى طبقته قد تورطوا فى [illegible] بعيد من الحق ، [illegible] هذه الصنعة وما أشبهها مما أطلقه الحكماء على الاتساع فى الكلام ، بل لأجل الضرورة العارضة للأشياء عند ضيقها عن [illegible] المعانى التى أطلقوا عليها .

[٨٩ - ب] ولكنى سأشير إلى ما سمى بالصنعة فى هذا الباب ، وهو أن [illegible] إذا امتزجت ضروبَ الامتزاجات بضروب حركات الفلك حدثتْ منها [illegible] الصور والأشكال التى تمنحها الطبيعة ، وتقبل من آثار النفس [illegible]

---

(١) [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
٢٤٤ — ٢٤٧ وأخبار الحكماء ص ١٥٥

طبيعية ضروب الآثار ؛ لأن النفس تظهر آثارها في كل مزاج بحسب قبوله ، وتستعمل كل آلة طبيعية بحسب ملاءمتها في كل ما يمكن أن تستعمل فيه ، وتبلغ به إلى أقصى ما يمكن أن ينتهي إليه من الفضيلة

وهذا الفعل من النفس لا غرض أكثر من ظهور الحكمة ، وذلك أن ظهور الحكمة من الحكيم لا يكون لغرض آخر فوق الحكمة ؛ لأن أجل الأفعال ما لم يرد لشيء آخر من ذاته ، وكل فعل يراد لغاية أخرى ، ولشيء آخر فذلك الشيء أجل من ذلك الفعل

ولا يمكن أن يكون ذلك مارّاً بلا نهاية ، فهو غاية أخيرة ، والفعل الأفضل ما ليس لشيء آخر ، بل هو نفسه الغاية والغرض الأقصى ، ولذلك يسمى الذي قَصدُ للتفلسف صنعته شيئاً آخر غير الفلسفة ، ولا يجب أن يكون قصده بالعمل شيئاً آخر غير الجميل ، أعني أنه لا يجب أن يقصد به نيل مال ، ولا طلب ذكر ، ولا نحو رياسة ، ولا شيء[1] من الأشياء غير ذات لأنه جميل .

وقد أشار « الحكيم » إلى أن النفس تستكمل في هذا العالم بقبولها صورة المعقولات لتصير عقلاً بالفعل بعد أن كانت بالقوة ، فإذا عقلت العقل صارت هي هو ؛ لأن من شأن المعقول والعاقل أن يكونا شيئاً واحداً لا فرق بينهما

وهذا يتضح لمن أمعن النظر في العلوم في أجزاء الفلسفة ، والوصول إلى آخرها .

قد حدث الإنسان الذي شكوت طوله ، وحكيت من الكلام المتردد الذي يعدّك طائلا ، فالذي ينبغي أن تعتمد عليه هو أن هذه اللفظة موضوعة على شيء مركب من نفس ناطقة وجسم طبيعي ؛ لأن كل مركب من بسيطين [٩٠ - ١٠]

---

(١) في الأصل « شيء »

أو أكثر يحتاج إلى اسم مفرد يخبر عن معنى التركيب ، ويدل عليه كما في
بالصورة التي تجمع مع مادة الفضة فتسمى خاتماً ، وكما تجمع صورة السرير
مادة الخشب فيصير اسمه سريراً ، وعلى هذا أيضاً يُفعل إذا اجتمع جسمان طبيعيان
أو جسم طبيعيه فتركب منهما شيء آخر فيه يُسمى باسم مفرد ، كما يُفعل
إذا تركب مع العسل أو السكر فسمى سكنجبيناً[1] ، وكما نسمي أنواع الأ
والمعجونات من الأخلاط الكثيرة ، وأنواع الأغذية والأشربة مركبة بمفرد
واحد منها باسم خاص ، وكذلك نفس المادة التي تشخص من صورة إلى
كمصير العنب الذي يسمى عصيراً مرة ، وخمراً مرة ، وخلاً مرة بحسب
الصورة على الموضوع الواحد .

فالإنسان هو المعنى المجموع في جميع الآلات الجسمية التي تسمى
لتصدر عنها الأفعال بحسب التمييز

(٦٩)
مسألة

حكيت — أيدك الله — حكايات بين سائل ومتكلم ، ولم تتوجه إلى
مطلوب ينبغي أن نبحث عنه ؛ لأن المسألة من باب الأسماء والصفات ، وقد تقدم
عليه فيما مضى كلام مستقصى لا وجه لإعادته ، فينبغي أن تعود إلى ما مضى
وتتأمله ؛ لتجده كافياً بمعونة الله

---

(١) مفاتيح العلوم ص ١٠٥

(٧٠)

مســـألة

ما سبب استشعارِ الخوفِ بلا مُجيب ؟

وما وجه تحلُّرِ الخائف والمصابِ كراهة أن يوقَفَ منه على قسوة طبعه ، أو قلةِ مكانتِه ، أو سوء جزعِه ، هذا مع خذلِ أعضائه ، وبدائِه على ما به ، وبخالةِ أعراضِه ، ووَجيبِ قلبه ، وظهورِ علاماتِ ما بدا زاد منهُ ظهر على [٩٠-ب] صفرةِ وجهه ، وأخط عينيه ، ونفضِ يديه ، واضطراب شمائله ؟ .

الجـــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله :

سبب ذلك توقُّعُ مكروه حادث ، فإن كان السبب صحيحًا قويًّا ، والدليلُ واضحا جليًّا كان الخوف فى موضعه .

وإن لم يكنْ كذلك ، وكان من سوءِ ظنٍّ ، وفسادِ فكرٍ فهو مرضٌ أو مزاجٌ فاسد من الأصل .

ثم بحسب ذلك المكروه يَخْشَنُ الصبرُ ، ويُحْمَدُ احتمال الأذى العارضِ منه وتَظْهَرُ من الإنسان أمارات الشجاعة أو الجبن .

وأثبتُ الناسِ جنانا وجأْشا ، وأحسنُهمْ بصيرةً ورَوِيَّةً لا بدَّ أنْ يضطربَ عند نزول المكروه الحادث به ، الطارئ عليه ، لا سيما إنْ كانَ هائلا ! فإن أرسطاليس يقول : « من لم يجزعْ من هَيَجِ البحرِ وهو راكبه ، ومن الأشياء الهائلة التى فوق طاقةِ الإنسانِ فهو مجنون » .

وكثيرٌ من المكاره يجرى هذا المجرى ويُقارِبُه ، والجزَعُ لاحقٌ بالمرء على

حسبه ومقداره : فإن كان المكروه والمتوقع مما يُطيق الإنسان دفعه أو تحمل فذهب عنه أمرُه ، واستولى عليه الجزع ، ولم يتماسك له — فهو جبان خوَر، مذموم من هذه الجهة .

ودواؤه التدرّب باحتمال الشدائد وملاقاتها ، والتصبّر عليها ، وتوطين النفس لها قبل حدوثها : لئلا تَرِد عليه وهو غافل عنها ، غير مستعد لها .

وإذا كانت الشجاعة فضيلة ، وكانت ضدها نقيصة ورذيلة ، فمن ذا لا يحب أن يستر نقيصته ، ويُظهر فضيلته ، مع ما تقدم من قولنا فيما سبق كلّ إنسان يعشق ذاته ، ويحب نفسه ؟

(٧١)

مسـألة

[١٠٩١]

ما سبب غضب الإنسان وضجره إذا كان مثلا يفتح قفلا فيتعسر عليه حتى يعض ، ويعض على القفل ، ويكفر ، وهذا عارض فاش في الناس ؟

الجـواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

هذا العرض وشبهه من أقبح ما عرض للإنسان ، وهو غير معذور ، إلا أن يُصلحه بالخلق الحسن المحمود ؛ وذلك أن الغضب إنما يثور به دم القلب محبة الانتقام ، وهذا الانتقام إذا لم يكن كما ينبغي ، وعلى من ينبغي ، وعلى مقدار ما ينبغي فهو مذموم ، فكيف به إذا كان على الصورة التي حكيتها

فأما سؤالك عن سبب الغضب فقد ذكرته وأجبت عنه ، وإذا ثار في غير موضعه فواجب على الإنسان الناطق المميز أن يسكنه ، ولا يستصحبه ، ولا يجرى

به على منهاج البهيمة ، وسنّةِ السَّبُع ؛ فإنَّ من أعانَهُ بالفكرة[؛] ، وألهمه سلطان الرويّة حتى يَحْتَدِمَ ويتوقّدَ فإنه سيَقْشَعِرُّ بعد ذلك تلافيه وتسكينُه ، والإنسانُ مذمومٌ به إذا تركه وسَوْمَ الطبيعة ، ولم يُظهِرْ فيه أثَرَ التمييز ، ومكانَ العقل .

وجالينوس[1] قد ذكر في كتاب الأخلاق حديثَ الفعلِ بعينه ، وتعجّب من جهل من يفعل ذلك ، أو يرفُسُ الحمار ويلكم البغل ، فإن هذا الفعل يدل على أن الإنسانية سخيفة في صاحبه جدا ، والبهيمةُ غالبة عليه ، تدل على سوء التمييز وقلة استعمالِ الفكر .

وليس هذا وحده يعرض لحشْوِ الناس وعامّتِهم ، من الشهوة والشَّبَق ، ومن عوارضِ النفسِ البهيمية والعصبيّةِ إذ هاج بهم ، وأسدأ في حركته السبعيّة ، يستعملوا فيه ما وهبه الله — تعالى — لهم ، وفضّلَهُمْ به ، وجَعَلَهُمْ [٩١-ب] له سببا ، أعني أثر العقل وحسنِ الرويّة ، وجودة التمييز ، والله المستعان ، ولا قوة إلا به .

(٧٢)

مسألة

لِمَ صار من كان صغيرَ الرأسِ خفيفَ الدماغ ؟ ولم يكنْ كلُّ مَنْ كان عظيم الرأس رزينَ الدماغ ؟

الجـــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله :

يحتاج الدماغ إلى اعتدال في الكيفيّة والكمّيّة ، فإن حصل له أحدهما لم

(١) راجع فهرست ابن النديم ص ٤٠٢ — ٤٠٣ ، وأخبار الحكماء ص ٨٥ .

يفضل عن الآخر ، فإن كان جوهره جيداً في الكيفية ، وكانت كميته ناقصة فهو — لا محالة — ردىء ، وإن كانت كميته كثيرة فليس هو — لا محالة — رديئاً ، فقد يكون كثيراً وجيد الجوهر إلا أنه يجب أن يكون مناسباً لخلقة القلب : ليحصل بين يبسه ورطوبته ، ويحصل في ذلك بتوسطه الاعتدالُ المحبوبُ المحمود .

ومتى حصل على الخروج من هذا الاعتدال تبعه من الرداءة قسطهُ ونصيبه ، إلا أن التفاضل بين أنواع الخروج من الاعتدال كثير ، ولأن يكون جيداً وكثيراً زائداً على قدر الحاجة خير من أن يكون جيداً وناقصاً عن قدر الحاجة ، وإن جمع رداءة الكيفية والكمية كان صاحبه ممقوتاً مخبّلاً بحسب ذلك .

(٧٣)

مسألة

لِمَ اعتقد الناسُ في الكوسج (١) أنه خبيثٌ وداهية ، وكذلك في الخفيف العارضين ؟ ولِمَ يعتقدوا العقلَ والحصافة فيمن كان طويلَ اللحية ، كثيف الشعر ، تامّ [٩٢-١] القامة ، جميل الإمّة (٢) /

ولم رأوا خفة العارضين من الشقاوة ؟ .

الجواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله :

هذه المسألة من باب الفراسة .

والممدوحُ المحمودُ من كل أمرٍ يتسعُ مزاجاً ما هو الاعتدال .

---

(١) الكوسج : الذي لا شعر على عارضيه

(٢) في اللسان « والإمة : الهيئة »

فأما الطرفان اللذان يكتنفان الاعتدال — أعني الزيادةَ والنقصانَ — فهما مذمومان مكروهان.

فإن كان وُفورُ اللحية وخفوفها وعِظَمها وذهابها في جميع جهات الوجه دليلَ السلامةِ والعفةِ، فالواجب صرف الطرف الذي يقدم من خفة والشرارةِ والقِحةِ دليلَ الخبثِ والشر.

وهما جميعاً طرفان خارجان عن الاعتدال المحمود.

وأحسب أنَّ ما لاح بينه الشيء مستحلاً، وذلك أن الرجلَ إذا كان وافرَ اللحية فهو قادر على أن يخفف منها ويسر مئونة حتى يحصل على القدر المعتدلِ، والهيئةِ المحمودة، فمتى تركها على الحال المذمومةِ مع تمكنه منها، وإصلاحها دائماً، أو تركها إلى حد حتى تستنجَ وتضطربَ دليلٌ على سوء الاختيار، ورقةِ التمييز.

فأما عدم اللحية فليس يقدرُ صاحبه على حيلة فيه فهو معذور.

(٧٤)

مسألة

لِمَ سهل الموت على المعذَّب مع علمه أنَّ العدمَ لا حياةَ معه، وليس بموجود فيه، وأن الأذى — وإن اشتد — فإنه مقرون بالحياة العزيزة؟

هذا وقد علم أيضاً أن الموجودَ أشرفُ من المعدوم، وأنه لا شرف للمعدوم، فما الذي يسهِّل عليه العدم؟

وما الشيء المُنْتَصِبُ لقلبه؟

وهل هذا الاختيارُ منه بعقل أو فسادِ مزاج؟

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

[٩٢-ب] / هذه المسألة — وإن كان الغرضُ فيها صحيحاً فالكلام فيها مضطرب
غيرُ مسلَّم المقدّمات ، وذلك أنّ الإنسان إذا مات فليس يعدم رأساً ، بل إنما
تبطل عنه أعراض ، وتتغيّر عنه كيفيات ، فأما جوهره ، فغير معدومة ،
ولا يجوز على الجوهر العدم بتةً ، كما تبيّن في أصول الفلسفة من أن الجوهر
لا ضدَّ له ، ومن أشياء أخر ليس هذا موضعها .

فالجوهرُ لا يقبلُ العدم من حيث هو جوهر ، وأجزاء الإنسان إذا مات
تنحلُّ إلى أصولها — أعني العناصر الأربعة ، وذلك بأن يستحيلَ إليها
فأما ذوات الجواهر الأربعة فهي باقية أبداً .

وأما جوهره الذي هو النفسُ الناطقة فقد تبيّن أنه أحقّ بالجوهرية من
عناصره الأربعة ، فهو إذن دائم البقاء أيضاً .

ولما لم تكن مسألتك متوجهة إلى هذا المعنى ، وإنما وقع الغلط في
مقدمات غير صحيحة ، وإرسال الكلام فيها على غير تحرّز — وجب أن ننبّه
على موضع الغلط ، ثم نعدل إلى جواب الغرض من المسألة فنقول :

إن الحياة ليست بعزيزة إلا إذا كانت جيّدة ، وأعني بالحياة الجيدة
ما سلمت من الآفات والمكاره ، وصدرت بها الأفعالُ تامةً محمودةً ، ولم يلحق
الإنسانَ فيها ما يكرهه من الذل الشديد ، والضيم العظيم ، والمصائب في الأهل
والولد . وذلك أن الإنسان لو خُيِّر بين هذه الحياة الرديئة ، وبين الموت الجيد ،
أعني أن يُقتل في الجهاد الذي يذبُّ به عن حريمه ، ويمتنع به عن هذه
المكاره التي وصفناها : لوجب بحكم العقل والشريعة أن يختار الموتَ والقتلَ في
مجاهدةِ من يسومُه ذلك .

وهذه مسألة قد سبقت لها نظيرة ، وتكلمنا عليها بجواب مقنع ، وهو [٩٣-١] ذلك : ما سبب الجزع من الموت ؟ وما سبب الاسترسال إلى الموت ؟ فليرجع إليه فإنه كافٍ(١) .

(٧٥)

مســـألة

لمَ ذمّ الإنسان ما لم يعرفه ، وعادى من لم يُحسنه ؟

وعلى ذلك عادى الناسُ ما جهلوا حتى صار هذا من الحِكَم اليتيمة . وقد عادى الناس ما جهلوا كما قيل فلم عادَوْه ؟

ولمَ لمْ يحبوه ويتمسوا ويفهموه حتى تزول العداوة ، ويحصل الشرف ، ويُمن الحال ، ويحق القول بالثناء ، ويصدق الخبر عن الحق .

الجـــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله :

هذا من قبيح ما يعتري الناس من الأخلاق ، وهو جارٍ مجرى الحسد ، وداخل في طريقه .

وصاحب المثل الذي يقول المرء عدو ما جهل ، إنما أخرجه مُخرج الذمّ وهو كما قيل الناس شجرة بغي وحسد .

والسبب فيه محبة النفس أولاً ، ثم الغلط في تحصيل ما يزينها .

وذلك أنه إذا أحبّ الإنسان نفسه أحبّ صورتها ، والعلم صورة النفس ، وكان من محبته صورة نفسه أن يبغض ما ليس له بصورة ، فمتى حصل له علم أحبه ، وإذا لم يحصل له أبغضه .

---

(١) راجع ص ٧٢ – ٧٦

ويذهب عليه أن التماس ما جهله بالمطلب — وإن كان فيه مَشَقَّةٌ — و
به ؛ ليصير — أيضاً — صورة أخرى له جميلة .

ولعل المانع له من ذلك كراهته التذلل لمن يتعلم منه بعد حصول العز له ؛
نوع آخر، وبين طائفة أخرى.

* * *

فأما قولك : فِيمَ لم يحسبوه حتى طلبوه ويفقهوه ؟ فهو الواجب الذى ينبغى
[٩٣ - ب] يُفعل ، وعليه حضّ صاحبُ المثل / بالتنبيه على العيب ليُتَجنَّب بإتيان الفضيلة
وسمعت بعض أهل العلم يحكى عن قاضى حبيب الحق ، على المرتبة أنه
تعلم الهندسة على كبر السن قال : فقلت له : ما الذى يحملك على ذلك وقد
يقدح فى مرتبتك ، ويطلق ألسن السفهاء عليك ، وأنت لا تصل إلى كبير حظ
منه مع علو السن ، وحاجة هذا العلم إلى زمان طويل ، وذكاء لا يوجد إلا
الحداثة واستقبال العمر ؟

فقال : ويحك إنى أحسست من نفسى بغضاً لهذا العلم ، وعداوة لأهله فأحببت
أن أتعاطاه لأحبه ، ولئلا أبغض علما فأعادى أهله .

وهذا هو الانقياد للحق ، وتجرع مرارته حرصاً على حلاوة ثمرته ، ورياضة
للنفس على ما تكرهه مما هو أزين لها ، وأعود عليها ، وحملها على
ما يصلحها ويهذبها .

(٧٦)

مسـألة

لم كان الإنسان إذا أراد أن يتخذ عدةً أعداء فى ساعة واحدة قدَرَ على
ذلك ، وإذا قصد اتخاذ صديق ومصافاة خِدْنٍ واحد لم يستطع إلا بزمان واجتهاد
وطاعة وعزم ؟

وكذلك كل صلاح مأمول ، ونظام مطلوب فى جميع الأمور ، ألا ترى

لأن الخنق أسهل من الخياطة ، والهدم أيسر من البناء ، والقتل أخف من التربية والإحياء ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

جواب مسألتك هذه منها . وما أشبهها بحكاية سمعتها عن الأصمعي ، وذلك أنه بلغه أن قارئاً قرأ عليه :

الألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا[1]

/ فقال : يا أبا سعيد : ما الألمعي ؟ [٩٤-١]

فقال : الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا[2] .

وأنا قائل في هذه المسألة أيضاً :

إنما صار الإنسان قادراً على اتخاذ الأعداء بسرعة ، وغير قادر على اتخاذ الأصدقاء إلا في زمان طويل ، ومرامة كثيرة — لأن هذا فتق ، وذاك رتق ، وهذا هدم ، وذاك بناء . وسُقْ ذا في كلامك فيه جوابك .

(٧٧)

مسألة

ما الذي حرّك الزنديق والدهري على الخير ، وإيثار الجميل ، وأداء الأمانة ، ومواساة الغير ، ورحمة المبتلى ، ومعونة الصريخ ، والملتجئ إليه ، والشاكي بين يديه ؟

---

(١) البيت من قصيدة عينية لأوس بن حجر يرثي بها فضالة بن كلدة الأسدي ، راجع ديوانه ص ٣ ، ٥ ، ١٢ ، وديوان الأدب ص ٣٤ .

(٢) قال المبرد في كتاب التعازي والمراثي ص ٢٥ : « الألمعي : الحديد القلب الذي يوقع ظنه ، وهذا مثل لا يصيبه أحد ... » وقال الميداني في مجمع الأمثال ١ ، ٣٦ : « وأصله من اللمع ، كأنه لمع له ما أظلم على غيره » .

هذا وهو لا يرجو ثواباً ، ولا ينتظر مآباً ، ولا يخاف حساباً .

أترى الباعث على هذه الأخلاق الشريفة ، والخصال المحمودة رغبته في الشكر ، وتبرؤه من القرف[١] ، وخوفه من السيف ؟

قد نجد هذه في أوقات لا يُظَنُّ به الموقف ، ولا اجتلاب الشكر ، ما إلا حمية في النفس ، وسيرة مع العقل .

وهل في هذه الأمور ما يشير إلى توحيد الله تبارك وتعالى ؟

الجواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله .

الإنسان — بما هو إنسان — أعنى [illegible] وسجايا وشيم قبل ورود الشرع ، وله هداية في رأيه ، وأوائل في عقله لا يحتاج فيها إلى شرع ؛ بل إنما تأتيه الشريعة بتأكيد ما عنده ، وتنبيه عليه ، فيثير ما هو كامن فيه ، وموجود في فطرته قد أخذه الله — تعالى — عليه ، وسطره فيه من مبدأ الخلق . فكل من له مسكة من العقل ، ونصيب من الإنسانية ففيه حركة إلى الفضائل ، وشوق إلى المحاسن [٩٤-ب] لا لشيء آخر أكثر من الفضائل والمحاسن التي يقتضيها العقل ، وتوجبه الإنسانية ، وإن اقترن بذلك في بعض الأوقات محبة الشكر ، وطلب السمعة ، والتماس أمور أخر .

ولولا أن محبة الشكر وما يتبعه [illegible] أيضاً — جبلة وقضية لما رغب فيه ، ولولا أن الخالق — تعالى — واحد[٢] لما استوت هذه الحال بالناس ، ولا استحسنه أحد من ذاته ، وحض عليها إذا لم يجد في نفسه شاهداً لها ، ومصدقاً بها .

ولعمري إن هذا أوضح دليل على توحيد الله ، تعالى ذكره ، وتقدس اسمه

---

(١) في الأصل : [illegible] ويقال : هو يقرف بكذا : أي [illegible] به [illegible] ، فهو مقروف ، وقرف [illegible] .

(٢) في الأصل « واحد » .

(٧٨)

مسألة

ما الذي قام في نفس بعض الناس حتى صار ضُحَكةً؟ أعني يُضحَكُ ويُسخَرُ منه ويُعبَثُ بقفاه، وهو في ذلك صابر محتسب، وربما حلا من السائل، وربما تزيّد للسائل.

فكيف هوّن عليه هذا الأمر الصعب؟ ومنهم من بيت طاهر الشرف، ونسب الحق.

ومثل هذا المعنى يصير آخر مخنثًا معيبًا بذلك في حرم، فقصته من حديث المخنث الذي نشأ على طريق مذمومة، وهو من بيت كبير.

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

قد مضى في مسألة المزاح أن لكل مزاج خُلُقًا(1) يتبعه، والنفس تنقاد له بحسب تلك الطبيعة والمزاج، وأن الإنسان متى استرسل للطبيعة، وانقاد [١٠٩٥] لها، ولم يستعمل القوة الموهوبة له في رفع ذلك، وتأديب نفسه بها — كان في مسلاخ(2) بهيمة!

وهذا الخلق الذي ذكره في هذه المسألة أحد الأخلاق التابعة لمزاج خارج عن الاعتدال التي متى ترك الإنسان وسوء الطبيعة فيها حصلت فيه إلى

(1) في الأصل: «خلق».

(2) في الهامش: «مسلاخ» أجلد، وفي حديث عائشة: «ما رأيت امرأة أحب إلي أن أكون في مسلاخها من سودة».

أقبح مذهب وأسوأ طريقة . وحقّ على من بُلِيَ بها أن يجتهد في مداواتها ، ويجتهد له فيه .

فقد تقدم قولنا في هذه الأدواء إنها تمكن ، ولولا إمكانها ما حسن التقويم والتأديب عليه ، ولا الحمد والذم فيه ، ولا الزجر والدعاء إليه ، ولا السياسة من الآباء والمعلمين ، وقوام المدن به .

ومتى لم يتجنب الإنسان معالجة هذه الأدواء [كانت مستحكمة][1] بمفوتات المروءة واحدة فيه .

وما أشبه الأمراض النفسية بالأمراض الجسمية ، فكما أن مرض الجسم متى لم يعالجه صاحبه بالحمية والتدبير ، وجب أن يستحكم ويقهر ويقتل ، فكذلك مرض النفس إلى أن ينتهي في حال يقع معها اليأس من علاجها ، فحينئذ ينبغي أن تُراح منه ، ويستراح منه ، ويُشهر الأمر فيه على حسب ما تحكم فيه الشريعة والسياسة العادلة .

(٧٩)

مسألة

ما السبب في محبة الإنسان الرياسة[2] ؟

ومن أين ورث هذا الخلق ؟

وأي شيء رمزت الطبيعة به ؟

ولِمَ فرط بعضهم في طلبها ، حتى تلقى الأسنّة بنحره ، وواجه المرهفات [٩٥-ب] بصدره ، وحتى هجر من أجلها الرقاد ، وودّع بسببها الرقاد ، وهوى لمهجته والبلاد ؟

---

(١) زيادة يوجبها السياق .

(٢) في الأصل : « ما سبب الإنسان في محبة الرياسة » .

وهل هذا الحس من جنس من اضحى في ترتيب العنوان إذا كوتب أو كاتب؟

وما ذاك من صنيع متقدم؟ فقد شرع الناس في هذه المواضع وساموا ودعوا الطبائع.

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله

قد تبين أن في النفس ثلاث قوى، وهي: الناطقة، والبهيمية، والغضبية.

فهو بالناطقة منها تتحرك نحو الشهوات التي تنال بها اللذات البدنية كلها وتظهر آثارها من الكبد.

والغضبية منها يتحرك إلى طلب الغلبة، ويشتاق إلى أنواع الكرامات، وتحصل له الحمية والأنفة، وتلتمس العز والترأس، وتظهر آثارها من القلب.

وقد تقوى فيه واحدة من هذه القوى بحسب مزاج قوة هذه الأعضاء التي تسمى الرئيسة في البدن.

وربما خرج عن الاعتدال فيها إلى جانب الزيادة والإفراط، أو إلى ناحية النقصان والتفريط، فيجب عليه حينئذ أن يعدلها ويردها إلى الوسط — أعني الاعتدال الموصوف له — ولا يستمر بها تركها التقويم والتهذيب؛ فإن هذه القوى تهيج لما ذكرناه.

فإن تُركت وسومها، وترك صاحبها إصلاحها وعلاجها بالأعقل واسع الطبيعة — قد قويت أمراضها، وعلت حتى تجمح إلى حيث لا يُطمع في علاجها / [٩٦-أ] ويُؤيس من برئها.

وإنما يُنشأ أمرها وتدبيرها في مبدأ الأمر بالنفس التي هي رئيسة على
كلها — أعني المميزة العاقلة، التي تسمى القوة الإلهية فإن هذه القوة ي
أن تستولي، وتكون لها الرئاسة على البقية.

فمحبة الإنسان للرئاسة أمر طبيعي له، ولكن يجب أن تكون مقصورة
لتكون في موضعها، وكما ينبغي.

فإن زادت أو نقصت في إنسان لأجل مزاج أو عادة سيئة وجب عليه
أن نعدّلها بالأدب الصحيح كما ينبغي، وعلى ما ينبغي، وفي الوقت
الذي ينبغي.

وقد مضى من ذكر هذه القوى وآثارها في موضعه ما يجب أن يقتصر به
هنا على هذا المقدار. ونقول:

إنه كما يعرض لبعض الناس أن تنقاد الأشياء بنحوه، ويركب أهوال البر
والبحر لنيل الشهوات بحسب حركة قوة النفس البهيمية فيه، وتزكيتها فيه،
فكذلك يعرض لبعضهم في نهوض قوة النفس الغضبية فيهم إلى نيل الرئاسات
والكرامات أن يركب هذه الأهوال فيها

ومدار الأمر على العقل الذي هو رئيس عليهما، وأن يجتهد الإنسان في
تقوية هذه[1] النفس؛ لتكون هي الحاكمة، وتقمع القوتين الباقيتين لها حتى
تصدرا عن أمرها ونهيها وترسمه، وتقف عند ما تحده؛ فإن هذه القوة هي التي
تسمى الإلهية، ولها قوة على رئاسة سائر الأجزاء، وهداية إلى علاجها وإصلاحها،
واستقلال بالرئاسة التامة عليها، ولكنها — كما قال أفلاطون — في بين الذهب
[٩٦ - ب] وشك في قوة الحديد، ولا يمكن الاحتيال والميل إلى تذليل هذه لتلك، وجعلها
منقادة وتنقاد. والله المعين، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) في الأصل: هذا.

(٨٠)

مسألة

ما السبب في شريف من سلف له أب وجد منظور إليه، مكثور عليه في معانٍ تُمَجَّد، وشجاعة وسياسة، دون شريف من كان له ابن كذلك، أعني كيف يسري الشرف من المتقدِّم في المتأخِّر، ولا يسري من المتأخِّر في المتقدِّم(١)؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه رحمه الله:

إن الأب علة الولد، وعِرقه يسري فيه لأنه مُقوِّمه، ولأنه مكوَّن من روحه وجزئه، فهو من أجل ذلك جزء منه، أو كنسخة له، فغير مستنكر أن يظهر آثار أفعاله فيه، أو ينتظر منه نزوع العرق إليه.

فأما عكس هذه القضية، وهو أن يصير المعلول سببًا للعلة حتى يرجع مقلوبًا فشيء يأباه العقل، وتردّه البديهة، ويتبيّن المعنى بما نحكي في جواب هذه المسألة.

(٨١)

مسألة

ولِمَ إذا كان أبو الإنسان مذكورًا بأصناف نعته، وغيره من الدين والورع، وجب أن يكون ولده، وولد ولده يتحمّلون التيه، ويتيهون في الصلف، ويزدرون الناس، ويرون من أنفسهم أنهم قد خُوِّلوا الملك، ويعتقدون أن خدمتك لهم فريضة، وتحكّمك فيهم متعلّقة؟

(١) في الأصل «من المتقدم في المتأخر».

[٩٧ - أ] ما هذه الغشة والآفة؟ وما أصلها؟

وهل كان في سالف الدهر، وفي من مضى من الزمان من الأمم المعروفة
هذا الفن؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه رحمه الله:

قد ذكرنا في جواب المسألة الأولى ما ينبه على جواب هذه الثانية [illegible]
[illegible] يتشرف بشرف عقله، وإن كان ذلك شرف دينه وعقله هيئة [illegible]
للعرق السارى من الأصل [illegible] لا يخص [illegible]، ولكن بحد معروف،
ومقدار معلوم، [illegible] كما حكيت عنهم فهو [illegible]
الإفراط الذي عددناه [illegible]

وأما قولك: هل كان في سالف الدهر شيء من هذا الفن؟ فلعمري لقد
كان ذلك في كل أمة، وكل زمان.

ولم تزل النجابة على الأكثر سارية في الأولاد، ومتوقعة في العروق حتى
إن ملوك بني [illegible] لا يرتضي الناس إلا بهم، ولا يثقون
إلا بهم، ووجدت في جميع الأمم من الفرس والروم والهند وسائر أجناس الناس

وكذلك عرق [illegible]، والأصل [illegible] يرجى به الأولاد، [illegible]
الشروع [illegible] فيذمون به، وتتجنب ناحيتهم له.

ولكن مسألتك مخصصة بذكر الدين وله حكم آخر كما قد علمت من علو
مرتبته، وشرف منزلته، وإن لم تكن القوة نفسها سارية في العرق، ولا هي
موقعة، ثم يتبع [illegible] من التعظيم والتشريف، وخضوع(١) الناس له باطنه،

(١) في الهامش: «[illegible] عند العرب [illegible] في [illegible] في موضعه».

وللناس أهل بيته، ومرتبة الإمامة والتمليك — أمرٌ خارج عن حكم العادة، [٩٧-ب] ولا سيما إن كان هناك شريطةُ الفضيلة موجودة والاستقلال حاضراً، فإن العدول حينئذ عمن كان بهذه الصفة ظلم وتعدٍّ. والسلام.

(٨٣)

مسألة

هل يجوز أن تكون الحكمة في تسوية الناس من جهة ارتفاع الشرف دون تباينهم ؟ .

فإنه إن كانت الحكمة في ذلك لزم أن يكون ما عليه الناس بناءً على قهر لا إمكان لهم معه، أو جهل لا حجة عليهم به.

ولست أعني التساوي في الخلق وفي الكيفية، وفي الفقر والحاجة؛ لأن ذلك قد شهدت به الحكمة المعروفة، لأنه مما يستوي فيه العالم، وجار به العقل.

وإنما عنيت تساوي الناس من جهة النسب، فإن التطاول والتسلط والازدراء قد فشا بهذا السبب.

والحكمة أن يوضع ما يكون قيداً أو ذريعة[1] إلى فساد، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم»[2].

---

(١) في اللسان: «الذريعة: جمل يختل به الصيد، يمشي الصياد إلى جنبه فيستتر به، ويرمي الصيد إذا أمكنه، وذلك الجمل يسيّب أولاً مع الوحش حتى تألفه.
وقال ابن الأعرابي: ثم جعلت الذريعة مثلاً لكل شيء أدنى من شيء وقرب منه»
(٢) راجع المجازات النبوية للشريف الرضي ص ٢٤ - ٢٦

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

إنما يشرف الإنسان بنفسه ، وبما ظهر فيه من آثار الحكمة . وما أحسن قول الإمام علي عليه السلام « قيمة كل امرئ ما يحسن » .

وإنما حكيت ما تقدم من شرف النجابة في العرق لأجل أن تطمع بقوة فيمن كانت له سابقة في نجابة أن تظهر فيه أيضاً ، ولا سيما إن كانت عادته قريبة منه .

[٩٨-أ] وكيف يتساوى الناس في ارتفاع الشرف ؟ ولو تساووا فيه لما كان شرف ولا ارتفاع ، وإلا فعلى ماذا يرتفع ويشرف ، ومنازل متساوية ؟

ولكن الناس يتساوون في الإنسانية التي تعمهم ، وفي أشياء تتبع الإنسانية من الأحكام والأوضاع ، ويتفاوتون في أمور أخر يزيد بها بعضهم على بعض .

(٨٣)
مسألة

ما التطيّر والتفاؤل ؟ ولم أُولع كثير من الناس بهما ؟ .

وكيف نُهي عن الشريعة أحدهما ورُخّص الآخر[1] ؟

---

(١) في الهامش : « كان من شأن العرب عيافة الطير وزجرها ، والتطير بسانحها وبارحها ، ونعيق غرابها ، وأخذها ذات اليسار إذا أثاروها ، فسموا الشؤم طيراً وطائراً وطيرة ، لتشاؤمهم بها . ثم أعلم الله — جل ثناؤه — على لسان رسوله — صلى الله عليه وسلم — أن ذلك باطل ، وقال : لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ، وكان النبي يتفاءل ولا يتطير . وأصل الفأل الكلمة الحسنة يسمعها عليل فيتأول منها ما يدل على برئه ، كأن سمع منادياً نادى رجلاً اسمه سالم وهو عليل — فأوهمه سلامته من علته . وكذلك المضل يسمع رجلاً يقول : يا واجد ، فيجد ضالته . والطيرة مضادة للفأل . وكانت العرب مذهبها في الفأل والطيرة واحد ، فأثبت النبي — صلى الله عليه وسلم — الفأل واستحسنه ، وأبطل الطيرة ونهى عنها . وفي الحديث : الطيرة شرك . وإنما جعل الطيرة من الشرك ، لأنهم كانوا يعتقدون أن التطير يجلب لهم نفعاً ، أو يدفع عنهم ضرراً ، إذا عملوا بموجبه ، فكأنهم أشركوه مع الله في ذلك »

وهل لها أصل يُرجَعُ إليه، ويُوقَفُ لديه؟

أو هما جاريان مرة بالتجنّي والاستشعار، ومرة بالاتفاق والاضطرار؟

والخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم فاشٍ في هذا المعنى، وليس طريقه مُحدِثاً للعلم، ولا مثلُهُ مُحيلاً للأذى؛ إذ يقول «لا عَدْوَى ولا طِيَرة». وقد قيل في مكان آخر: كان يُحِبُّ الفألَ الحسن.

وزعم الرواة أنه حين نزل المدينة عند أبي أيوب الأنصاري[1] سمعه يقول لغلامين له: يا سالم، يا يسار. فقال لأبي بكر: «سلمت لنا الدار في يسر[2]».

فكيف هذا؟ وما طريقه؟

وهل يطّرد ذلك في نظائره أم يقف؟

* * *

ثم حكيت الحكاية عن ابن إسماعيل في قصة الزعفراني

* * *

وحكيت أيضاً عن ابن الرومي[3] قوله: الفأل لسان الزمان، وعنوان الحدثان.

---

(١) شهر بكنيته، واسمه خالد بن زيد بن كليب، شهد العقبة وبدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما قدم الرسول المدينة نزل في داره، وأقام عنده حتى بنى حجره ومسجده وانتقل إليها. وآخى بينه وبين مصعب بن عمير. وتوفي أبو أيوب مجاهداً سنة اثنتين وخمسين، ودفن بالقرب من القسطنطينية. راجع أسد الغابة ٢/ ٨٨ — ٩٠، ٥/ ١٤٣ — ١٤٤ والإصابة ٢/ ٨٩ — ٩٠

(٢) الحديث في العقد الفريد ٢/١٠٣. ومثل ذلك ما رواه الزمخشري في الفائق ١/ ٧٤ من أن النبي صلى الله عليه وسلم لما توجه نحو المدينة، خرج بريدة الأسلمي — رضي الله عنه — في سبعين راكباً من أهل بيته من بني سهم، فلقي نبي الله ليلاً، فقال له: من أنت؟ قال: بريدة، فالتفت إلى أبي بكر وقال: «يا أبا بكر، برد أمرنا وصلح»، ثم قال: ممن؟ قال: من بني سهم، قال: خرج سهمك.

برد أمرنا: أي سهل، من العيش البارد وهو الناعم السهل، وخرج سهمك: أي ظفرت، وأصله أن يجيلوا السهام على شيء، فمن خرج سهمه حازه.

(٣) راجع طيرة ابن الرومي في زهر الآداب ٢/ ١٩٨ — ٢٠٢.

وقلت: ما أكثر ما يقع ما لا يُتوقَّع! مما لم يتقدم فيه قول ولا إرجاف(1) حتى إذا ورد ذلك شيء صار العجَبَ العُجاب، والشيء المستطرَف.

[٩٨ ب] / الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

الإنسان متطلع إلى الوقوف على كائنات الأمور ومستقبلاتها ومغيباتها، لا سيما من حاله(2) في تقدم، فهو دائم يتشوفها، ويَرُومُ معرفتها، على قدر استطاعته، وبحسب طاقته، وقد تمكنه التوصُّل إلى بعضها بطبيعة موافقة، وفي رأي صائب، وحدسٍ صادق، وتكهّن في الأمور لا يكاد يُخطئ فيها، فهو من أعلى درجة في هذا الباب، ووثق بنفسه فيه، وقد يتعدى في بعضها ذلك فيروم التوصّل فيه بدلائل النجوم، وحركات الأشخاص العلوية وتأثيرها في هذا العالم، ويصدق حكمه أو يكذب بحسب قوته في أخذ الدلائل ومزجها بعد ذلك.

ولهذه الصناعة أصول كثيرة جدا، وفروع بحسب الأصول.

وخطأ المخطئ ليس من ضعف أصول الصناعة، ولكن من ضعف النظر فيها، لأنه يروم من الصناعة أكثر مما فيها، فيحمل عليها زيادة على الموضوع منها، وربما قارنته هذه الأسباب ونظائرها من الدلائل الطبيعية.

وليس من شأن النفس أن تعمل عملا بغير داع إليه، ولا سبب له فيصير كالعبث، وقد يسنح له أمران، ولا يرجح أحدهما على الآخر فيطلب لنفسه حجة في ركوب أحدهما دون الآخر، فيستريح حينئذ إلى الأسباب الضعيفة، ويَتمحّل

---

(1) في اللسان عن الجوهري: «والإرجاف واحد أراجيف الأخبار، وقد أرجفوا في الشيء. أي خاضوا فيه».

(2) في الأصل: «كما ومستاهن حاله».

العنق بعينه بقدر ما يتزحزح أحد زنبي منكبيه في مشيه على الآخر حتى يصل إليه، ويأخذ به.

* * *

وينبغي للرجل العاقل أن يكون حسن الظن، قوي الرجاء، حسن النية ليتفاءل حينئذ.

وقد قد يكون أصوات سيئة من فيه أثر النطق، ويكون أكثره [٩٩ ا] الكلام مفهوم.

وقد تكون خلقة معوجة، وأشكال مستحسنة، ويكون معظمه في خلق الإنسان

وقال النبي صلى الله عليه وسلم[1]: «إذا أبردتم إليّ بريدًا فابعثوه حسن الاسم، حسن الوجه[2]».

* * *

ومن العجب [illegible] فالأمم [illegible] لأصوات [illegible] خفية، والرجال الحسن، قد [illegible][3] مكروهة، ويتشاءم من الأمور [illegible] كثيرة، [illegible] لأنهم [illegible] وبسط [illegible] يأخذون بعضهم من [illegible][4] في [illegible] [illegible][5] في [illegible]، [illegible] خلق [illegible].

(١) [illegible] في [illegible] ج ١ ص ١٤٨ [illegible] وفي [illegible]
[illegible] صلى الله عليه وسلم [illegible]

(٢) قال الزمخشري في [illegible] [illegible] في الأصل [illegible]

(٣) في الأصل «فقد فقهم».

(٤) في اللسان «[illegible]» [illegible] وفي [illegible]
[illegible] وفي حديث [illegible]

(٥) في الأصل «[illegible]» [illegible] في كتاب [illegible] ص ١١٤، ١١٥، واللسان مادة «دور».

وبعضها من الأمزجة المتنافرة، والخِلَق المكروهة كالبوم والهامة والعقرب القرد وما أشبهها

وبعض من الأصوات المنكرة كنهيق الحمير وأصوات الحديد وما أشبهها

وبعضها من الأسماء والألقاب إذ يشتقّ لها معانٍ توافقها في بعض الحروف أو في كلها كاسم الغراب من الغربة والبين من البين(١)، والنَّوى — وهو نوى التمر — من البعد.

وبعضها من العاهات، كالأعور من العين، والمقعد من الرجل.

وبعضها من الحركات والجهات كالسانح والبارح(٢) والنطوح و[illegible]

وجميع ذلك لضعف النفس ومخبرة(٣)، واستيلاء اليأس والقنوط عند هذه الاستشعارات تزيدهم سوء حال؛ فلذلك نهي عنه.

وكانت العرب خاصة من بين الأمم أحرص على هذه الطريقة، وأوزم لها، على أن شاعرهم يقول، وقد أحسن:

تخبّر طيرةً فيها زياد لتخبره وما فيها خبير(٤)

أقام كأن لقمان بن عاد أشار له بحكمته مشير

[٩٩ ـ ب] / تعلّم أنه لا طير إلا على متطيّر وهو الثبور(٥)

---

(١) في العقد الفريد ٢ : ٣٠٢، وقال أبو الشيص:

أشاقك والليل ملقى الجران غراب ينوح على غصن بان

وفي نعبات الغراب اغتراب وفي البان بين بعيد التداني

(٢) في العقد الفريد ٢ : ٣٠٣، وقال أبو عبيدة: السانح ما ولاك ميامنه، والبارح ما ولاك مياسره.

(٣) في اللسان «مخبرة الرجل: صنعه، وجمع على مخابر».

(٤) في اللسان «يقال خبّره وخبره واستخبره إذا سأل عن الأخبار ليعرفها» وفي الأصل «تحبر».

(٥) في اللسان «الثبور: الهلاك والخسران والويل».

على شيء يوافق بعض شيء أحسنه وباطنه كثير (١)

(٨٤)

مسـألة

ما السبب في كراهة بعضهم إذا قيل له : يا شيخ ، على التوقير والإجلال ، وهو لا يكون شيخاً آخر حتى أن يقال له : يا فتى ، وهو شاب طرير (٢) ؟

ثم إن ثبت أخذ ذلك في شيخ على حقيقة تكره ذلك ، إلا أن هذا علته ظاهرة ، وسكن الشأن في شاب شارخ يغضب فيكره ، وشاب لا يشيخ متكلف .
وهذا الشباب موجع ، ووجه الشيب مفظع (٣) .

الجـواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

إنما يختلف الناس في ذلك باختلاف نظرهم لأنفسهم ، وبحسب ملاحظتهم أغراض مخاطبيهم .

وذلك أنه ربما أحب الإنسان أن تظهر فضيلته في ابتداء زمانه ، واستقبال عمره ، فإذا (٤) قيل له : يا شيخ ظن أنه قد نسب إلى الفضيلة ، وأُلحق بمن حصّل الفضيلة في الزمان الطويل ، والتجربة الكثيرة .

وربما كره ذلك لنقص لأربه في الشباب ، وميل إلى اللعب والهوى اللذين يستقبحان من الشيخ ، فإذا قيل له : يا شيخ رأى هذا اللقب كالمانع له

(١) ورد هذا البيت والذي قبله في اللسان مادة « صبر » وفي عيون الأخبار ١٤٦,١ .
(٢) في اللسان « رجل طرير : ذو طرة وهيئة حسنة وجمال ، وقيل : هو المستقبل الشباب » .
(٣) في اللسان « أفظع الأمر : اشتد وشنع وجاوز المقدار في الشدة ، فهو مفظع ، وفي الحديث : لا تحل المسألة إلا لذي غرم مفظع . المفظع : الشديد الشنيع » .
(٤) في الأصل « إذا » .

والزجر ، وأن يحافظه(١) منتصر منه منتظر من المشايخ ، ولا يقدر على ركوب ما يَهُمُّ به ويَعزِمُ عليه .

وقد نظر الإنسان إلى مرتبة حصلت له من الأبوة الذي لا يحصل [إلا

[١٠٠-١] من المشايخ وهو في سن الشباب فشَرُف بالإكرام ، وسرعة بلوغه مبلغ المُحنَّكين وأهل التجربة

فبحسب اختلاف النظر يختلف وجود هذا الوصف ، والتحفظ له .

(٨٥)

مسألة

ما علة الإنسان في صبره إذا كانت محنته عامة له ولغيره

وما علة جزعه واستكانته وحسرته إذا خصته مصيبة ، ولم تَعْدُه المصيبة

وما سر النفس في ذلك ؟

وهل هو محمود من الإنسان أم مكروه ؟

وإذا ورد هذا الخاطر فيمَ نعالجه ، وإلى أي شيء نرده ؟

ولِمَ يتمنى صاحب المحنة أن يشركه الناس(٢) ولم يستريح إلى ذلك

والعامة يروون مثلا بالفارسية ترجمته : من احترق بيدره(٣) أراد أن يحترق بيدرُ غيره .

الجـــــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

الجزع والأسف والحزن من عوارض النفس ، وهي تجري مجرى سائر

(١) في الأصل « وأن يحفظه »

(٢) زيادة اقتضاها سياق الكلام ومعناه

(٣) في اللسان « البيدر الموضع الذي يداس فيه الطعام »

العوارض الأخر كالغضب والشهوة والغيرة والرحمة والقسوة وسائر الأخلاق
التي يحمد الإنسان فيها إذا عرضت له كما ينبغي، وسائر الشروط التي أحصيناها
مرارًا كثيرة، ويذم فيها إذا عرضت خلاف هذه الشرائط

وإذا تهذبت النفس بالأخلاق فتكون هذه العوارض التي تعرض له
في مواضعها على ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي، فالحزن الذي يعرض كما ينبغي
هو ما كان في مصيبة(١) لحقت الإنسان بذنب اقترفه، أو لعيب وجد فيه، أو
ما له فيه سبب اختياري، أو سوء تدبير خصه دون غيره وهو جاهل بسببه،
فإن هذا الحزن وإن كان دون الأول فالإنسان مذموم به

فأما ما كان ضروريا، ولا وجه فليس يحزن به عاقل، لأن غروب الشمس
مثلا لما كان ضروريا لم يحزن له أحد، وإن كان عائدا على منافع كثيرة، وضررا
على أحد، ومنع بعض ... ومضرة في منافع لبعض، وكذلك هجوم الشتاء ١٠٠ب
والبرد، وورود الصيف بحر لا يحزن به عاقل إلا من سخف عقله، وقلت فطنته.

وأما الموت الطبيعي فليس يحزن به أحد، لأنه ضروري، وقد يحزن الإنسان
منه إذا وقع في غير الوقت الذي كان ينتظره، أو بعد الحاجة مخصوصة، وذلك
مثل الوالد على موت ولده؛ لأن الذي احتسبه أن يموت هو قبله.

فأما الولد فيقل حزنه على والده، لأن الأمر كما كان في حسبانه إلا أنه تقدم
شيئا بزمان يسير، أو كما ينبغي

فأما ما يعرض للحاسد، فإن كان الحاسد أن يختص دون من غبطته بنعمة
في ماله أو حسبه، فهو حزن لسوء الأخلاق ورداءة الطبع فإن هذا نوع مجهول
السبب، وذلك يقدر فيه ذو عقل.

وأما من يتمنى غيره من السوء مثل ما يحصل له غير شرق طبعه لا سيما إذا

---

(١) في الأصل «مصبه»

لم يَجِدْ عليه شيئاً، ولم يَجِدْ له نظائر، وحينئذ يحسن توبيخه وتأديبه. وقد أحسن الشاعر في قوله:

متى أَسْوُ كُلومَ غيري كَلْمِى ... ما بِهِمْ ما بِهِمْ وما بي ما بي

(٨٦)

مسألة

ما الخصائص التي بقيت في الأجناس الخمسة كالعرب، والروم، والفرس، والهند؟ وعلمت أنك حذفت الترك لأن لا أدب عندهم، فاقتصر بهم إلى ما يتصل به من كلامك ثم أحكمه، إذ كانت المسألة هي في قدر ما خرج من حكايتي.

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

[١٠١-١] لما كانت هذه المسألة موجهة إلى خصائص الأمم، والتعجب واقع ... تفرَّد به قوم دون قوم، أمسكتُ عن البحث عن ذلك، وتركتُ ترجمة ألفاظ المسألة.

وهذه سبيلي في سائر المسائل، لأن صاحبها يسلك مسلك الخطابة، ولا يذهب مذهب أهل المنطق في تحقيق المسألة، وتوفيتها حظها على طرقهم، وبالله التوفيق:

قد تقدم فيما مضى من كلامنا أن النفس تستعمل الآلات البدنية، فتصدر أفعالها بحسب أمزجتها، وحكينا عن جالينوس مذهبه، ودللنا على الموضع الذي يستخرج منه ذلك، وضربنا له مثلا من الحرارة الغريزية وغيرها إذ كانت حاضرة كيف تستعملها النفس الناطقة حتى تكون كما يسعى، وعلى من سعى،

وفي الوقت الذي ينبغي ، وأن الرياضة وحُسْنَ التقدير والترتيب ولزوم ذلك حتى
يصير سجيّة ومَلَكة — هي الفضيلةُ والخلق المحمود .

فإذا كان هذا الأصل محفوظاً فما أيسرَ الجواب عن مسألتك هذه !

وذلك أن لكل أمة مزاجاً هو الغالب عليهم ، وإن كان يوجد في النادر
وفي المفرط ما هو مخالف لذلك المزاج . وذلك لأجل التربة والهواء والأغذية
والمزاج التابع لذلك ، وما ذكرتَه أنت أيضاً من التعصب والسكون ... ومن
ذلك العالم هو المؤثرُ في هذا العدد بالجملة .

أما أولاً فبتمييز العناصر بعضها عن بعض ثم بمزجها[1] على الأقل والأكثر ،
ثم بإعطائها الصور والأشكال .

وليس لاستبعادك من الحق وجه ، ولا لإعجابك بما منه طريق ، فإنه
لأنه واجب .

ولولا أن مسألتك وقعت على غير هذا المعنى لاشتغلت به ، ولكن هذا أصل
له ، ولا بد في ذكر الفرع من ذكر الأصل . [١٠١ب]

وإذا كان هذا على هذا بحيث يتفق مزاج ما من الأمزجة الشريفة —
أعني في الأعضاء الشريفة وهي : القلب والكبد والدماغ — وأضيف إلى
ذلك ما ذكرناه من أخلاق وصفة — أعني ترتيب الأفعال الصادرة ، وحسن[2]
... ، وتهذيبها ولزومها بتكرير الفعل ، وإدمان العادة — فهناك تحصيل عصبية
الصادرة عنها .

وسواء أكان ذلك في أمة ، أو شخص ، أو كان ذلك عن ابتداء أخلاق

(١) « ... بعضه عن بعض لم مزجها »
(٢) في الأصل « الصاحبة وبحسب » .

شريفة ، وتأديب شيئاً فشيئاً بعد أن يكون مزاج مستعداً ، ولنعمة فائدة ، وزيادة مستمرة ، فإن الفضيلة حاصلة غير زائلة

(٨٧)

مســـألة

ما علة كثرة غم من كان أعقل ، وقلة غم من كان أجهل ؟

وهذا باب موجود في واحد واحد ، ثم نجده في جنس وجنس ، كالسودان والحمران ، فإنك تجد السودان أطرب وأجهل ، والحمران أعقل وأكثر غماً ، وأشد اهتماماً .

هذا ، ويقال ، إن المرح من الدم . والحمران أكثر دماً ، وأعدل مزاجاً ، وأوجد لأسباب المرح وآلات الطرب ، وأقدر على الدنيا بكل وجه .

وأنت ترى — أيضاً — هـذا العارض في رفيقين خليطين أحدهما مهموم بالطبع ، وآخر مُتَفَكِّهٌ بالطبع .

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه رحمه الله :

الغمّ يعرِضُ من جهتين مختلفتين إحداهما[1] جهـةُ الفكر ، والأخرى جهة المزاج .

فأما الفكر فإنه يعرض معه الغمّ إذا كان المرء ينتظر به مكروها .

وأما المزاج فهو أن ينحرف مزاج الدم إلى السواد أو الاحتراق فيتكدر [١٠٢ - ا] به الرّوحُ الذي سببه تحرّكُ الدم في مجاري الشرايين . وبحسب صفاء ذلك الدم يكون صفاء جوهره ، وانبساطه ، وسرعة حركته ، وجريه في ذلك التجويف

(١) في الأصل « أحدها » .

وإذا كان سبب الغم معلوماً ، فقد بان أن الذي هو سبب الفرح والسرور معلوم أيضاً.
فالعاقل — لأجل جولان فكره — يكثر استحضاره مكروه الذنب ، ومن
لا يكثر فكره ، ولا ينتظر مكروهاً ، فلا سبب له يغمه
وأما المزاج الذي ذكرناه ، فقد أحكمه « جالينوس » وأصحابه وسائر الأطباء
الذي تقدمه أو تأخر عنه .

وهذا المزاج من شأنه أن يكون عارضاً ، أو حادثاً ، أو طبيعياً في أصل الخلقة ؛
فإن كان حادثاً فهو مرض ، وينبغي أن يعالج بما [illegible] يسمى
حوبياً[1] أو نوع الأمراض السوداوية التي سببها فساد الدم بالاحتراق ، واحتراقه
في السوداء .

وإن كان أصلياً وطبيعة فلا علاج له ؛ لأنه ليس بمرض كالحبش من
الناس[2] فإن أمزجتهم كذلك

فأما ما حكيته عن السودان ، فإن الزنج خاصة لهم الفرح والنشاط ،
وسببه اعتدال دم القلب فيهم ، وليس كما ظن أن فرحتهم تابعة لسواد ألوانهم ،
وذلك أن سبب سواد ألوانهم هو قرب الشمس منهم ، وتأثيرها في [illegible]
[illegible] على سطح أبدانهم ، فهي تحرق جلودهم وشعورهم ، فيعرض فيها
أي في شعورهم — التفلفل الذي هو بالحقيقة تشيط الشعر ؛ ولأجل أن الحرارة
تستولي على ظاهرهم فهي تجذب الحرارة الغريزية من باطنهم إليه ؛ لأن الحرارة
تميل إلى جهة الحرارة ، فلا تكثر الحرارة الغريزية في قلوبهم لأجل ذلك .
وإذا لم تكن الحرارة الغريزية في القلب قوية ، لم يعرض للدم الذي هناك

(١) في مفاتيح العلوم ص ٩٨ « الحوب ضرب من الجنون ، وهو أن يحدث
[illegible] أفكار رديئة ، وسببه الحزن والخوف ، ويعرض ... وهو بالأفكار الرديئة ،
[illegible] كلامه »
(٢) في الأصل « كالحبال والناس »

احتراق، بل هو إلى الصفاء والرقة أقرب.

[١٠٢ ب] وهذه الروح رقيقة [illegible] وكذلك تقل / الشجاعة أيضاً فيهم.

وأما الخضران فأكثرهم في ناحية الشمال، والبلدان الباردة التي تبعد [illegible] عنهم، وتقوى الحرارة [illegible] في قلوبهم، ولاشتمال البرد على ظاهرهم تنقبض [illegible] بيضاً، وشعورهم سبطاً، وتعود حرارتهم إلى داخل أبدانهم هرباً من البرد [illegible] في مواضعهم لبعد الشمس عنهم، فهم لذلك شجعان، وأقوى حرارة قلوب.

وما بين هؤلاء لأجل ذلك بين الكدورة والشهوة والخروج عن الاعتدال.

وأهل الاعتدال [illegible] عن الشمس وعن الجنوب، و[illegible] الأوسط هم [illegible] من هذه الآفاق، وأصح مزاجاً، وأقرب إلى الاعتدال.

(٨٨)

مسألة

حدثني عن سبب [illegible] هي مسألة مسائل، وجواب عنها معبر لأجوبة [illegible] الشيب في [illegible]، وغنى في العي، والعفة في العسر، والوفر على [illegible] واللين في الحسب، والحسرة في [illegible]: وهذه كلها [illegible] [illegible] الناس به فيها، وهي حرمان الفاضل وإدراك الناقص. وهذا المعنى [illegible] الراوندي[١] ونسبه [illegible][٢]، وقال أبو سعيد الحصيري[٣] ما شئت، و[illegible]

(١) [illegible]

(٢) في [illegible] [illegible] الإسلام من عنقه [illegible] [illegible] [illegible] الإسلام من عنقه [illegible] في الأصل [illegible] [illegible] الإسلام [illegible] الإسلام، أي حدوده وأحكامه وأوامره ونواهيه.

(٣) قارن هذا بما جاء في كتاب الإمتاع والمؤانسة ٣/١٩٢ [illegible] أبو سعيد الحصيري [illegible] وهو الذي تظاهر بالقول بتكافؤ الأدلة.

«فلان» في الإسلام، وأرباب «فلان» في الحكمة

وحين نظر «أبو عيسى الوراق»(1) إلى خادم قد خرج من دار الخليفة [illegible](2) تقذف بين يديه، وجماعة تركض حوله، وقد رفع رأسه إلى السماء، [illegible] أوحدك بلغات وألسنة، وأدعو إليك بحجج وأدلة، وأنصر دينك بكل [illegible] وبينة، ثم أمشي هكذا عاريًا حافيًا جائعًا(3)، ومثل هذا الأسود يقلب [١٠٣-أ] في [illegible] ووشي، والخدم والحشم، والحاشية والغاشية(4)

ويقال هذا الإنسان هو «ابن الراوندي»(5)، ومن كان [illegible] الحديث في هذا الباب بين، والإسناد فيه عال، و[illegible] عن هذا الشر [illegible] فإنه [illegible] إلى [illegible] القلب، وسلامة [illegible] العقل، و[illegible] [illegible] له [illegible] وجهه [illegible] كأن [illegible]

[illegible] من [illegible] الثاني(6) فكأن [illegible]

(1) هو أبو عيسى محمد [illegible]
[illegible] رءوس الإلحاد في [illegible]
[illegible]
[illegible] سنة ٢٤٧ [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
(2) [illegible]
(3) [illegible]
(4) [illegible]
(5) [illegible] يحيى بن إسحاق الراوندي [illegible] الإسلام [illegible]
[illegible] وفيات الأعيان ١ / ٧٨ — ٧٩.
(6) [illegible] ١٣٢، ١٣٥ [illegible] الأفق [illegible] =

يدلان على العداوة[1] .

وحدثنا شيخ عن « ابن مجاهد »[2] أنه قال : الفضل معدود من الرزق ، كما أن الخفق[3] معدود في جملة الحرمان .

وقال لي شيخ مرة : اعرف أن لقسمه عدل ، والقاسم مُنصِف ؛ لأنه [illegible] ما أعطاك من الأدب والفصاحة واللسن والعقل أعطى صاحبك المال و[illegible] والكفاية والتدبير ، ونظر إلى النعمة كيف [illegible] . ثم انظر إلى [illegible] كيف اقتسم [illegible] [illegible] مع [illegible] ، وأملاه مع [illegible] [illegible] العدل إلا في [illegible] ، والحق إلا [illegible] .

ولعمري إن هذا مقدار لا يصبر عليه « [illegible] » ، ولا « التّماسخي » ولا « [illegible] » ، و[illegible] على كل [illegible] [illegible] من [illegible] .

* * *

ولو قد أوردنا الجواب عن مسائل هذه الرسالة [illegible] [illegible] ومسائلها في ذلك مشبع ومرْوِي [illegible] على ما قد اشتمل الضمير عليه ، و[illegible] [illegible] ليبة .

— [illegible] وهو [illegible] على الأفق [illegible] [illegible] وهو [illegible] في [illegible] على الأفق [illegible] [illegible] وهو [illegible] .

(١) [illegible] ([illegible]) [illegible] كوكبين أو [illegible] في [illegible] أو [illegible] كل [illegible] العداوة .

(٢) [illegible] أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد كان واحد عصره غير مدافع ، وكان مع [illegible] وعلمه ودينه ومعرفته بالقراءات وعلوم القرآن حسن الأدب ، رقيق الخلق ، كثير المداعبة ، ثاقب الفطنة ، جوادا ، ومولده سنة خمس وأربعين ومائتين ، وتوفي في يوم الأربعاء [illegible] من شعبان سنة أربع وعشرين وثلثمائة . [illegible] بغداد ٥/١٤٤ — ١٤٨ والبداية والنهاية ١١/١٨٥ .

(٣) في هامش المخطوطة : الخفض : النقص

الجـــــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

إن هذه المسألة كما حكيتَ ووصفتَ من صعوبتها على أكثر الناس، [١٠٣ب] والتباس وجه الحكمة فيها على أصناف أهل النظر حتى صار الكلام فيها مشبهاً فإنّ الشطرنج الذي يتنازعه الخصمان إلى أن يعظمهم الكلال والسآمة فيطرحونها قدماً، ثم يعودون فيها بعينها بعد آخر، فتكون صورتهم فيها واقفة خلف.

وكنت أحبّ أن أُفرِد فيها مقالة أشتمل على حجج مستقصاة تشفي وتكفي عند ما سألني بعض الإخوان ذلك: فإن أمثال هذه المسائل المتداولة بين الناس، المشهورة بالشك والحيرة — ليس ينبغي أن يقنع فيها بأمثال هذه الأجوبة التي سألت أنت فيها الإيجاز الشديد، وتمنيتُ فيها الإيماء إلى النكت، لا سيما وأنا لا أعرف في معناها كلاماً مبسوطاً لأحد ممن تقدّمني حتى إذا أومأتُ بالمعنى إليه أحلتُ بالشرح عليه، ولكني لما انتهيت فيها بالنظر لم أجز أن أخليها من جواب متوسط بين الإسهاب والإيجاز، وأنا مجتهد في بيانها، وإزالة ما لحق الناس من الحيرة فيها ومن عند الله أستمد التوفيق وهو حسبي، فأقول:

إن من الأصول التي لا منازعة فيها، وهي مسلمة من ذوي العقول السليمة أن كل موجود في العالم — طبيعي كان أو صناعي — غاية وكمالا وغرضا حيث وُجد من أجله وبسببه، أعني أنه به وُجد ليتمّ به ذلك الغرض، وإن كان قد يتم به أشياء أخر دون ذلك الغرض الأخير، والكمال الأخير، وقد يصلح لأمور ليست من / الغرض الذي قُصِدَ به وأُريدَ له في شيء. ومثال ذلك [١٠٤-أ] المِطرقة فإنها إنما أُعدّت للصانع ليتم له بها مدُّ الأجسام إلى أقطارها، وتسطيحها إلى نواحيها، وهي — مع ذلك — تصلح لأن يُشَقّ بها، وتُستعمَل في بعض

ما تستعمل فيه الفأس ، وكذلك أيضا المقراض يد أعدّ للخياط ليقطع به الثوب ، وهو — مع ذلك — يصلح لأن يُبرى به القلم ، ويستعمل مكان السكين وكذلك الحال فى سائر الآلات الصناعية .

وهكذا صور الأمور الطبيعية ، فإن الأصل إن عُددت مختلفات الأنواع والأشكال لاختلاف كمالاتها — أعنى الأغراض التى تتم بها ، والأفعال التى وُجدت من أجلها ، فإن مقدّميها حادة بالهيئة التى تصلح للقطع كالحال فى السكين ونواجذها عريضة بالهيئة التى تصلح للرض[1] والطحن كالحال فى الرحا ، وقد تتم بها أفعال أخر .

وكذلك الحال فى اليد والرجل ، فقد يستطيع الناس أن يعملوا بكل واحدة منهما غير ما خُلقت له ، ووجدت من أجله على سبيل الحاجة إلى ذلك ، أو على طريق التدريب به ، والتمحيص منه ، كمن يمشى على يديه ، أو يبطش ويكتب برجله .

ولكن هذه الأفعال — وإن صح صدورها عن هذه الآلات ، وتمت بها غير ما هو كمالها وخاص بها — فإن ذلك منها يكون على اضطراب ونقصان من الآلات التى من شأنها تمام الأفعال الخاصة بها ، المطبوعة منها ، الموجودة من أجلها .

وإذ كان [ذلك] مستمرا فى جميع الآلات الصناعية ، والأشخاص الطبيعية ، فكذلك الحال فى الأنواع كلها ، فإنك إذا تأملت نوعا منها وجدته [١٠٤ب] مستعدا لكمالات وأغراض خاصة بواحد واحد منها .

وهكذا يجرى الأمر فى أخص هذه الأنواع ؛ فإن الناطق وغير الناطق من الحيوان ليس يجوز أن يكون غرضهما وكمالهما واحدا ، أعنى أنه لا يجوز بوجه ولا بسبب ألا يكون للإنسان الذى مُيّز بهذه الصورة ، وأُعطى التمييز والروية ،

---

(١) فى اللسان : « رض الشىء يرضه رضا : لم يتم دقه ، وقيل : رضه رضا : كسره » .

وفضّل بالعقل الذى هو أجلّ موهوب له، وأُفضل مخصوص به — غرض خاص، وكمال خُلق لأجله، ووُجِدَ بسببه.

وإذا كان هذا الأصل موطّأً ومقرّرًا به، وكان على غاية الصحة، وفى نهاية القوة كما تراه، فهلمّ نبحث بحثًا آخر عن هذه الآلات الصناعية، والأشخاص الطبيعية، فإنا نجدها قد تشترك فى أشياء، وتفترق فى أشياء. أعنى أن المطرقة تشارك السكين والإبرة والمنشار وغيرها[1] فى الصورة التى هى الحديدية، ثم تنفرد بصورة لها تتميز بها من غيرها، والإنسان يشارك النبات والبهائم فى النمو والاغتذاء، وفى الاستمداد بالمأكل والمشرب وسائر راحات الجسد، ونفض الفضول عنه، ونريد أن نعرف هذا الاختصاص الذى لكل واحد منها بغرضه الخاص به، وكماله المفروض له هو ما لا يشاركه به غيره، ولا يساويه به، فنجده الصورة الخاصة به التى ميزته عن غيره، وصار بها هو ما هو. أعنى أن صورة الفأس التى بها هو فأس هى التى حصلت له خاصته وكماله وغرضه، وكذلك الحال فى الباقيات.

***

ثم نصير إلى الإنسان الذى شارك النبات والحيوان فى موضوعنا هذا فنقول. إن الإنسان من حيث هو حيوان قد شارك البهائم فى غرض الحيوانية وكمالها، [١٠١٠٥] أعنى فى نيل اللذات والشهوات، والتماس الراحات وطلب العوض مما يتحلل منه، لأن الحيوانية لما لم تكن صورته الخاصة به، المميزة له عن غيره لم تصر هذه الأشياء منه على تمام أحوالها، وذلك أنا نجد أكثر الحيوانات تزيد على الإنسان فى جميع ما عددناه، ونقصته فيها بالاقتدار على التزيّد والمساومة والاستعداد. ولما كانت صورته الخاصة به التى ميزته عن غيره هو العقل وخصائصه

---

(١) فى الأصل «وغيرها».

من التمييز والرويّة — وجب أن تكون إنسانيته في هذه الأشياء، فكل من كان حظه من هذه الخصائص أكثر كان أكثر إنسانية، كما أن الأشياء التي عددناها كلما كان منها حظه من صورته الخاصة به أكثر كان فضله وأشكاله أظهر.

* * *

ثم نعود إلى شرح مسألتك، ونبيّنها بحسب هذه الأصول التي قدّمتها فنقول:

لعمري إنه لو كان غاية الإنسان، وغرضه الذي وجد بسببه، وكماله الذي أُعدّ له هو الاستكثار من القنية، والتمتع بالأكل والمشارب، وسائر اللذات والراحات — لوجب أن يستوفيها بصورته الخاصة به، ولوجب أن تكثر عنده، ويكون نصيب كل إنسان منها على قدر قسطه من الإنسانية، حتى يكون الأفضل من الناس هو الأفضل في هذه الأحوال من القنية والاستمتاع بها، ولكن لما كانت صورته الخاصة به هي التي ذكرنا، علمنا أن القصد به، والغرض فيه، هو ما صدر عنه، وتمّ به، كتحصيل العلوم والمعارف، وإجالةِ الرَّويّة، وإعمالِ الفكر فيها، ليصل بذلك إلى مرتبة هي أجلّ من مرتبة البهائم، وسائر الموجودات في [١٠٥-ب] عالم الكَوْن والفساد، كأنه في نفسه وبحسب صورته أفضل منها كلها. وهذه المرتبة لا يصل إليها بغير الرَّويّة، وبغير الاختيار الخاصّين بالعقل.

ولا يجوز أن يقال في معارضة ما قلناه إن هذه الرَّويّة، وهذا الاختيار ينبغي أن يكون[1] في اللذات، لأنا قد بيّنا في هذا الموضع، وفي مواضع أخر كثيرة، أنّ تلك موجودة للحيوانات الخسيسة أوفر وأكثر بغير رويّة ولا عقل، وإنما تَشرُفُ الرَّويّة، وتتبيّن ثمرةُ العقل إذا استعمل في أفضل الموجودات. وأفضل الموجودات ما كان دائم البقاء غيرَ داثرٍ ولا مُتبدِّل، وغيرَ محتاج ولا فقير إلى

(١) في الأصل « تكون »

شيء خارج عنه، بل هو الحق بذاته، الذي فاض بجوده على جميع الموجودات، ونزّلها منازلها بقدر مراتبها، وعلى قدر قبولها، وبحسب استحقاقها.

فالرويّة والفكرة والاختيار، وما يشاكل هذه من صور الإنسانية إذا استعملت في الأمور الإلهية ليرتقى بها إلى منازل شريفة لا يمكن النطق بها، ولا الإشارة إليها إلا لمن وصل إليها، وعرف من باشر، وعلم لأى شيء عرض الإنسان من خيرات، ثم هو يطلب الانتكاس في الخلق، والرجوع إلى مرتبة البهائم ومن هو في عدادها ممن خسر نفسه، كما قال الله تعالى: «قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم»[1] فهذا — لعمرى — هو الخسران المبين الذي يتعوّذ بالله منه دائمًا.

ولقد تحمّى قول امرئ القيس مع قوة غريزته، وتحمية مسلكه، وشدته وتقدمه في طرق الشعر التى كان مستمسكًا بها، وتفننه في أوديته، متمعنًا [١٠٦-١] في معانيه:

أرانا موضعين لحتم غيب ... ونُسحَرُ بالطعام وبالشراب[2]

فما هذا الإيضاع منا؟ وما هذا الحتم من الغيب؟

لقد أشار إلى معنى لطيف، ودلّ من نفسه على ذكاء تام، وقريحة صحيحة، ألا تراه يقول: «ونُسحَرُ بالطعام والشراب» أى المرادُ منا، والمقصودُ بنا غيرُنا، وإنما نسحر ملهين.

فقد تبين أن الإنسان إذا لم تكن غايته هذه الأشياء التى تُسمّيها العامة أرزاقًا، ولم يخلق لها، ولا هي مقصودةٌ له بالذات — فليس ينبغي له أن يتمسك بها، وأن يتعجّب ممن اتفقت له، وإن كان يَتَشوّقها ويحبّها، فليس ذلك من

---

(١) سورة الزمر ١٥.

(٢) ديوانه بشرح البطليوسي ص ١٠٢.

حيث هو إنسان عاقل، بل من حيث هو حيوان بهيمي. وقد أُزيحت علّتُه في الأمور الضرورية التي يتم بها عيشه، ويصح منها سلوكه إلى غايته. ولم يُغفَل أحد في هذا، فتأمّله تجده بيّناً إن شاء الله.

(٨٩)

مســـــألة

ما العشق، وما يتبعه من الكلام؟

هذه المسألة مكررة، وقد مضى الجواب عنها مستقصى على شريطة الإيجاز وبعدها مسألة التوفيق، وقد مرت أيضاً، فليرجع إلى الأجوبة المتقدمة عنهما[١]

(٩٠)

مســـألة

الجواب أن يعرض[٢] مسألة الخير والاختيار، فيقال: ما الخير؟ وما الاختيار؟ وما نسبتهما / إلى العقل؟ وكيف تشابههما وتلاؤمهما؟ ‎[١٠٦ب]

أعني كيف اختلافهما في تشابههما؟ وذلك أنك تجدهما في لفظ مصاقبين بين الذين يجمعون بين العقل والحس، كما تجدهما مصاقبين إلى الذين يتفردون بالحس دون العقل

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله

إن الإنسان تصدر عنه حركات وأفعال كثيرة لا يشبه بعضها بعضاً.

(١) راجع ص ١٠٣ — ١٠٦

(٢) كذا في الأصل

وذلك أنه يظهر منه فعل من حيث هو جسم طبيعى ، فيناسب فيه الجماد .

ويظهر منه فعل آخر من حيث هو نام — مع أنه جسم طبيعى — فيناسب بذلك الفعل النبات .

ويظهر منه فعل آخر من حيث هو ذو نفس حساس ، فيناسب بذلك الفعل البهائم

ويظهر منه فعل آخر من حيث هو ناطق مميز فيناسب بذلك الفعل الملائكة ؛

ولكل واحد من هذه الأفعال والحركات الصادرة عن الإنسان أنواع كثيرة وإليها دواع ، وله أسباب ، ويتطرق النقص فيها من جهات مختلفة ، وتعرض لها عوائق كثيرة ، وموانع مختلفة ، بعضها طبيعية ، وبعضها اتفاقية ، وبعضها قهرية .

ومتى لم يتفصل النظر فى هذه الأشياء هذه الأفعال بعضها من بعض ، ولم ينظر فى جهاتها كلها — اختلطت عليه هذه الوجوه ، والتبس عليه وجه النظر فيها فعرضت له الحيرة ، وكثرت عليه الشبه والشكوك .

ونحن نبين هذه الحركات ، ونميزها ، ثم نتكلم على حقيقة الجبر والاختيار ، فإن الأمر حينئذ يسهل حده ، ويقرب فهمه ، ولا يغمض بمشيئة الله تعالى وعونه .

إن الفعل — مع اختلاف أنواعه ، وسائر جهاته — يحتاج فى ظهوره إلى [١٠٧ ر] أربعة أشياء :

أحدها الفاعل الذى يظهر منه

والثانى المادة التى يحصل فيها .

والثالث الغرض الذى ينساق إليه .

والرابع الصورة التى تتقدم عند الفاعل ، ويروم بالفعل إحداثها فى المادة ، وربما كانت الصورة هى الفعل بعينه .

فهذه الأشياء الأربعة هي ضرورية في وجود الفعل وظهوره ، وقد يحتاج إلى الآلة والزمان والبِنْيَة الصحيحة ، ولكن ليست بضرورية[1] في كل فعل .

ولما كانت مسألتك عن الفعل الإنساني الذي يتعلق بالاختيار وجب أن نذكرها أيضا .

ثم إن كل واحد من الأشياء التي هي ضرورية في وجود الفعل ينقسم قسمين فمنه قريب ، ومنه بعيد :

أما الفاعل القريب فمنزلة الأجير الذي يتناول آلات البناء في اتخاذ الدار والفاعل البعيد منزلة[2] الذي يهندس الدار ويأمر بها ، ويتقدم بجميع آلاتها

وأما الهيولى القريبة فمنزلة اللبن للحائط ، والخشب للباب والهيولى البعيدة بمنزلة العناصر الأول

وأما الكمال القريب فمنزلة السكنى في الدار .

والكمال البعيد بمنزلة حفظ المتاع ، ودفع أذى الحر والبرد وما أشبه ذلك

وأما أنواع الأفعال التي ذكرناها فإنها مختلفة بحسب أنواع القوى الموجودة التي في الإنسان ؛ وذلك أن لكل واحدة من القوى الشهوية ، والقوى الغضبية والقوى الناطقة خاصٌّ فعلٌ لا يصدُرُ إلا عنها .

[١٠٧-ب] وأما الأسباب والدواعي فبعضها الشوق والنزوع[3] ، وبعضها الفكر والرويّة ، وقد تتركب هذه .

وأما العوائق التي ذكرناها فبعضها اتفاقية ، وبعضها قهرية ، وبعضها طبيعية .

فالاتفاقية بمنزلة من يخرج لزيارة صديقه ، فيلقاه عدو لم يقصده ، فيعوقه عن عزمه ، ولكن ينهض لحاجة فيعثر ، أو يقع في بئر

---

(١) في الأصل : « بضرورة » .
(٢) في الأصل « منزلة »
(٣) في الأصل « والنزاع »

والقهرية بمنزلة من يشدّ يديه اللصوص ليعوقوه[١] عن البطش بهما ، أو كمن يقيده السلطان ليمنعه من السعي والهرب منه

والطبيعية بمنزلة الفالج والسكتة وما أشبههما .

* * *

وههنا نظر آخر في الفعل ينبغي أن نذكره وهو أن ربما نظرنا في الفعل لا من حيث ذاته ولكن من حيث إضافته إلى غيره ، مثل ذلك أنا قد ننظر في فعل زيد من حيث هو طاعة غيره أو معصية ، ومن حيث يحبه عمرو ويكرهه بكر ، ومن جهة ما هو صبر أو شكر ودفع نعمة الله . وهذا النظر ليس يكون في ذات الفعل بل في إضافته إلى غيره .

وإذ قد نظرنا في النفس ، وأنواعه ، وجهاته ، وحاجته في ظهوره ووجوده إلى الشرائط التي عددناها ، فيجب أن ننظر في الاختيار ما هو فنقول :

إن الاختيار مشتقة بحسب اللغة من الخير ، وهو افتعال منه وإذا قيل : اختار الإنسان شيئاً فكأنه افتعل من خير أي فعل ما هو خير له : إما على حقيقة ، وإما بحسب ظنه . وإن لم يكن خيراً له بالحقيقة ، فالفعل الإنساني يتعلق به من هذا الوجه ، وهو ما صدر عن فكر منه ، وإجالة رأي فيه ليقع منه ما هو خير له . ومعلوم أن الإنسان لا يفكر ، ولا يجيل رأيه في الشيء الواجب ولا في الشيء [١٠٨-١] الممتنع ، وإنما يفكر ويجيل رأيه في الشيء الممكن ، ومعنى قولنا الممكن هو الشيء الذي ليس بممتنع ، وإذا فرض وجوده لم يعرض عنه محال .

ولما كانت هذه الجهة من الفعل هي المتعلقة بالاختيار ، وهي التي تخص بالفعل الإنساني ، وكانت محتاجة في تمام وجود الفعل إلى تلك الشرائط التي قدمناها ، كان النظر فيها — أعني في هذه الجهة — يعرّض للغلط والوقوع في

---

(١) في الأصل « ليعوقه »

تلك الجهات الأخر التى ليست متعلقة بالإنسان ، ولا مبدؤها إليه . ... بحسب جهة من جهات الفعل ، وخلى النظر فى الجهات الأخر ، فيكون حكمه فى الفعل الإنسانى بحسب تلك الجهة ، وذلك بمنزلة من ينظر فى الفعل من جهة ... المختصة به التى لا بد له فى وجوده منها[1] ، و ... عن الجهات الأخر التى ... أيضا ضرورية فى وجوده ، كالقاعد للكاتب فإنه إذا نظر فى فعل الكاتب هذه الجهة ، أعنى تعذر القاعد عليه حتى أنه عاجز عن الكتابة من هذه الجهة ، ممنوع عن الفعل لأجلها ، وهذه جهة ... تتعلق به من حيث هو كاتب ... للكتابة ، وكذلك إن عدم القلم والجارحة الصحيحة ، أو واحداً من تلك الأ... المشترطة فى وجود كل فعل إنسانى تخصيه بقدر هذا النظر بحكم على الإ... بالجبر[2] ، ويمنع من الاختيار .

وكذلك يكون حال من نظر فى فعله من حيث هو مختار ، فإنه إذا نظر فى هذه الجهة ، وخلى عن الجهات الأخر التى هى أيضا ضرورية فى وجوده ، فإنه ... سيبادر إلى الحكم عليه بأنه فعل متمكن ، ويمنع من الجبر .

[١٠٨ب] وهكذا حال كل شىء مركب من بسيط فإن الناظر فى ذلك المركب إذا ... فيه بحسب جزء من أجزائه الذى تركب منه ، وترك أجزاءه الباقية — تعرض له الشكوك لكثيرة من أجزائه الذاتية التى ترك النظر فيها .

والفعل الإنسانى وإن كان اسمه واحداً ، فوجوده معلق بأشياء كثيرة لا ... إلا بها ، فمتى لحظ الناظر فيه شيئاً واحداً منها ، وترك ملاحظة الباقيات عرضت له الشكوك من تلك الأشياء التى أغفلها .

والمذهب الصحيح هو مذهب من نظر فى واحد واحد منها ، بحسب الفعل

(١) فى الأصل « منه » .

(٢) فى الأصل « الجبر » .

إلى الجميع، وخصّ كلَّ جهة بقسط من الفعل، ولم يجعل الفعل للإنسان اختيارا كلّه، ولا تفويضاً كلّه؛ وهذا قيل: دين الله بين الغلو والتقصير. فإن من زعم أن الفعل الإنساني يكفي في وجوده أن يكون صاحبه متمكناً من القوة الفاعلة بالاختيار فهو غالٍ من حيث أهمل الأشياء الهيولانية، والأسباب القهرية، والعوائق التي عددناها قبل. وهذا يؤدّيه إلى التفويض.

وكذلك حال من زعم أن فعله يكفي في وجوده أن ترتفع هذه العوائق عنه، ويحصلَ له الأشياء الهيولانية فهو مُقصِّر من حيث أهمل القوة الفاعلة بالاختيار وهذا يؤدّيه إلى الجبر.

وإذا كان هذا على ما بيّناه وحصّلناه فقد ظهر مذهب الحق، وفيه جواب مسألتك عن الجبر والاختيار.

ونعلم علماً واضحاً أن الإنسان إذا امتنع عليه فعل لنقصان بعض هذه الأشياء التي هي ضرورية في ظهور فعله، أو عرضيته فيه، أو قهرية، أو معاقبة فهو مدفوع إلى تلك الجهة. مثال ذلك أنه إن كان امتنع من الفعل لنقصان الهيولى، أحد الأربعة الأشياء الضرورية فهو عاجز، وإن منع بعائق قهري أو اتفاقي [١٠٩-ا] فهو معذور من تلك الجهة وبحسبها، وعلى مقدارها.

فأما من حضرته القوة الفاعلة بالاختيار، وارتفعت تلك الموانع عنه، وانزاحت علله فيها كلّها، ثم كان ذلك الفعل مما يُحظر عليه على طريق الإساءة أن يكون طاعة من تجب طاعته، أو معونة من تجب معونته، أو غير ذلك من وجوه الإضافات الواجبة، ثم امتنع من الفعل فهو ملوم غير معذور؛ لأنه قادر متمكن؛ ولأجل ذلك تلحقه الندامة من نفسه، والعقوبة من غيره، أو العتب والذم.

وهذه الجهة التي تختص الإنسان من جهات الفعل المتعلقة بالفكر، وإجالة

(٩١)

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وإذا كانت الحاسة على هذه الصورة في الشوق إلى ما يتمم وجود الحواس،

ويخرجها في الفعل ، وكان من الظاهر المعروف أن بعض الناس يشتاق إلى …
منها فيحتمل فيه كل مشقة وأذى حتى يبلغ أربه فيه — لم يكن بديعاً ولا …
أن يشتاق آخر إلى نوع آخر فيحتمل مثل ذلك فيه ، إلا أن وجدت اللغة في بعض
هذه قد عنيت فوضعت له اسماً ، وفي بعضها لم تعن وأهملته ؛ وذلك أن قد وجد
لمن يشتاق إلى [المأكول] والمشروب إذا أفرطت قوته النزوعية إليهما …
يعرض له ماذكرتُ من الحرص عليهما . و … النَّوْشُ إليهما ما يحتمل معه ضررا
الكَلَبِ والشَّرَه … اسماً ، وهو الشَّرَهُ والنَّهَمُ . … من يعرض له ذلك
المشموم والمسموع … وعلى ذلك لأجل كثرة ما يوجد من ذلك الضرب ،
ولأن فيه الخسّ ، وما … من … أكثر

[١١٠ب] قد ظهر السبب في شوق بعض الناس إلى الغربة وتجولات الأرض
وهو أن قوته النزوعية إلى تحصيل المعرفة تحث الاستكثار من المنظر …
وتجديده ، ويظن أن تحصيل منظرات متفرقة ، فهو يحتمل كثيراً من …
في الوصول إلى أربه من إدراك هذا النوع

وقد عد من يحتمل أكثر من ذلك إذا تحركت قوته الداعية إلى …
المحسوسات الأخر ، والاستكثار منها … ، وأعد نظرك ، و…
جزئياته تجد الأمر فيها واحداً .

(٩٣)

مسألة

ما سبب رغبة الإنسان في العلم ؟

ثم ما فائدة العلم ؟ ثم ما عائدة الجهل ؟ ثم ما عائدة الجهل لدى قد
شَيْن الخَلْق ؟

وما سر العلم الذى قد طُبِعَ عليه الخلق ؟

فإن استشفّ هذه الفصول ، واستكشف هذه الأصول يثيران علما وحكما جمّا ، وإن كان فيها — فى البحث عنها ، وبعض ... وأوعرها — مشقة على النفس ، وثقل على الكاهل . ولولا معونة الحق فمن كان يقطع هذه التنائف الشُّمس ! ومن كان يسلك هذه المهامه الخرس ؟ ولكن الله — تعالى — ولىّ المخلصين ، وناصر المطيعين ، ومثبت المستصرخين .

الجواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله :

قد تقدم فى عرض كلامنا على هذه المسائل ما ينبّه على جواب هذه المسألة . لكنه لا بأس بإعادة شىء منه ... فى كشف الشبهة ، وإزالة الشك . وهو أن الإنسان من حيث هو إنسان ، لأنه إنما صار إنسانا بصورته التى تميّز بها من غيره ، أعنى النطق والتمييز والرؤية .

وهذه الصورة التى تميَّز بها ليست فى تخطيطه وشكله ولونه . والدليل على [١-١١١] ذلك أنك تقول : فلان أكثر إنسانية من فلان . فلا تعنى به أنه أتم صورة بدن ، ولا أكثر فى الخلق التخطيطى ، ولا فى اللون ، ولا فى شىء آخر غير قوته الناطقة التى يميز بها بين الخير والشر فى الأمور ، وبين الحسن والقبيح فى الأفعال ، وبين الحق والباطل فى الاعتقادات . ولذلك قيل فى حد الإنسان إنه حى ناطق مائت . فالتمييز والنطق ، أعنى التمييز بينه وبين غيره ، دون تخطيطه وشكله ، وسائر صفاته ولواحقه .

وإذا كان هذا المعنى من الإنسان هو ما صار به إنسانا ، فمتى كثرت إنسانيته كان أفضل فى نوعه كما أن كل موجود فى العالم إذا كان فعله الصادرُ

٩٣

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

تظهر بحسب الأمزجة ، فتلك القوى المختصة إضافات مختصة إلى نسب محدودة ، واعتدالات مختلفة .

وقد اجتهد أصحاب الموسيقى فى تمثيل هذه النسب ، وتحصيل هذه الاعتدالات ، بأن جعلوها مثبتة فى مقولة الكم من العدد ، وإن كان بعضها بمقولة الكيف أحق ؛ لأن الصناعة مؤلفة من هاتين المقولتين أعنى الكم والكيف ، ولأن الكمّ الذى هو العدد أقرب إلى الأفهام ، ومثّلوا ما كان من الكيفية بالكم ، ثم خصّوا كل واحدة منها بتخصيص تجده مثبتاً فى كتبهم .

وإذ قد قلنا ما الذى يصل إلى النفس من آثار الأصوات ، وما المحبوب منه ، وما المكروه على طريق الإجمال من القول ، فقد بقى أن الإفراط منه ، والخروجَ إلى إحدى الجهتين يؤثر بحسب ذلك

وقد كان سبق فى مواضع كثيرة أن النفس والبدن كلٌّ واحد منهما مشتبك بالآخر ، وكثيراً ما يظهر أثر أحدهما فى الآخر ؛ فإن الأحوال النفسية تغير مزاج البدن ، ومزاج / البدن أيضاً يغير أحوال النفس ، فإذا قوى أثر من النفس حتى يتعدى به المزاج ، ويخرج عن اعتداله بقبل أثر النفس ، وعرض منه الموت ؛ لأن الموت ليس إلا كف من رتبة النفس استعمال الآلات البدنية علما أن دم القلب الذى له اعتدال ما إذا انتشر فى البدن ، ورقّ بالسرور أكثر مما ينبغى ، أو عاد واجتمع إلى نفسه بالغم أكثر مما ينبغى — عرض من كل واحدة من الحالتين الموت ، أو ما يقرب الموت بحسب قوة الأثر

وما أكثر ما تؤثر الأجسام فى الأجسام تأثيراً طبيعياً فيتأدّى ذلك الأثر إلى النفس فتعرضُ لها حركة ما ، وتصير تلك سبباً لتأثير آخر فى الجسم يكون به انتقاضه وخروجه عن الاعتدال . وإذا تأملت ذلك فى الأشياء المغضبة والمحزنة إذا كانت قوية تبيَّن لك ذلك .

فهذا كاف في هذا الموضع، وإن أحببت الاتساع فيه فعليك بكتب الموسيقا ففيها تشفيك، إن شاء الله.

(٩٤)

مسألة

لِمَ كان شاب المسن شابَّ الأمل؟ قال أبو عثمان النهدي(١): قد أتت عليّ مائة وثلاثون سنة، وأنكرت كل شيء إلا الأمل، فإنه أحدُّ ما كان(٢).

ما سبب هذه الحال؟ وعلى ماذا يدل الرمز فيه؟

وما الأمل أولاً؟ وما الأمنية ثانياً؟ وما الرجاء ثالثاً؟

وهل تشتمل هذه على مصالح العالم؟

فإن كانت مشتملة فلِمَ تواصى الناس بقصر الأمل، وقطع الأمنية، وصرف الرجاء إلا في الله — [illegible] — فإنه ساتر العورة، ومقيل العثرة، وفاتح التوبة، وغافر الخطيئة، وكل أمل في غيره باطل، وكل [١١٣-ا] رجاء في سواه زائل؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

هذه مسألة قد أُخذ فيها طرف من فعل النفس فقُرِن معه من أفعال الطبيعة التي بحسب النفس إلى الطبيعة والمزاج البدني، ثم وقعت المغالطة فيهما، وهما

---

(١) هو عبد الرحمن بن مل بن عمرو، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، وشهد فتح القادسية ونهاوند وغيرهما، وتوفى بالبصرة في أول ولاية الحجاج العراق، كما قال ابن قتيبة في المعارف ص ١٨٨ وفي سنة خمس وتسعين وهو ابن سنة أو بعدها. راجع تاريخ بغداد ١٠/٢٠٢ — ٢٠٥

(٢) المعارف ص ١٨٨ وتاريخ بغداد ١٠ : ٢٠٤

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

* * *

[illegible]

(٢٥)

وعلى ماذا يدل اشتقاقها ؟ وهل هي محمودة أو مذمومة ؟ وهل صاحبها ممدوح
أم ملوم ؟

فإن نُدْرَةَ هذا أَنْبَهَتْ بك إلى الفوائد، وأَحْرَى بك إلى الأمد، ويوقفك
عليها تعرفُ غيرها، وتتخطى إلى ما بعدها .

الجـــــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

[١١٤-١] / أما الغَيْرةُ فهي خُلُق طبيعي عام للإنسان والبهائم .

وهو ممدوح إذا كان على شرائط الأخلاق . أعني إذا وضع في خاص موضعه
ولم يتجاوز به المقدار الذي يجب ، ولا ينقص عنه على مثال ما ذكرناه فيما تقدم
من سائر الأخلاق كالغضب والشهوة . فإن هذه أخلاق طبيعية وإنما تحمد
ما لم تخرج عن الاعتدال ، وأصيب به موضعه الخاص به .

وحقيقة الغيرة هي منع الحريم ، وحماية الحوزة ؛ لأجل حفظ النسل
والنسب فكلّ من كانت غيرته لأجل ذلك ، ثم لم يتجاوز ما ينبغي حتى يأخذ
بالتهمة الباطلة ، فيصدّق بالظنون الكاذبة ، ويبادر إلى العقوبة على ذلك ، ولا
ينقص عما ينبغي حتى يتغافل عن الدلائل الواضحة ، ويترك الامتعاض من
الشنيع إذا كان حقاً ، وكان معتدل الخلق بين هذين الطرفين يغضب كما ينبغي
وعلى ما ينبغي — فهو محمود غير ملوم .

فأما من فرّط أو أفرط في الغيرة فسبيله سبيل من تجاوز الاعتدال في سائر
الأخلاق إلى الزيادة أو النقصان . فقد بيّنّا أن الزيادة والنقصان في كل خلق
يهجُمُ بصاحبه على ضروب من الشر ، وأنواع من البلايا والمكاره ، ويكون

ه ٬كه على مقدار زيادته أو نقصانه منه ومن شرائطه المذكورة في الأخلاق .

* * *

فأما زيادة حظ الأنثى على الذكر من الغيرة ، أو الذكر على الأنثى فليس
[illegible] طريقة واحدة ، ولا جارٍ على ... وتيرة[1] واحدة ... زاد ذكر على
... في هذا المعنى ، وربما زادت أنثى على ذكرها فيه ، كما يعرض لهما ذلك في قوة
... وغيره من الأخلاق .

على أن الذكر أولى بالمغاناة ، وأخص بها حتى أنه تستعمل فيه قوة الغضب
و ... ، وهذا أولى بالذكر منه بالأنثى ، وإن كانت الأنثى شريكة فيه للذكر. [١١٤-ب]

وههنا خصلة لا بأس بذكرها ، والتنبيه عليها ، فإن كثيراً من الناس يخفى
... وجه الصواب فيها ، وهي أن الغيرة إذا ذهبت قوتها وكان سببها الشهوة ،
و ... الاستئثار ، وأن يختص الإنسان بحال لا يشركه فيها غيره ، وكان هذا
... عرض له في غير حرمته ، ولا من أجل حفظ ... وورعه ... فهو أمر قبيح
وإن كانت على شرائطها التي ذكرت فهو أمر حسن جميل .

وأما سقوط هذه القوة دفعة فخَصْلة قبيحة ، فقد نجد في بعض الحيوان من
لا ... له الغيرة كالكلب والتيس ، ونشبه الإنسان إذا ذكر ... به ، ونسمي باسمه .
ونجد أيضاً بعضها غيوراً محامياً كالكبش وغيره من فحول الحيوان فيمدح
... الإنسان إذا شبه به ، ونسمي باسمه .

... لست أعرف وجه السبب في ذلك ، والمدح بالكبش[2] إلا ما يظهر من هذا
الخُلُق في أحدها دون الآخر .

---

(١) في اللسان عن الجوهري « ... من الأرض ... »

(٢) في اللسان « ... الكبش ... وكبش القوم رئيسهم وسيدهم ،
وقيل : كبش القوم : حاميهم والمنظور إليه فيهم ، ... وكبش
الكتيبة : قائدها » .

[illegible]

(١٩٦)

مسألة

[illegible]

[illegible]

جواب

[illegible]

[illegible]

[١١٥ ب] [illegible]

[illegible]

[illegible]

ذلك [illegible] كل موضع [illegible]

ثم [illegible] الأعضاء [illegible] كثيرة من الأعصاب [illegible]

[illegible] وغيره، وحركة [illegible]

يخرجه عن هذه الأعصاب [illegible] كثيرة والآفات الأخرى التي تعرض [illegible]

مما لا تحصى كثرة

وقوتهم على الإحاطة وضعفهم [illegible] ضعفت(١) على ما سئلت عنه ، وتبين [illegible]
ما ضربت به المثل

(٩٧)

مسألة

ما السبب في طلب الإنسان في جميع ما يقوله ويفعله ويرتئيه ويَ[illegible]
فيه — الأمثال ؟
وما فائدة المثل ، وما عند المثل(٢) ، وعلى مَن قراره ؟
فإن في المثل وشبهه وتمثيل كلامًا رائعًا ، وحجة شريفة .

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

إن الأمثال إنما تضرب فيما لا تدركه الحواس مما تدركه .

والأنس في ذلك أشد بالحواس ، وإلفنا لها متقدم أول كوننا ، ولأنها مبادئ
علومنا ، ومنها نرتقي إلى غيرها . فإذا أخبر الإنسان بما لم يدركه ، أو حدث بما
لم يشاهده ، وكان غريبًا عنده — طلب له مثالًا من الحس ، فإذا أعطى ذلك
أنس به ، وسكن إليه لإلفه له .

وقد يعرض في المحسوسات أيضًا هذا العرض . أعني أن إنسانًا لو حدث
عن النعامة والزرافة والفيل والتمساح طلب أن تصور له ليقع بصره عليه ،
[١١٦] وتحض تحت جثة المغري ، ولا يقع في طريقه حس البصر يحس [illegible]
حتى يرده إليه عينه .

---

(١) [illegible] في الأصل : [illegible]

(٢) في الأصل : « وما عنده وهو [illegible] »

وهكذا الأمر في الموهومات فإن إنساناً لو كُلّف أن يتوهم حيواناً لم يشاهده
ولم يسأل عن مثله ، وكُلّف مخبره أن يصوّره له ، مثل عنقاء مغرب ، فإن هذا
يول ، وإن لم يكن له وجود ، فلا بد لمتوهمه أن يتوهمه بصورة مركّبة من
من حيوانات قد شاهدها .

فأما المعقولات فلما كانت صورها ألطف من أن تقع تحت الحس ، وأبعد
من أن تُسلك تمثال الحسي إلا على جهة التقريب — صارت أحرى أن تكون
[illegible] عبر[1] مألوفة . [و] النفس تسكن إلى مثل وإن لم يكن مثلا ؛ ليستأنس
به من وحشة الغربة ، فإذا ألفتها ، وقويت على تأملها عين عقلها من غير مثال
لم تحتج حينئذ عليها إلى مثلها . والله الموفق لجميع الخيرات .

(٩٨)

مسألة

كيف قوي الوهم على أن ينقش في نفس الإنسان أوحش صورة ، وأمقت
شيء ، وأقبح تخطيط ، ولم يقو على أن يصور أحسن صورة ، وألطف شكل
وأبهج تخطيط ؟

ألا ترى أن الإنسان كلما اعترض[2] في وهمه أوحش شيء ، عرته شمئزازة
وعراه قشعريرة ، وخفقة ضدوف ، ورهقة[3] تعور ؟

فلو قوي الوهم على تصوير أحسن الحسن لتمثّل به الإنسانُ عند فراغ باله
[illegible] قدر هذا ؟ وكيف هذا ؟

---

١) في الأصل « عن » .
٢) في الأصل « إن الإنسان كما يعترض » .
٣) رهقه : غشية .

ولا عجب فهذا الإنسان من هذه الفطرة والعقل والطبيعة أمورٌ تشتدّ
العجب، وتحيّرُ النفس. جلّ من أودع هذا الوعاء هذه اللطائف، وعرّف
هذه العجائب، ورتّب هذه المراتب، وحشى بعضه، وصرّفه بين أمنٍ وخوف، ورجاء
وخيفة، وحجبه عن إدراك ذلك عن إنٍّ وكيف

[١١٦ س] الجـــواب

قال أبو علي مسكويه رحمه الله

إن الحسن هو صورة تابعة لاعتدال المزاج، وتحدث تناسبات من الأعضاء
بعضها إلى بعض في الشكل واللون وسائر الهيئات. وهذه حال لا تتفق في
جميع أجزائها على الصحة، وذلك لا تقوى الطبيعة نفسها على تحديدها في المادة
على الكمال؛ لأن الأسباب لا تستمر عليها، على أنه لا تتفق في هذه
الأشكال والصورة والمزاج أن تصل الصورة الأخيرة على غاية الصحة.

فإذا كانت الطبيعة تعجز عن إيجاد هذا الاعتدال وهذه المناسبة الصحيحة
التي تسمى الحسن التام، فكم بالحرى تكون الوهم أعجز عنه لأنه تابع
للحس، والحس تابع للمزاج، والمزاج تابع أثر من آثار الطبيعة. ومثال ذلك
أن الأوتار الكثيرة إذا تناسبت وتكثرت بالمتناسبات[1] عليها أن تخرج من
بينها نغمة مقبولة، ووصلت النغمة إلى السمع بعد جميع الآلة وأجزائها من الأوتار
والمتناسبات بأعراض مختلفة. فالنغمة وإن كانت واحدة فإنها تتم بمساعدة جميع
تلك الأجزاء. فإذا خرج واحد منها خرجت النغمة كريهة؛ إما بعيدة من ...
وإما قريبة على قدر تخلف الأسباب وقصور بعضها

(١) سبق شرحها في صفحة ١٦٣

فكذلك الهيولى[1] في حاجتها إلى مزاج ما بين الأسطقسات[2] وصور[3]
[illegible] كثيرة تصير جميعها مستعدة لقبول صورة الحس الذي هو اعتدال ما ،
[illegible] صحيحة بين أمزجة وأعضاء في الهيئة والشكل واللون وغيرها من الأحوال
[illegible] مجموعها كلها هو الحس

والحس وإن كان أمراً واحداً ، وصورة واحدة فهو مثل النغمة الواحدة
[illegible] التي تحتاج إلى هيئات كثيرة ، وصور مختلفة [illegible] يحصل من بينها [١١٧-أ]
[illegible] الاعتدال المقصود

[illegible] في خروجه عن الاعتدال [illegible] حركة [illegible] في حفظه إياه[4] ،
[illegible] إليه فإنه يحتاج إلى بعث شديد ، وأخذ مقدمات كثيرة ، واستخراج
[illegible] بينها

وهكذا الحال في كل اعتدال ، فإن حفظه والثبات عليه صعب [illegible] وما
[illegible] عنه فهو أدنى حركة

فإن اتفق أن يكون ذلك الاعتدال حادثاً من خارج ، ومعونات من
[illegible] مختلفة كانت الصعوبة في تحصيله أشد

(١) في مفاتيح العلوم ص ٨٦ [illegible] كل جسم [illegible] ، كالخشب للسرير [illegible] [illegible] فأما [illegible] [illegible] الأعلى [illegible] ثم العناصر [illegible]
(٢) الأسطقس [illegible] ، كالحروف [illegible] الكلام ، وكل واحد [illegible] والأسطقسات أربعة [illegible] والأرض [illegible] العناصر .
(٣) الصورة [illegible] الشيء وشكله [illegible] كمفاتيح [illegible] ٨٦ .
(٤) في الأصل « إياها » .

(٩٩)

مسألة

لِمَ صار السرور إذا هجم كان تأثيره أشد، وربما قتل؟

وقد حكي أن جماعة من ذوي المروءة [illegible] وقد خبرت والدة بعض الناس أن ابنها

ولي إمرة فسرت(1) وانخرقت، وما زالت تنتقص حتى ماتت. [illegible]

أن هذين الحيرة التي تلحق واحداً لفرحه هي من إفراط فرحه، وعلة ذلك

ولذلك ما نسمع على شدته وسرعة(2) حركاته، وتسوق خطفه عن كتمان [illegible]

وسياسته

ولا يكاد يجد هذا العارض في أمر واحد [illegible]، ولأن ما وجد من

الشفق من أمره، وما عملت نيته، ووجدت عقيدته ومسرته بحيرته [illegible]

ومكروه غشيه [illegible] فإن كان هو أيضاً قبيل، ومن ساوى عارض [illegible]

فذلك أعجب، والسر فيه أغرب.

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله.

قد مر جواب هذه المسألة في عرض ما تكلمنا عليه في المسائل المتقدمة.

وقلنا: إن النفس تؤثر في المزاج المعتدل عن البدن، كما أن المزاج يؤثر في

[١١٧ب] النفس، وبينا جميع ذلك، وضربنا له الأمثال. وليس شك أن السرور يحمر

منه الوجه، وأن الخوف يصفر منه. وما ذلك إلا لانبساط الدم من داخل إلى خارج

(1) في الأصل: [illegible] فلم يعرف»

(2) في الأصل «[illegible]»

الد ، وعوزه من الاحر إلى قفر لسن ، وحرارة التي في القلب هي التي تعمل
ه ، على أنها تبسط فتعرق تارة ، وتنقبض فتعطش أخرى ، ويمنع
بالحال الشرور ، ويتبعه هذه العوارض فإذ كان ... تقدر في أي طرفين
كان بيعة خروج من الاعتدال ويحسب الخروج من الاعتدال يكون
... الوحى[1] ، والمرض الشديد

(١٠٠)

مسألة

ما ... ب ... الإنسان ... معرفة ... من جسمه العافية
... فيه ، حتى لو شكا ... ، وهو ... في ... فلا يجده
... ، وإنما يعقله ... ، وذهب ... ؛ وقد قال الشاعر[2]

... فيرانى ... كنت ...

... هذه ... شكر ... وعند ذلك
... أحدهما لا عنده الآخر

الجواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله .

السبب في ذلك أن العافية إنما هي حال ملائمة موافقة للحال الطبيعي من
أجزاء المعتدل الموضوع لذلك البدن .

والملائمة والموافقة لا يحس بهما ، وإنما الحس ... العدى الذى
لا ... فيه .

---

1) الوحى : السريع .
2) هو أبو تمام كما في ديوانه ص ١٥٥ وزهر الآداب ٤/١٣

والسبب فى ذلك أن الحس إنما أعطى الحيوان ليتحرز به من الآفات
الطارئة عليه، ويكون الحس بما يرد عليه مما لا يوافقه سبباً لتلافيه وتداركه قبل
أن يحدث مراحه، ويسرع هلاكه. فأنشئت[1] لذلك أعصاب من الدماغ
[١١٨-أ] ووزعت[2] فى جميع البدن / ونسجت بها الأعضاء التى[3] تحتاج إلى إحساس،
كما بين ذلك فى التشريح، وفى منافع الأعضاء. فكل موضع من البدن فيه
عصب فهذا حس، وكل موضع خلا منه فلا حس فيه، ولم يخل منه إلا
ما لا حاجة به إلى حس.

وإنما وفرت الأعصاب على الأعضاء الشريفة لتصير أذكى حساً،
ولتكون بما يرد عليها من الآفات أسرع حساً، وكل ذلك ليبادر إلى
ما يجده من الأذى بالعلاج، ولا يغفل عنه بنوم ولا غيره.

ولو خلا الإنسان من الحس ومن الأذى ومكابدته لكان هلاكه وشيكاً
من الآفات الكثيرة

وأما حال الملاءمة فلا يحتاج إلى إحساس بها[4]، وهذه حال جميع الحس
الحس فى أحواله الطبيعية، وأنه لا يحس بما يلائمه، وإنما يحس بما لا يوافقه.

أقول: إن حس اللمس الذى هو مشترك بجميع البدن إنما يدرك ما زاد أو
نقص عن اعتداله الموضوع له؛ فإن البدن له اعتدال من الحرارة مثلاً فإذا كان
من حرارة الهواء ما يلائمه ويوافقه لم يحس به أصلاً. فإن خرج الهواء عن ذلك
الاعتدال الذى للبدن به إلى برد أو حر أحس به فبادر إلى تلافيه وإصلاحه
وكذلك الحال فى البرد والرطوبة واليبوسة. فأما سائر الحواس فلكل واحد

(١) فى الأصل « فأنشئ »
(٢) فى الأصل « ووزع »
(٣) فى الأصل « ونسج به الأعضاء الذى »
(٤) فى الأصل « به »

منها اعتدالٌ خاصٌ به لا يُحِسُّ بما يلائمه و بما يُحِسُّ بما يضادُّه و يزيله عن اعتداله الخاص فإنها لا تُحِسُّ بالهواء و بكل ما لا لون له ولا كيفية تزيلها عن اعتدالها. وكذلك السمعُ و باقي الحواس. وهذا باب مستقصىً في مواضعه من كتب الحكمة فَلْيُرْجَعْ إليها.

(١٠١)

مسألة

لِمَ قد نرى من يضحكُ من عجب يراه و يسمعه، ويخطر على نفسه، ثم [١١٨ب] يخطر بباله خاطر من بعدُ فيضحك ضحكه من غير أن يكون شريكه فيه يضحك أحده. وربما أربى ضحكُ الخاطر على ضحك الأول. فما الذي سرى من الضاحك المتعجِّبِ إلى الضاحك الثاني؟.

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

إن النفس الشخصيَّةَ تتأثر من النفس الشخصيةِ ضروباً من التأثيرات، منها سريعة، و بعضها بطيئة. وقد مرَّ لنا كلامٌ كثير في هذا المعنى. فمن تأثيراتها السريعة بعضها في بعض — النومُ، والتثاؤبُ، وكثير من الراحات؛ لأنه قد اشتهر في الناس أنَّ من نَعَسَ أو تمطَّى عند المستيقظ الذي لا فتُورَ به أَنِسَهُ ونوَّمه، وكذلك المتثائبُ والمتكاسل عن عمل.

وقد يعرض قريبٌ من ذلك في النشيط للعمل أن ينشط أولا [ثم يُعْدِي غيره](١) ولكن الأول أنشط وأبين.

(١) زيادة يوجبها السياق

والسبب في ذلك أنّ النفس وإن كانت كثيرة بالأشخاص فهي واحدة
بذاتها ، فليس بعجب أن تتأدّى من بعض الأشخاص إلى بعض آثارٌ
سريعة بلا زمان البتّة .

ونحن نخرج هذا المعنى إلى شيء يشرق على طريق التدبر والحركة الـ…
التي تقطع في زمان ، بل يكفي في ذلك أن نلاحظ شمسين ، فإنّ التأثير
أحدهما في الآخر يقع بلا زمان .

وينبغي أن يتذكر في هذا المعنى اللطيف الأثر الذي يقع من البصر
المنظور إليه ، فإنّ هذا وإن كان بواسطة الجسم فإنه يكون بلا زمان البتّة
حتى نقدر أن نقول : إن النظر إلى كوكب من الكواكب الثابتة ليس
بين فتحة عينه وبين رؤيته إياه زمان

(١٠٣)

مسألة [١١٩ ا]

لِمَ يشتد عشق الإنسان لهذا العالم حتى لعلق به وآثره وكدح فيه ،
ما يرى من ضروبه وحوادثه ونكده وغِيَره وزواله عنه ؟
ومن أين استفاد الإنسان هذا العرض ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

وكيف لا يشتد عشقه للعالَم وهو طبيعي وجزء له ؟ إذ مبدؤه منه ، ومصيره
فيه ، وتولّده عنه ؟ ألا تراه يبتدئ وهو نطفة فينشأ نشوء النبات ، أعني أنه
يستمدّ غذاءه بعروق موصولة برحم أمّه ، فيمتص المادة التي تقيمه كما يسقي

عروقُ الشجر، فإذا تمّ وصار خلفه حجر، وأنشأه الله — تعالى — حيوانا أخرجه من هناك، فحينئذ تغتذي نفسه وينمى فيصير في مرتبة الحيوان غير ناطقٍ، ولا يزال كذلك إلى أن يحس صوت النطق، ولا يصير إنسانا ثم يتدرج في إنسانيته حتى ينتهي إلى غاية ما يوهب له من المراتب فيها، وليس ينتهي إلى الرتبة الأخيرة التي هي غاية الإنسانية إلا الأفراد من الناس، والواحد بعد الواحد في الأزمنة الطويلة، والأعصار الكثيرة. وعامة الخلق وجمهور الناس واقفون في مرتبة قريبة من البهيمية، وقليل منهم يتميزون بأن يرتقوا عن البهيمية [illegible]، فيه عناية عقلية [illegible]، ويصيروا في الحد الذي [illegible] به فلا، و[illegible] يصير إلى هذه الحكمة [illegible]، الذي يشرف في جميع أحواله علماً وعملاً، أو من له ملكة [illegible] باللطف والتوفيق. ثم لا بد من المادة [illegible] التي يأخذها من هذه [illegible]، وإن كان بلا عشق ولا شوق شديد ١٠٩ ب وإشارة.

وهذا المعنى واسع البحر، طويل الميدان، قد أكثر فيه الناس، وفيما أومأتُ إليه، وصرّحتُ به كفاية. والسلام.

(١٠٣)

مسألة

لم قيل: لولا الحمقى لخربت الدنيا؟

وما في حياة الحمق من الفائدة على الدين والدنيا؟

وهل الذي قالوه حق؟

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

قد تبين أن الإنسان مدنيٌّ بالطبع ، وأنه لا يعيش متوحِّداً كما يعيش [illegible] والوحش . لأنها مكفيَّة ما تحتاج إليه من الرِّياش(1) والهداية إلى مصالحها وأقواتها ، والإنسان عارٍ لا صنعة له ، ولا هداية إلى قوته ومصالحه إلا بالاجتماع والتعاون ، وهذا الاجتماع والتعاون هو المدنية .

ثم إن المدينة لها حال تسمى بالأولى عمارة وبالإضافة إلى الأولى خرابا(2) فأما عمارتها فهي أن تكثر بكثرة الأعوان ، وانتشار العدل بينهم بقوة السلطان الذي ينظم أحوالهم ، ويحفظ مراتبهم ، ويرفع العوائق عنهم . وأعني بكثرة الأعوان تعاون الأيدي والتشبث بالأعمال الكثيرة التي بعضها ضرورية في قوام العيش ، وبعضها نافعة في حسن الحال في العيش ، وبعضها نافعة في تزيين العيش ، واجتماع هذه هي العمارة .

فأما إن فاتت المدينة واحدة من هذه الثلاث فهي خراب .

وإن فاتها اثنان — أعني حُسْن الحال والزينة جميعا — فهي غاية في [١٢٠-أ] الخراب ؛ وذلك أن الأشياء الضرورية في قوام العيش قد يشترك فيها الزَّنج الذين لا يعرفون المدن ، ودخلوا في عدد البقر .

وعمارة المدن التامة ، وقوامها بثلاثة أشياء هي كالأجناس العالية ، ثم تنقسم إلى أنواع كثيرة .

وأحد الأشياء الثلاثة إثارة الأرض وفلاحتها بالزرع والغرس ، والقيام عليها بما يصلحها ، ويستعد لما يرد منها ، أعني الآلات المستخرجة من المعادن ، كالحجارة والحديد المستعملة في إثارة الحرث والطحن وإساحة الماء على وجه

(1) في اللسان « الريش : كسوة الطائر ، والجمع أرياش ورياش »
(2) في الأصل « تسمى عمارة والأولى بالإضافة إلى الأولى خرابا »

الأرض من العيون والأنهار[1] والقنيّ والسواقي وغير ذلك.

والثاني آلاتُ الجند والأسلحة المستعملة في ذبّ الأعداء عن أولئك

الذين وصفناهم أنهم الجاعلون العيش، ويقوم بمصالحهم في اجتمعوا له بالمعونة.

الجند أيضاً صنائع وأصحاب حرف، فهم يتخذون لهم الخيل المرتبطة، والجنن

وآلاته، وسائر الأسلحة للدفع والذبّ.

والثالث الحمل والتجهيز الذي ينقل[2] ما يعمل في أرض إلى أرض،

وما يجلب في بحر إلى بر.

وبهذه الأحوال الثلاث يكون وجود المدن في حسن أحوالها، وهم أصحاب

تضون بجزء جزء من أقسام الأحوال الثلاثة التي ذكرناها.

وينبغي أن تعلم أن العيش غير جودة العيش، وحسن الحال في العيش،

وأن المدينة متضمنة جودة العيش وحسن حاله.

وقد عرفت أن هذه الأمور لا تتم إلا بالمخاطرات الكثيرة، وركوب

أهوال، واحتمال مشاق، وتعرّض لمخوف.

ولو سمح الناس بضروراتهم، وطرحوا فضول العيش، وعملوا بما يقتضيه

العقل، صاروا كلهم زهاداً، ولو كانوا كذلك لتعطل هذا النظام الحسن

الذي نرى في العالم، وعاشوا عيشة قشفة كعيشة أهل القرى الضعيفة، العيية [١٢٠-ب]

...د، أو كعيشة سكان الخيم، وبيوت الشعر وأخصاص القصب، وهذه هي

التي تسمى خراب المدن.

* * *

فأما قولك: هل يُسمى القوام بعمارة الدنيا حمقى؟ فأقول: إنه لا يجوز أن

---

(١) في الأصل «والأنهر».

(٢) في الأصل «ينقب».

يُسمّيهم[1] بذلك كل أحد، وذلك أن الذين وصف أحوالهم من سكان القرى وأطراف الأرض، والذين لا يمكنون تحصيل معيشتهم هم أولى بهذا الاسم، الذين استخرجوا بعقولهم، وصفاء أذهانهم، ودقة نظرهم — هذه الصناعات الكثيرة الجميلة، العائدة بمنافع الناس.

وبعد تحصيل ذلك من أشرف على جميع العلوم والمعارف، وميّزها ورتّب مراتبها، فعرف ما أثر منها عن خبر وعيان، وما أثر منها عن روية وبحث يقين وبين الحجج، بعد أن نظر في عمارة البدن لأنها عائدة بعمارة الأبدان، وقد اطلعوا على شرف النفس على البدن، وأن لها بقاء خالداً، وحالا يبقى بلا البدن، وصاحب عاقبتها وعلومها وصفاتها، ورأوا لها شوقاً وعشقاً من ركوب مخاطر البدن، وروم مجاهدة الشهوات فيه بالصبر والعمل الصالح وأكثر ما هو من الشهوات والعمل في طلب ما آثروا السعي[2]، وسمعوا بعلوم شريفة تدل على أنهم هم الذين نحوا نحو هؤلاء، سوى الصناعات والمهن، وتركوهم وما لم يمكنوا غيرهم، ثم اشتغلوا وشغلوا من حسبهم بالأمر الأعلى الأفضل

(١٠٤)

مسألة

ما السبب في قلق من تأخذه شهوة، ويعتصر رغبة، واستشارة فاحشة حتى قيل — من أجل ما يبدو على وجهه وشمائله — : كاد المريب يقول خذوني؛ وما هذا العارض؟ ومن أين منشؤه؟ وبأي شيء زواله؟.

---

(١) في الأصل «يسمهم».

(٢) في الأصل «آثروا السع».

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

هذه المسألةُ إنما تعترِضُ الحيرةُ فيها من لا يعرفُ النفسَ وأنّ حركاتِ البدن الاختيارية كلّها إنما تكون بها ومنها . فأمّا من علِم أنّ النفسَ هي المدبِّرةُ للبدن وأنّ الإنسانَ المختارَ هو مدبِّره بالنفسِ المميِّزة العاقلة فلا أعرف حيرته فيه . وذلك أنّ النفسَ إذا عرفت شيئاً واستعملت ضدّ ما يقتضي تلك المعرفةَ فهو من الاضطراب ما يخرج عن طبيعته إذا كانت حركته يمنةً فحرّكت يسرةً ودون قوتها أو مساويةً لها . ومن الاضطراب يظهر هناك مثل ما يظهر هنا .

(١٠٥)

مســـألة

لِمَ إذا كان الواعظُ صادقاً نجع كلامه (١) ، ونفع وعظُه ، وسهل الاقتداء به وخفّت الطاعة له ، والأخذُ عن قوله ؟

ولِمَ إذا كان بخلاف ذلك لم يؤثِّرْ كلامه وإن [راق ، ولا ينفع وعظه وإن سمع ؟

وما في إصلاحه من حقيقة ما يقول مع حقيقـة القول ، وصحة الدلالة وسطوع الحجة ؟

وكيف صار فعله مثبتاً لقوله ، وخلافُه موهناً لدلالته ؟ أليست الحـكمةُ هي في نفسها ، مستقلة بصحّتها ؟ ولهذا قيل : الموعظة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان (٢) .

---

(١) في الأصل : « [illegible] »

(٢) العقد الفريد ٣ : ١٤١ .

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

لأن الواعظ إنما يأمر بما عنده أنه الأصوب، فإذا خالف نفسه أوهم غيره
أنه كاذب وغاش، وإنما نهى عن شيء ليتملك له، ويتوفر عليه. وحطّ من شأنه
[١٢١ ا] عن رتبته، وسقط عن نوع درجته في النظر إليه، بما يشتمل على الوعظ بحسبه
قدرته على التلبيس، وتصوير المموّه في صورة الحق. ولو اعتقد ما يظهر لسبب
عمل بحسبه، فهذا وأشباهه يعرض في نفس المستمع للوعظ من لا يعمل بوعظه
هذا وإن كان أكثر من يرد من الوعظ هو بالحقيقة غير معتقد
ما يظهره، وإنما غرضه أن يشغل الناس عنه في أنفسهم، أو يستميلهم به
بالحيل لنيل مرامه، ولا أرب له من الهدى، وفي موقف الكلام مثل هذا
عرف الموعوظ غرضه، وأشرف على نيته ومذهبه

والأمر بعكس ذلك فيمن عمل واجتهد، وأخلص سريرته، ووافق عمله علمه، ووثق
بنيته وبه تصير الناس تقتدي به، وتثق بكلامه، ويكثر أتباعه، والناظرون
فيه ينظر فيه، والمصدقون بحكمه.

(١٠٦)

مسـألة

لِمَ عظم ندمُ الإنسان على ما فرّط فيه من إكرام الفرص وتضييعه، وفقد
الحكمة منه بعد فقده؟.

ولم كان يعرض له الزهد فيه مع التمكن منه، والانقطاع إليه، وقد كان
في الوقت الأول أقرب [illegible]، وأوسع مدخلها[٢]؟.

---

(١) في الأصل «يستقل».
(٢) نص في هذا السؤال عرض مسكويه، راجع الإمتاع والمؤانسة ١، ٣٠.

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

هذه مسألة قد أجيبَ عنها فيما تقدم، ولا معنى لتكرير الكلام فيها

(١٠٧)
مســـألة

لم افتخرتْ العربُ والعجمُ في مواقف الحروب وأيام الهياج؟ والاعتزاء هو الانتسابُ إلى الآباء والأجداد، وفي ذلك أشعار مشهورة، وقصص مذكورة؟

وما الذي حرّك الخادم من هذه الأشياء حتى ثار وتقدّم، وبارز وأقدم، وخاطر بنفسه[1] وتقحم، وربما سمع في ذلك الوقت بيتاً، أو تذكر مثلاً، أو من دونه في النسب والمنصب، و[illegible] والمركب[2] دون من [illegible] يعمل [١٣٢-١]

[illegible] فتأتيه الأنفة فتقوده [illegible] إلى مباشرة حتفه؛

ما هذه الحرارة المشبوبة، والحمية المدفونة في هذا الخلق عن هذا الخلق؟

من هذا بعلمه وبأمره ومن فعله، وهو الإله الذي انقادت له الأشياء طوعاً وكرهاً، وأشارت إليه تعريضاً وتصريحاً.

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

الغضب في الإنسان يكون بقوة إلى أن تخرجه إلى الفعل أمرٌ معجب.

[illegible] سائرُ قوى النفس.

---

(١) في اللسان: [illegible] الذي [illegible] [illegible]
[illegible] قد [illegible] [illegible] الأمر [illegible]

(٢) في اللسان ١، ٤١٦: [illegible] أصل واحد [illegible] [illegible]
[illegible] أصل [illegible] في قومه.

وما يُخرجه إلى الفعل ينقسم قسمين: إمّا من خارج، وإمّا من داخل.
فالذي يكون من خارج هو مثل انتهاك الحرمة وشتم العِرض وما أشبه ذلك،
والذي يكون من داخل هو مثل تذكّر العيوب والأحقادِ وجميع الأحوال
التي من شأنها قدحُ هذه القوة.

ومن شأن النفس إذا كانت ساكنة ولم يُرد الإنسان فعلا قويًّا منها لم
تستجب له الأعضاء حتى يتحرك، فحينئذ يُضطرّ إلى تحريك النفس وإثارتها،
وبحسب تلك الحركة من النفس تكون قوة ذلك الفعل.

وقد نتبيّن ذلك من مشهور إذا أراد أن يُظهر غضبه ويمس
المغضوب كيف يحدث له غضبه، ويظهر عليه أثر التكلّف، وربما أضحك
نفسه وتحثّ هو نفسه في الخروج عمّا كان من قوة الغضب، فيحتاج في تلك الحال
إلى إثارة القوة الغضبية بتذكر أمر يهيج تلك القوة حتى يقدر به
على ما يسعى.

[١٢٢-ب] وهذه الحالُ تعرض في الحرب إذا لم يحضر بعضَ المحاربين أمرُها. وأعني
أنّ المحارب ربما حضر الحرب التي لا يحضره أمرُها؛ بل لمساعدة غيره، أو لأنه
يأخذها، فإذا شهد الحرب لم تأخذه الحميّة والأنَفَة فيحتاج حينئذ إلى الاعتبار
وهو تذكّر أحوال شجعانٍ ظهرت لأوليائه[1]؛ ليكون ذلك قدحًا له، و
لشجاعته، وسببًا لحركة قوته من نفسه. فإذا ثارت هذه القوة كان مثلها
مثل النار التي تشتعل، ضعيفة وتقوى بمباشرة الأفعال، وبالإمعان فيها حتى تصير
الأفعال لها بمنزلة المادّة للنار تتزيّد بها إلى أن تلتهب وتستشيط، ويصير له
السكران في قلة الضبطِ والتمييز. وهي الحالُ التي يلتمسها المحاربُ من نفسه

(١) في الأصل «لأوليه».

(١٠٨)

مسـألة

ما السبب في أنّ الناس يقولون : هذا الهواء أطيبُ من ذلك الهواء ، وذلك الماء أعذبُ من ذلك الماء ، وتربةُ بلدِ كذا وكذا أطيبُ من تربة كذا ، وطينُ مكان كذا أنعمُ من طين مكان كذا ، وأغلظ وأسمح ؟ ثم لا يقفون في قياس النار : هذه كذا نارٌ أجودُ وأحسنُ وأصفى ، أو أشدّ حرًّا وحرارة وأعظمُ لهيبا ؛ يصرفون هذه الصفات على اختلاف المواد كأنّها في الحطب اليابس أمتن ، وفي القطن المنفوش أسرعُ خمودا ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

إنّ الأركان الأربعة وإن اشتركت في أنّ بعضها يأخذ قوّة بعض فالأقلّ يقبل من الأكثر حتى يكون بعضها أخصّ في صورته وأوغل من بعض ، فإنّ النار من بين الأركان خاصّة أقلّها قبولا لقوّة غيرها ، وأعسرها ممازجةً ؛ وذلك لأنّ صورة النار غالبة على مادّتها . [١٢٣-أ]

وبيان هذا أنّ الأرض تقبل من ممازجة الماء والهواء ما تستحيل به عن صورتها الترابية حتى يصير منها حمأة وسبخ وضروب الأشياء التي تختلف بها الترب .

وكذلك الماء يقبل من الأرض التي تجاوره ، والهواء الذي يليه ضروب الطعوم والروائح [١] ، والصفاء والكدر حتى يخرج من صورته الخاصّة به خروجا بيّنًا .

وكذلك حال الهواء في قبول الآثار من الأرض والماء [٢] حتى يصير بعضه غليظا ،

(١) الأصل : [illegible]

(٢) في الأصل : [illegible]

وبعضه[1] رطبٌ ، ويابسٌ ، ومعتدلاً . فتظهر في هذه الثلاثة آثارُ بعضها في بعض حتى تنبسط للحسّ بياناً ظاهراً ، وينقص أثرُ بعضها عن بعض حتى يحكمَ كل إنسان بخروجه عن اعتداله ، وخروجه عن اعتداله بسبب الاستضرار الكثير في الأبدان .

فأما النار فإن صورتها الخاصة بها ... على ما بينا حتى لا يعسر من المواد ما يظهر للحس منه نقصان أثر من الإحراق الذي هو فعلها ، أو الضوء الذي هو خاصتها .

وعلى أن النار أيضاً قد تقبل من المزاج ومجاورة ما فيه أثراً ما وسكنه بالإضافة إلى الآثار التي تقبلها أخواتها — يسير[2] جداً . مثال ذلك أن النار التي مادتها النفط الأسود ، والكبريت أخضر ، ولونها خلاف لون النار التي مادتها الزيت الصافي ، ودهن البلسان خاصة ؛ لأن تلك حمراء وهذه بيضاء ولكن الفعل[3] المطلوب من النار للجمهور غير ناقص ، أعني الإحراق والضوء وإن نقص بحسب المواد فإن تلك الخاصية مشتركة في النيران كلها لا تخص بعضها دون بعض . ولما حصل للناس أغراضهم من أفعال النار لم يعتنوا به في [١٢٣-ب] حاجاتهم ولم يفطنوا في المواد التي تخص النيران ، لأن المواد متفقة فيها وليست هكذا[4] أخوات النار .

(١٠٩)

مسألة

لم فرح الإنسان بنيل مال ، وإصابة خير من غير احتساب له وتوقع أ...

(١) في الأصل « وبعضها »
(٢) في الأصل « يسيرة »
(٣) في الأصل « بعض »
(٤) في الأصل « وليس هذه »

وجهه بذلك ما طلب، ونحوى ما رَوّل؟ لأنه فى أحد الطرفين ينفى طلب متحير، أم غير ذلك؟

الجواب

قال أبو على مسكويه - رحمه الله:

إن جميع ما يصيب الإنسان مما يخص نفسه أو جسمه إذا وصل إليه بتدريج لم يحس به، ولم يظهر أثره عليه، وإذا وصل إليه دفعة وبغير تدريج كثر حسه به.

ثم مثال ذلك فى الجسم أن الأمراض التى يخرج بها عن الاعتدال على تدريج ليس يشعر بها الشعور الكثير، وإنما يشعر بها[٢] دفعة. فإن خرج [illegible] على غير تدريج [illegible] حدث الغشى والدوى[٥] وشبهه من الأمراض. لأن الإنسان يخرج عن الاعتدال بها إلى الطرف الأقصى الذى يليه [illegible]، فلا يحس بألمه لأنه على تدريج، ولو خرج دون ذلك الخروج ضربة لحقه الألم ما لا قوام له به.

وكذلك الحال فى اللذات، لأن اللذة إنما هى عود الإنسان إلى اعتداله [illegible].

فاللذة والألم حالان يستويان فى أنهما يردان دفعة بلا تدريج، فيستويان فى شدة الإحساس.

(١) فى الأصل «يبقى متوسطا [illegible]».
(٢) فى الأصل «به».
(٣) فى الأصل «إليها».
(٤) فى الأصل «منه».
(٥) فى الأصل «الدو» وفى اللسان عن ابن سيده «الدوى مقصور: المرض والسل، [illegible] دوى فهو دوٍ ودوىّ، أى مريض».

وهذه المسألة أحد الآثار التي ترد على الإنسان مرة بتدريج ، ومرة بـ[illegible]
[١٢٤-أ] تدريج ، فتصير حالُ الإنسان بما لم يحتسبه ، ولم يتدرج إليه بالمزاولة / [illegible]
ما يصيبه ضربة واحدة مما ضربنا مثله ، فيكثر إحساسه به وظهور أثره عليه

(١١٠)

مسألة

لِمَ صار الموتُ الكريه[١] ، ويعسر [illegible] يسكن النفس [illegible]
عن قرب ، وما هكذا هو [illegible] واحدث إليه ؟

[illegible] ذلك لأن [illegible][٢] يرثون منه ما استقر ، ويتلاقون
[illegible] على وجوههم ، ويسمعونه بالتجربة والحس ، فاعلم أن هذا ليس لهذا
لأنك [illegible] في [illegible] وأحسب [illegible][٣] و[illegible]
الحركات [illegible] على [illegible] كان بإزائه ومقابله . فقد تقف
العلة على هذا ، وسنسمعها في عرض الجواب عن جميع مسائل هذا الكتاب

الجواب

[illegible] أبو علي مسكويه [illegible] الله

إن معظم [illegible] يكون من تشعيث الأمصار ، واستداد مجاري الـ[illegible]
[illegible] في وجه [illegible][٤] ومسالك [illegible] ترد منها إلى أصـ[illegible]
[illegible] من [illegible] و[illegible] ، [illegible] من وجوه [illegible]

(١) في [illegible]
(٢) [illegible]
(٣) في [illegible]
[illegible]
(٤) [illegible] كما في [illegible]

الآفات التي تُعرّضها لحركات الهواء والأمطار والبرد والثلوج . وربما كان سبب ذلك قصة أو هشيمٌ من تبن الطين الذي تطيّره(1) الأرواح إلى مسالك [illegible] فتعطف [illegible] من غير جهته ، فيكون به خراب البستان كله .

فإذا [illegible] في [illegible] ، ولما كف في سقوفه ، وأحدث من [illegible] ما يستبين أثره على الأيام فشيء ظاهر ، وذلك أن هذا الضرب من خراب [١٢٤-ب] [illegible] لأن أحدا لم يواظب عليه [illegible] به [illegible] شريف . وربما [illegible] كان [illegible] من [illegible](2) [illegible] بغير قصد [illegible] فتسح عنه [illegible] من [illegible](3) [illegible] [illegible] [illegible] العنكبوت [illegible] على سقوفه [illegible] من [illegible](4) في [illegible] من حائط [illegible] ، وربما [illegible] من طين [illegible] ، وتقصفه(5) [illegible] بالسدادات [illegible] كان فيه [illegible] هذه الأسباب [illegible] في الخراب ، وكان [illegible] هذه الأشياء بالإصلاح [illegible] ، فكان [illegible] من العمران أقرب ، ومن الخراب أبعد

(1) في الأصل « تطره » والأروح ، تصحيح
(2) في اللسان « عرص الشيء [illegible] وقيل [illegible] »
(3) في الأصل « من به » .
(4) في اللسان « وكف [illegible] وكفا ووكفا ووكوفا ووكفانا ، هطل وقطر ، وكذلك [illegible] ومصدره الوكيف والوكف » .
(5) في الأصل « وتقصفه [illegible] »

(١١١)

مسألة

لِمَ صار الكريمُ [illegible] النَّجدُ(١) بنُ النَّشيءِ الساقطَ الوغدَ(٢)؟ وهذا دالٌّ على [illegible] ما [illegible] في أغراض النفس وأخلاقها مع قرب ما بينهم [illegible] أصولها وأعراقها.

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

إن أخلاق النفس وإن كانت [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] تصنيعٌ منهم صلاحاً كثيراً.

وربما كان مزاجُ [illegible] [illegible] [illegible] الأب و[illegible] إلى ذلك [illegible] تأدبٌ و[illegible] سياسة، ويكون أحدهما في الفساد فتختلف الشيمتان والمذهبان.

(١١٢)

[١-١٢٥]

مسألة

لِمَ إذا كان الإنسانُ بعيداً عن وطنه ومسقطِ رأسه ومنفى عينيه ومصحّ [illegible] حسه ومطرب نفسه ومعدن أنسه [illegible] يكون أشدَّ شوقاً، وأقلَّ قلقاً، و[illegible] نائرة وأشغلَ نفساً، و[illegible] فؤاداً، حتى إذا دنت [illegible] من الديار، وقوي [illegible] في الجوار بعد التصبير، وذهب القرار، وحتى قال الشاعر(٣)

(١) في اللسان [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

(٢) في اللسان [illegible] [illegible] [illegible] [illegible].

(٣) هو إسحاق الموصلي كما في الأغاني ٥/٤٩ وزهر الآداب ٢/٢٢١

وأعظم ما يكون الشوق يوماً ... إذا دنت الديار من الديار[١]

وهل هذا معنى يعم أو يخص؟ وما علته؟ وهل له علة؟

الجـــــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

هذا المعنى موجود في الأشياء الطبيعية أيضاً، فلنبدأ بها: وذلك أنك لو أرسلت حجراً من موضع عالٍ إلى مركزه لكان مبتدئ حركته، وكلما قرب من مركزه احتدت الحركة، وصارت أسرع إلى أن تصير عند قربه من الأرض على أحدّ ما يكون وأسرعه. ولو كان الموضع الذي يرسل منه الحجر أعلى كان هذا المعنى فيه أبين وأظهر. وكذلك حكم النار والعناصر الباقية إذا أرسلت من غير أماكنها الخاصة بها فإنها كلما قربت من مراكزها اشتدت حركتها ونزاعها.

ومثل هذه المواضع لا يسأل عنها بلم؛ لأنها أوائل طبيعية، وإنما يكفي فيها أن نعرفها، ونعلم أنها كذلك. وكذلك حال النفس في أنها إذا كانت بعيدة من مألفها كان نزاعها أيسر، فكلما دنت منه اشتد نزاعها وحركتها التي تسمى شوقاً /. [١٢٥-ب]

وإنما قلت إن هذه المواضع لا يبحث عنها بلم، لأن لم إنما يبحث بها عن طلب علة ومبدأ. وهذه مبادئ في أنفسها وليس لها علة أكثر من أن الأمور

(١) في الأغاني «وأبرح» بدل «وأعظم» وقبله:

حننت إلى الأحبة فاصطبار ... وشاقتك منهم قرب المزار

وفي زهر الآداب «وكل مسافر يزداد شوقاً» وكان إسحاق قال أولاً «وكل مسافر سلا يوماً» فعابوا قوله «يوماً» وقالوا: هي لفظة قلقة في هذا الموضع، ثم بحث عن كريم لا في موضع، قال فتصفحوا مكانها مئين، لا أجد منها ما استصلحوا ذلك، فصرفها إلى ما أنشدت أولاً).

أشبه كذلك ، أى صار شبه هو أشبه ، ولم تكن كذلك لعلة أخرى ، مثال ذلك لو أن(1) قائلا قال : لِمَ صارت العينُ تُبصر بهذه الطبقاتِ من العين ؟ ولِمَ صارت ترى الشىء بحسب الزاوية التى بينه وبين المُبصَرِ : إن كانت كبيرة فكبير وإن كانت صغيرة فصغيرة ؟ وما أشبه : لِمَ صارت الأذنُ تُحسّ باقتراعِ الهواء على هذا الشكل — لمَ يلزمْ الجوابُ عنه ؛ لأن الأشياء الواضحة التى هى أوائل إنّيّاتُها هى لِمّيّاتُها .

(١١٣)

مســـألة

لِمَ قيل : الرأىُ نائم والهوى يقظان ، ولذلك غلب الهوى الرأى ؟ - يُرْوَى هذا عن حكيم العرب عامر بن الظَّرِب(2) .

أليس الرأىُ من حزب العقلِ وخدينه ؟ فكيف غُلِب مع عُلوّ مكانه وشرفِ موضعه ؟

وما معنى قول الآخر من الأوائل : العقلُ صديق مقطوع ، والهوى عدوٌّ متبوع ؟

ما سببُ هذه الصداقةِ مع هذا العقوقِ ؟

وما سبب تلك العداوة مع هذه المتابعةِ ؟

وهل يرى هذا حقائق الأمورِ معكوسة منكوسة ؛ فإن الظاهر خارج عن حكمِ الواجبِ ، جارٍ على غير النظام الراتب ؟

---

(1) فى الأصل « أن لو » .

(2) رواه الجاحظ فى البيان والتبيين ١/٢٦٤ وعامر هذا أحد المعمرين حرم على نفسه الخمر فى الجاهلية ، وحكم فى الخنثى حكما جرى الإسلام به كما فى المحبر لابن حبيب ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، وترجمته فى كتاب المعمرين للسجستانى ص ٤٨ — ٤٩

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

هذا كلام خرج في معرض فصاحة وخطابة . فأما معناه فهو أن الهوى / [١٣٦-١] بنا قويٌّ جدا ، والرأي ضعيفٌ ، وسبب ذلك أنا — معشر الناس — طبيعيون وجزء الطبيعةِ فينا أغلبُ من جزء العقل ؛ لأنا في عالم الطبيعة ، والعقل غريب عندنا ، ضعيفُ الأثرِ فينا ؛ ولذلك تُشكِلُ علينا النظر في المعقولات ، ولا تشكل علينا النظر في الطبيعيات ذلك الإشكال .

والعقلُ وإن كان في نفسه شريفاً عاليَ الرتبة فإنّ أثره عندنا يسير والطبيعةُ وإن كانت خسيسة بالإضافة إلى العقل ، فمحسوسة بيّنة — وأثرها بيّن فينا ، لأنّا في عالَمها ، ونحن أجزاء منها ، ومركّبون من عناصرها ، وفيها نشأنا . وهذا واضح غيرُ محتاج إلى الإطنابِ في الشرح .

(١١٤)

مســـألة

حضر أبو بشر متى (١) صاحبُ شرح المنطق مجلساً ، فقال له أبو هاشم المتكلم (٢) عابثاً بالمنطق : هل المنطق إلا في وزن مَفْعِل من النُّطق ؟

فحدثني : أأنصفَ أبو هاشم ، ومن الحق ؟ أم تشنيعٌ ودون ما لا يجوز أن يُسمع منه ؟ هذا مع محلِّه ، وشدة ترقّيه في مقالته ، فإنّ البيان عن هذا القدر يأتي على دقائقِ العلم ، ويوضّحُ طُرُقَ الحكمة .

---

(١) هو أبو بشر متى بن يونس الذي انتهت إليه رياسة المنطقيين في عصره كما في ابن النديم في الفهرست ص ٣٦٨ — ٣٦٩ وكانت وفاته في سنة ٣٢٨ راجع طبقات الأطباء ١ : ٢٣٥

(٢) هو أبو هاشم عبد السلام بن أبي علي الجبائي المتوفى سنة ٣٢١ هـ

الجـــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله :

أما من طريق اللغة ، فقد صدق فيه أبو هاشم ، وأما من طريق الا[illegible]
والعيب [illegible] كان قصد ذلك فقد ظلم ؛ لأنه لا عيب على العلم إلا من جهة
حقيقة الفعل فيه لا من جهة اسمه . ولو كان [illegible] أبو بشر متى بالمكاشفة ، فقـ[illegible]
وهل المتكلم إلا فى وزن متفعل من الكلام ، وتصحيح سائر العلوم فقال فـ[illegible]
[١٣٦-ب] هذا . وهل هو لتفقه إلا تفعل من قولك فقهت الشيء ؟ وهل [illegible]
إلا مصدر قولك نحوت الشيء أى قصدته — فكان هذا مسبرا ، وما [illegible]
ما سمى الشيء من العلم لا يصححه [illegible] ، وما أكثر ما يسمى ويخطئ من [illegible]
فلا ذلك يضع فى ذلك العلم ، ولا هذا يضر فى هذا العلم .

وقد عرفت قوما سموا أنفسهم مدركين ، وسموا علومهم الإدراك [illegible]
وهو فى غاية البعد من حقائق الأمور . وقد سمى قوم أنفسهم المستحقين ، [illegible]
الحق ، وما أشبه ذلك ، فكانوا فيه مدعين باطلا . وهذا لا يستحق أكثر من
هذا القول .

(١١٥)

مســـألة

رأيت رجلا يسأل شيخا من أهل الحكمة ، فقال له : العرب تؤنث الشمس
وتذكر القمر ، فما العلة فى ذلك ؟

وأى معنى عنوا بهذا الإطلاق ؟ فإن كان خاليا من العلة جرى مجرى
الاصطلاح على غير غرض مقصود .

فلم يُورِدْ ذلك الشيخُ شيئاً ، ولهذا لم أسمّه ، وبأنّى ذكره مع إظهار عجزه ريضاً به ، وتحقيراً لشأنه ، وما يستحق بهذا السر أن يخلد ما يصيب فيه صواب الكثير .

فقال السائل : فإن المنجمين يذكّرون الشمس ويؤنثون القمر . وهذا أيضاً من المنجمين اتفاق .

فأجاب هيت وقال ما شاء ، ولا يحتج على لسانه الأخرى بقصر باعه في الأدب ، ولكن لم يحفظ فيه حوشيّ من العربية

والمعنى فيه خاف ليس من شأن المستجيبين(1) في العلم ، بل من شأن المتحرين فيه ، الخائضين في غماره ، البالغين إلى قراره ، وهيهات ذلك أمر عميق بحر ، عالٍ(2) عليك ، وليس كل قاصد واصلاً ، ولا كل ساعٍ ... ، ولا كل طالب ... ولا كل ... بكل عمل . [١٢٧-١]

الجـــــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

أما النحويون فلا يعللون هذه الأمور ، ويذكرون أن الشيء المذكّر حقيقة في ألسنة العرب ، والمؤنث بالحقيقة ربما ذكّرته العرب ، فمن ذلك أن الأمة من المرأة بعينها التي هي صفة تأنيث كلّ ما يؤنث هي مذكّر عند العرب ، وأن آلة الرجل ، فهي أسماء مؤنثة

فأما العقاب والنار وكثير من الأسماء التي هي أولى الأشياء بالتذكير وهي مؤنثة وأمثالها فكثير . ولكن الشمس التي قصد السائل قصدها بعينها ، فإني أظنّ

(1) في الأصل « المستجيبين »
(2) في الأصل « علي »

السبب فى تأنيث العرب إياها أنهم كانوا يعتقدون فى الكواكب الشريفة أنها بنات الله — تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. وكلُّ ما كان منها أشرف عندهم عبدوه. وقد سمّوا الشمس خاصة باسم الآلهة؛ وبين ثلاثة أسماء من أسماء فيجوز أن يكونوا أنثوه لهذا الاسم، ولاعتقادهم أنها بنت من البنات، بل من أعظمهنّ عندهم.

(١١٦)
مسألة

هل يجوز للإنسان أن يعيَ العلوم كلّها على اختلافها وطرُقها، واختلاف اللغات بها والعبارات عنها؟

وإن كان يجوز فهل يجب؟ وإن وجب فهل يُقصد؟ وإن كان فهل عُرف؟

[١٢٧ب] وإن كان جائزاً فما وجهُ جوازه، وإن كان مستحيلا فما وجه استحالته، فى الجواب بيانا عن خفيّات العالم.

الجـــــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله:

أحدُ الحدودِ التى حُدَّتْ بها الفلسفة أنها علم الموجودات كلّها بما هى موجودات. ولكنْ ليس على الشرائط التى ذكرتها فى مسألتك أعنى قولك « على اختلافها وطرقها واختلاف اللغات بها، والعبارات عنها » فإنَّ علم واحد من بين العلوم لا يجوز أن يحتوىَ على جميع هذه الشرائط فيه، لأنَّ جزئيات العلوم بلا نهاية، وما لا نهاية له لا يَخرُجُ إلى الوجود. ولكن المطلوبُ من كل

هو الوقوفُ على كُلِّيّه التي تشتمل على جميع أجزائه بالقوّة . مثالُ ذلك أنّ الإنسان إذا عَلِمَ أصولَه وقوانينه التي بها يُستخرج نوع المرض ، ونوعُ العلاج فقد يكفيه ذلك . فأمّا أن يَعرف منه جميعُ أجزاء الأمراض فذلك محال .

وكذلك بعد كتب جالينوس وغيره من الأطباء ، فيها معظمُ أصول الأمراض والأدوية ، فإذا باشرت الصنعة وورد عليك من أجزاء مرضٍ واحدٍ لا يمكنك إحصاؤه ، وبقي من أجزائه ما لا يمكن إحصاؤه أحداً بعدك .

وإذا كان الأمر على ذلك فالجواب عن مسألتك يكون مقتصراً على ما ذكرنه .

فاختلاف الطرقِ والعباراتِ فلا معنى للتعاطي معرفتها ، فإنّ المقصود من العلوم هو ذاتها من أيّ طريق وُصِل إليها ، وأيّ عبارة عبّر عنها كان كافياً .

* * *

وأما قولك هل يجب الوقوف عليه ؟ فواجب لأنّ الفلسفة واجبةٌ من أجل تحصيل كمالِ الإنسانيّة ، وبلوغ أقصى درجتها . وكلّ شيء كان له كمال فإنّ غايته السعي إلى ذلك الكمال . ومَن قصر من الناس عن بلوغ كماله مع حصول الأسباب وارتفاع الموانع عنه فهو غيرُ معذور فيه [١٢٨-١]

* * *

وأما قولك : هل يُوجد ؟ فإنه موجودٌ ، لأنّ الفلسفة موجودة ، وهي صناعة الصناعات ، وما رتب كلّ شيء من أجزائها كما رتبت هي نفسها ، فإنه قد سبق من دونه حدّة يقتدي بها المتعلم إلى أقصى مرتبة يجوز أن يبلغها . وهذا(١) لجميعه مشروح على غايه الإحكام ، وهي معروفة موجودة غير ممنوع منها ، ولا محجوب بها على مَن طلبها ، وفيه منة لمعلمه

---

(١) في الأصل « وهى »

(١١٧)

مسألة

ما غضبُ الضاربِ على المضروب؟ هكذا نشأت هذه المسألة، وصورتُها أن تولى بنزهة بلد، أو قصبة مدينة فترد له وبه أمير فتبصر ضربَ ذلك فتغضب به، وتغضبُ عليه، وتكلّح[1] وجهك في وجهه، وهو ما[2] أغضبك ولا آذاك، وليس بينكما لقاء، ولا إساءة ولا إحسان.

ومن جنس هذا الغضبِ غضبُ الجلاد والسيّاف

الجـــواب

قال أبو على مسكويه – رحمه الله:

إن[3] كل الضارب يستشعر من المضروب أنه يبغضه ويكرهه لا محالة، وفي الطبع أن يكره الإنسان من يكرهه، ويبغض من يبغضه — غرض العارض لكلّ ضارب على كل مضروب.

وربما انضاف إلى ذلك أشياء أخر: منها أن المضروب ربما ضُرب لجناية أو جناية كثيرة / [١٢٨ب] يعرض في مثلها الغضبُ بالواجب. وربما انضاف إلى ذلك أن يُؤمَرَ الضاربُ بالقبض على المضروب، ومواقفته[4] على جنايته، واستصفاء ماله[5]. وهذه أشياء تثير الغضب، وتزيد في مادّته، لاسيّما والمضروب -

---

(١) في اللسان «كلّح وجهه: عبّسه، والتكلّح: التكشّر في عبوس».
(٢) في الأصل «فما».
(٣) في الأصل «قال إن».
(٤) في اللسان «واقفه مواقفة ووقافًا: وقف معه في حرب أو خصومة».
(٥) في اللسان «وأصفى الأمير دار فلان، واستصفى ماله: إذا أخذه كله».

نفسه ، ويدفعُ عنه كلّ ما نُسب إليه من القبيح ، ويدافع عن ماله عما
… فأين يذهب الغضب عن هذا المكان ؟ وهل هو إلا فى حقيقة موضعه
… ؟

فأما الجلّاد والسيّافُ فلهما وجه آخر من العذر ، وهو أنهم قد اعتادوا
على صناعتهم ، وربما … حتى الألفة والاستخفاف ، وليس
يمكنهما توفيةُ صناعتهما حقوقها[1] إلا … الغضب . هذا مع … الأولى التى
… فى الضّارب والمضْرُوب

(١١٨)

مسألة

لم كان الاسم فى الناس من قبل الأب ، وفى سائر الحيوان من قبل الأم ؟
فإن قلت : لأن الأدب … فى الناس كذلك ، وفيه سر
… وتطير فوقه

الجـــواب

قال أبو على مسكويه – رحمه الله :

إن الإنسان من حيث هو حيوان مشارك للبهائم فى هذا المعنى ، محتاج إلى
… من الأقوات التى تحفظ عليه حيوانيته .

ومن حيثُ هو إنسانٌ مشاركٌ للملك فى هذا المعنى يحتاج إلى ما يسعه هذه
… بالتعليم والتأديب ؛ لأن الأدب يجرى من النفس مجرى القوت
من …

---

(١) فى الأصل « حقوقهما » .

والذي يقوم بالحال الأولى هي الأم ، والذي يقوم له بالحال الثانية

هو الأب .

ولمّا كانت الحالةُ الثانيةُ أشرفَ أحوالِه ، وهي التي بها[1] يصير هو ما هو ،

[١٢٩-ا] أعني أنْ يصيرَ إنسانا ، — وجب أنْ يكونَ يُتْمُه من قِبَل أبيه .

ولمّا كان سائرُ الحيوانات كمالُ حيوانيتها في القوت[2] الذي وجب أن

يكونَ يُتْمُها من قِبَل الأم .

ولعلّ الإنسانَ قبلَ أنْ يبلغَ حدّ استغنائه من الأب ، وفي حال حاجته إلى

الرَّضاع إذا فقد أمه سُمّي يتيما من قبل الأم ، لم يمتنعْ إطلاقُ ذلك عليه

(١١٩)

مســـألة

قال المأمون : « ما رأيتُ لأعجبَ من أمرين : أدور آفاقَ الأرضِ وبحرٍ في

رُقْعة » — يعني الشطرنج — وهذا معنًى شائعٌ في الناس ، فما السببُ فيه ؟

إنما يُعجبُ من خفاء السبب .

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله

إن الصناعاتِ لا يُكتفَى فيها بعلم المتقدِّم ، والمعرفةِ السابقةِ حتى

يُضافَ إلى ذلك العملُ الدائمُ ، والارتياضُ الكثيرُ ، وإلا لم يكن الإنسان

ماهرًا والصانعُ هو الماهرُ بصناعته ، ومثلُ ذلك الكتابةُ قبلَ العلم بحدوده

---

(١) في الأصل « به » .

(٢) في الأصل « في القوت »

ر ، كان سابق العلم ، عرو المعرفة [illegible] العز ولم [illegible] قطع

، وم يمنعه جميع ما تقدم من [illegible] . وكذلك [illegible] ولسانه .

و [illegible] كل صنعة [illegible] كقيدة [illegible] ، [illegible] في [illegible]

و [illegible] ، ولا [illegible] حتى [illegible] الأ[illegible]

[illegible] .

وكان [illegible]

[illegible]

[illegible] الأمر [illegible] [١٢٩ب]

[illegible]

[illegible]

[illegible] .

(١٣٠)

[illegible]

[illegible]

[illegible] ، وكان [illegible]

[illegible] ، وكان [illegible] في ذلك [illegible]

[illegible] في [illegible] .

[illegible]

[illegible] ؟

[illegible] ؟

[illegible]

[illegible]

وما الشكوكُ الذي يَرِدُ على النفس من التعب ؟ وما هما إلا منفردان في الظاهر ، متشابهان في الجوهر .

الجـــــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

إنّ المعانى تعرفها الأسماء ، ويشتدّ شغفها بالعادات على مر الأيام حتى كأنّها هي ، وحتى شك قوم فيزعمون أنّ الاسم هو المسمّى ، وحتى زعم قوم أنّ الأسماء بالطبع تصير إلى معانيها الدالة عليها كأنّهم يقولون إن الحروف التى معنى القيام أو الجلوس ، أو الكوكب أو الأرض لا يصلح لغيرها من الحروف تُسَمّى به ، لأنّ تلك بالطبع صارت له .

واضطر لأجل هذه الدعوى أن يشتغل كثير من الفلاسفة في مناقضتهم ، و
[١٣٠ ا] الكتب في ذلك ، فليس بعجب أن يألف إنسان اسمَ نفسه حتى إذا دعي أنه يظن غيره هو ، وإذا دعي بغير اسمه ظن أنه دُعِي غيره ، بل يرى كأنه به نفسه

ولقد سمعت بعض المحصّلين يستشير طبيباً ، ويحدث فيما يشكوه أنه قد المانيخوليا[1] فقلت له : وما الذى أنكرتَ من نفسك ؟

قال : تخيّلَ لى أنّ يميني قد تحوّلت شمالاً ، وشمالى يميناً ، في ذلك .

فلما امتدّ بى النظرُ فى مناسبته وجدته كان قد تختّم فى يمينه مدّة ثم انتقل إلى بعض الرؤساء من أصدقائه ، ثم لما فارقه صيّره انتقلت له بالعادة إلى لسبب فعرض له من الإلف والعادة هذا العرض .

---

(١) سبق شرحها في صفحة ٢٦١

[illegible] سائلك [illegible] حروف [illegible] ، [illegible]

[illegible]

[illegible] ، [illegible] ، [illegible] عنه [illegible]
[illegible] عن هذه المسألة ، وذلك أن [illegible] ، [illegible]
[illegible] الأولى ، فلو [illegible] إلى [illegible]
متى [illegible] ، [illegible] إلى
[illegible] ، وذلك لأجل العادة ، [illegible] تركيب
[illegible] تركيبا قبيحا ، والحروف أنفسها مستهجنة في [illegible]
[illegible] مستقصى [1]

(١٢١)

مسألة

[illegible] :

[illegible] صاحب [illegible] ، ومن [illegible] عليه [illegible] في [illegible] [١٣٠-ب]
[illegible] الأرض بإصبعه ، وعبث [illegible] .

[illegible] الحال في ذلك حتى [illegible] عند [illegible] ،
[illegible] [2] [illegible] ، وجد عنده
[illegible] وآخر [illegible] إلى [illegible] ، ثم لا [illegible] موحش ، و[illegible] [4] ضيق

---

(١) [illegible]
(٢) في [illegible] [illegible]
[illegible]
(٣) في [illegible]
[illegible]
(٤) في الأصل « وسر »

وطريق [illegible] إلى [illegible] خال(١) [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[١٣١-أ] [illegible]

[illegible]

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

(٣) [illegible]

[illegible] حركات [illegible] مثل [illegible] وقد [illegible] ذلك أيضا [illegible] الأزرق ، [illegible] في [illegible]

[illegible] وقع [illegible] [1] [illegible] لأنه حركة [illegible] ، ولا [illegible] لأن [illegible] على [illegible] حتى [illegible] ، ولا [illegible] له تمييز ، [illegible] كل [illegible]

[illegible] في [illegible] القوة [illegible] ذلك [illegible] ، وقد [illegible] صاحب [illegible] صاحب [illegible] [2] [illegible] واضحة .

[illegible] حكايت [illegible] ، ويشغل [illegible] بالعلوم [illegible] ذلك [illegible] ، [illegible] في ذلك من [illegible] الأشياء ، [illegible] كان [illegible] ، [illegible] كان [illegible] ذلك [illegible] ، [illegible] في ذلك [illegible] كل [illegible] في [illegible] ، [illegible] [١٣١-ب] [illegible] واضح [illegible] .

[illegible] ، [illegible] شغل [illegible] لا [illegible] شعر [3] ولا [illegible] في فكره [illegible]

(1) [illegible] والقطعه

(2) في الأصل « [illegible] » .

(3) في الأصل « الشعر » .

في استخراج [illegible] ولطائف ، [illegible] عارض يحتاج فيه إلى فكر [illegible]
وأصابه من [illegible] ونقص ما ذكرت

(١٢٣)

مسألة

رأيت مسألة [illegible] فقال :

[illegible] أصحاب التوحيد لا يخبرون عن الله تعالى إلا بنفي الصفات ؛

فقيل له [illegible] قولك ، واشرح فيه [illegible] .

قال : إن الناس في ذكر الصفات [illegible] على طريقتين [illegible]

تقول [illegible] الصفات [illegible] واحدة [illegible]

الصفات موصوف [illegible] .

[illegible] موصوف بصفات [illegible] وقدرة ، و[illegible]

ولا [illegible]

[illegible] لا [illegible]

[illegible] المتكلمين

[illegible] الصفات [illegible] لا [illegible]

في جميع ذلك

[illegible] في [illegible] لا [illegible]

ما يزيد على هذا

[illegible] مع الأخ [illegible] ، و [illegible]

[illegible] يحتج به في موضعه [illegible] .

(٢) في الأصل : [illegible]

الجـــــواب [١٣٢-١]

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

أما قولك : الجواب عنها[1] حرفان مع الإيجاز فهو قريب مما قلتَ ، وذلك أن كل صفة وموصوف يقع عليه وهْم ، أو ينطقُ به لسان فهو موجود من الله تعالى ، ومخترع له ، ومن صنعه امتنّ به على خليقته ، وليس يجوز أن يوصف الله — تعالى — بما هو مُبدَع ومخلوق له .

فهذا مع الإيجاز كافٍ . ولا بد من أدنى بسطٍ وبيانٍ معقول .

إنّ البرهان قد قام على أنّ الباريَ الأوّلَ الواحد هو — عزّ اسمه — متقدّم الوجودِ على كل معقول ومحسوس ، وأنّه أوّلٌ بالحقيقة ، أي ليس له شيء متقدّم عليه على سبيل علةٍ ولا سببٍ ولا غيرِه . وما ليس له علة تتقدمه[2] فوجوده أبدًا ، وما وجوده أبدًا فهو واجبُ الوجود ، وما كان كذلك فهو لم يزل ، وما لم يزل ليس له علة ، فليس بمركّب ولا متكثّرٍ ، لأنه لو كان مركّبًا أو كان متركّبًا لكان قد تقدمه شيء على بسائطه أو آحاده . وقد قلنا إنه أوّل لم يتقدّمه شيء ، فإذن ليس بمركّب ولا متكثّرٍ .

والأوصاف التي تُنسب له من يقتضيه ليس تخلو من أن تكون قديمةً معه ، أو محدَثة بعده .

ولو كانت قديمة معه ، موجودة بوجوده لكان هناك كثرةٌ ، ولو كانت كثرة لكانت — لا محالة — متركّبة من آحاد . ولو كانت الآحادُ متقدّمةً .

---

(١) في الأصل « عنه » .

(٢) في الأصل « تهمه » .

أو الوحدة — معنى أن تركيب من الآحاد — والكثرة متقدمة [illegible]
أولاً(١)، وقد قيل به أولى.

ولو كانت وصفه نفسه لكان حاصلاً قبل ما لم يزل، وحصلت له الوحدة

[١٣٢ب] وإذا حدث له ما حدث عن سبب وعلة — تعالى الله وجل عما يقول الملحدون —
وقد قيل به لا سبب له ولا علة.

* * *

ومن إطلاق ما ينبغي عليه من الجود والقدرة وسائر الصفات فلأن [illegible]
إذا قسم الشيء إلى الإيجاب والسلب، أو إلى الحسن والقبيح، أو إلى [illegible]
وعدم — وجب أن ينظر في كل طرفين فينسب الأفضل منهما إليه، [illegible]
لكن لا محالة مشيرين إليه بالوصف مثلاً، كأنا نقسم بالقدرة والعجز وهما طرفان
فوجدنا أحدهما مدحاً، والآخر ذماً، فوجب أن ننسب إليه ما هو مدح [illegible]
وكذلك نعمل في الجود وضده، والعلم وخلافه.

ومع ذلك فينبغي ألا نقيس على هذا القدر أيضاً إلا إذا كان متعارفاً [illegible]
في شريعة، أو إطلاقاً في كتاب منزل؛ فلا نقتدح به من عندنا ما لم [illegible]
سنة أو نوعه، ونحذر كل الحذر من الإقدام على هذه الأمور.

ولأن صعب ترك الإطلاق في جميع أجوبة هذه المسائل فلنقتصر على [illegible]
النَّبَذ(٢).

ومن أراد الإطالة والتوسع فيه فليقرأه من موضعه الخاص به من كتابنا
الذي سميناه «النور» أو من كتب غيرنا المصنفة في هذا المعنى إن شاء الله

---

(١) في الأصل «أول».

(٢) في اللسان «النبذ الشيء القليل، والجمع أنباذ».

(١٣٣)

مسألة

لم صار الإنسان في حفظ الصواب أبعد منه في حفظ الخطأ؟

شاهدُ هـذا أنك لو تتبّعتَ العقلَ في شعر الأدب، وتعمّدت الصواب في اللفظ كان أحرى بذلك، وأحرز عليه من وصفٍ أو عذلٍ أو ذمٍ، ثم لم تجد أحداً منهم أن يتحقق بحفظ بعض كلامه، ويغترّى سمعه في حفظه وإنشاده؛ بينا تجد مائة يُنشدونك لأبي تمام والبحتري ولا تجد ثلاثة يُنشدونك [١٣٣ - ١] للرمي وأبي العبر[1]

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله

إنّ الصوابَ شيء واحد، وله سمتٌ يشير إليه العقل، ويقتضيه الفطرة السليمةُ من كل أحد. فأما الانحراف عن ذلك السمت، والخطأ فيه فوجوهه كثيرة لا نهاية له، فلذلك لا يمكن ضبطه. وإن انحرف عنه منحرف فإنما يكون ذلك منه كما جاء واتفق لا بإشارة من فهم، ولا دليلٍ من عقل. وحفظ مثل هذا عسيرٌ جداً؛ إذ كان الحفظ إنما هو تذكر صورةٍ قيّدها العقل، وتلك الصورة هي مُقتضى العقل، أو رسم من رسوم قوى العقل. فالإنسان مُعان على هذا الرسم بالفطرة، ومُعانٌ على تذكُّره — أيضاً — بالفطرة.

فأما المعدول عنه فهو كالعدول عن نقطة الدائرة التي تسمّى مركزاً؛ فإنّ

(١) راجع ترجمته في الأغاني ٢ : ٨٩ — ٩٣

النقطة في الدائرة – التي بها صارت مركزا – هي كثيرة بلا نهاية ، وإنما المحدود منها هي نقطة واحدة ، أعني التي بُعدها من جميع محيط الدائرة بالسواء

(١٣٤)

مســـألة

ما فضل العروضيّ رديء الشعر ، قليل الذوق ، والمطبوعُ على خلافه ؟ ثم ما العروضُ على الحقيقة ؟

أليست هي ميزان الطبع ؟ فما بالها تخون ؟ قد رأينا بعض من يتذوق وله حظ يخطئ ويخرج من وزن إلى وزن ، ومن لا عروض له [illegible] ذلك . فلمَ كان هذا مع هذا الفصل – أعني ثمّ هو فضل منه ؟

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه – رحمه الله

[١٣٣-ب] إن المطبوع من مولّدي [illegible] واحد ، ولا يخرج عنه [illegible] طبعه [illegible] ولكن [illegible] للشعر [illegible] متقدمين [illegible] لا تقسم طباعهم ، ولا [illegible] ، وهي عندهم مقبولة موزونة ، يستمرون [illegible] كقول المرقش [2]

لابنة عجلان بالجوّ رسومْ ... لم يتعفّين والعهدُ قديمْ

وهي قصيدة مختارة في المفضليات ، وفيها أبيات لا يحتمل طباعنا الحوز بإيرادها – كانت مقبولة موزونة في طبع أولئك القوم ، وهي نافرة عن طباعنا ، بعضها مكسورة .

---

(١) في الأصل : لا بعده .

(٢) هو مرقش الأكبر واسمه ربيعة بن سفيان ، راجع المفضليات ٢ : ٤٧ .

وكذلك قد يستعملون من الزحاف في الأوزان التي يستطيبونها ما يكون عند المطبوعين منا مكسوراً ، وهي صحيحة . والسبب في جميع ذلك أن العرب كانوا يخبرون نغمات يستعملونها مواضع من الشعر يستوي بها الوزن ، ولأنا نحن لا نعرف تلك النغمات إذا أنشدنا الشعر على السلامة ، خشن في طباعنا ، والدليل على ذلك أنا إذا عرفنا في بعض الشعر تلك النغمة حسن عندنا ، وطاب في ذوقنا كقول الشاعر (1) :

[illegible] (2)

فإن هذا البيت إذا أنشد [illegible] لأجل [illegible] في [illegible] في الذوق [illegible] إذا أنشد كما ينشد [illegible] (3) في [illegible]

وهذه سبيل الزحاف الذي يقع في [illegible] في الذوق [illegible] مكسوراً في الذوق [illegible] في المطبوع [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] على [illegible] [١٣٤ ا] [illegible] . وتلك الحركات [illegible] [illegible] موسيقى ، و [illegible] (4) [illegible]

[illegible] عدد الحركات والسكنات التي في كل [illegible] [illegible] ، والأجزاء [illegible] [illegible] من الأجزاء [illegible] أو [illegible] المنشد [illegible] [illegible] في [illegible] ، ولم [illegible] عليه [illegible]

فأما من نقص [illegible] في العروض [illegible] الذي [illegible] في بعض

(1) [illegible]

(2) [illegible]

(3) في الأصل « [illegible] »

(4) في الأصل « [illegible] »

الزحافات التي يجيزها العروض، وإنه مذهب عند العرب، فيبقى صاحب الذوق الذي لا يعرف [illegible] التي تقوم [illegible] الزحاف [illegible] أنه جائز في كل موضع فيغلط من ههنا، وربما أبعد طبعه حتى يظن أن ينكسر من الشعر أيضاً ما هو في معنى المزاحف، وأنه كما لا يسيغ المزحوف من الجائز كذلك لا يسيغ هذا الآخر الذي يجري عنده مجراه. وهذا غلط قد عرف وجهه ومذهب الصحة فيه.

وأما واضع العروض فقد كان ذا [illegible]، صاحب ذوق وطبع، فاستخرج صناعة من طباع الجيدة [illegible] من ليست له طبيعة جيدة في الذوق [illegible] بالصناعة [illegible].

وكذلك الحال في صناعة النحو والفصاحة، وما يجري مجراهما من الصنائع العملية.

وليس يجري صاحب الصناعة، وإن كان ماهراً في صناعته، مجرى الطبع الجيد الحاذق.

(١٢٥)

مسألة

[١٣٤ س] ما معنى قول بعض [illegible]: [illegible] طول عمر من [illegible] كثير وإن كان قصر عمره منه؟

ما هذه الإشارة وما تفسيرها؟ فإن [illegible] مستغلقة.

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله.

قد تبين من مباحث الفلسفة أن الحياة على نوعين. أحدهما حياة بدنية وهي

البهيمية التي نشارك فيها الحيوانات كلها، وحياة نفسية، وهي الحياة الإنسانية التي تكون بتحصيل العلوم والمعارف، وأعني [بها] الحياة التي يجتهد الأفاضل من الناس في تحصيلها.

فالواجب أن [illegible]

[illegible]

[illegible]

(١٣٦)

مسألة

[illegible]

[illegible] واحد [illegible] عشرة [illegible]

[illegible] لا يجيدون [illegible]

[illegible]

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

[illegible] تكون [illegible] مع رويّة وفكر [illegible] [illegible] [illegible] بالكلام [illegible] [illegible] الكلام، وهذا هو [illegible].

فأما [illegible] فهو [illegible] حركة اللسان بالأعضاء التي لا يقتدر [١٣٥-١] [illegible] في نفسه [illegible] قطعة من تلك [illegible]

إلى توشيح عبارته ، وترتيب [illegible] للأدب والأدب ، وطلب [illegible]
والمروءة ، والسخاء ، وكثير مما يدخل في مناقب الإنسان [illegible]
ومحاسن [illegible] .

(١٢٧)

مسألة

على ماذا يدل [illegible] من بين هذا الحيوان ؟ فقد قال أبو زيد
البلخي [illegible] (١) كلاماً نحكيه

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله

هذه زيادة الفصل الذي ذكرته إذا كان يوجد به كلام في هذه المعنى
فالأولى أن نستقصي الكلام فيه ، وإذا كنت غير مقتضب ، فالأولى
نكتفي بالإيماء إلى المعنى دون الإطالة ، فنقول

إن الحرارة إذا كانت مادتها لطيفة مواتية في الرطوبة والاستحالة إلى
الامتداد فهي تمد الجسم الذي تعلقت به إلى جهتها — أعني العلو — مد

(١) اسمه أحمد بن سهل ذكره أبو حيان التوحيدي في كتاب تقريظ الجاحظ كما ذكر
ياقوت في معجمه ٣ ,٦٩ [illegible] في العصر الأول ، ولا شك أنه توحيدي [illegible]
[illegible] ، وفي [illegible] كلامه في كتاب « أقسام العلوم » وفي كتاب « أخلاق
الأمم » وفي كتاب « [illegible] » وفي كتاب « [illegible] » وفي رسالة في إحدائه
[illegible]
من [illegible] وكانت وفاته [illegible] سنة
٣٢٢ هـ [illegible] ص ١٩٨ — ١٩٩ [illegible]
[illegible] ص ٤٣ [illegible] ٣ : ٦٤ — ٨٦

حقيقيا . وإن عرض الاستكثار والميل إلى جهة الأرض فشيئين : إما ضعف الحرارة ، وإما لقلة استحالة المادة التي تعلقت بها.

وأنت تتحقق ذلك وتتبينه في الأشجار التي بعضها تتشعب شعبها منجذبة نحو الأرض .

وبعضها ممتدة على جهة الاستقامة إلى فوق .

وبعضها مركبة الحركة بحسب مقاومة المادة ؛ لأن حركة الشيء المركب

وما كان من الشجر نابتا ممتدا على وجه الأرض غير منتصب فهو لكثرة الأجزاء الأرضية فيه ، ولضعف الحرارة عن مدها نحو العلو .

وما كان من الشجر منتصبا وقد تشعبت منه شعب نحو الأرض ، ويمينا وشمالا فلأن حركة النار والأرض قد تركبت فحدثت منهما هذا الشكل المركب من الانتصاب والانجذاب. [١٣٥ ب]

وما كان من الشجر ممتدا كالمنتصب إلى فوق كالسرو وما أشبهه فلأن مادته الأرضية والرطوبة التي فيه لطيفة ، والحرارة قوية قد تمكنت من الحركة المستقيمة التي تحركها النار .

وإذا تأملت حق التأمل هذه الأمثلة فقد علمت نقلها إلى الحيوان إن شاء الله .

(١٢٨)

مسألة

لم صار اليقين إذا حدث وطئ لا يثبت ولا يستقر ؟ والشك يدوم غير متنقص ؟

يدلك على هذا أن الموقن بالشيء متى شككته زال فؤاده ، ووثق به ؟

والشاكُّ متى وقفت به وأرشدته ، وأهديت الحكمة إليه لا يزداد إلا لُجوجا ولا ترى منه إلا عُتوّا ونفورا .

الجـــواب

[illegible] علي مسكويه — رحمه الله

[illegible] حقيقته ، [illegible] معرفة [illegible] وعلى [illegible] الأمر [illegible]

أعني [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] فيه

[illegible]

[illegible] [١٣٦ ا]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ، وأهديت له الحكمة لا [illegible]

إلا [illegible] لأحد شيئين : إما لأن [illegible]

[illegible] إلى الحكمة [illegible] ، وإما لأن [illegible]

[illegible] وقد [illegible] قوي [illegible]

[illegible] وأقوى [illegible] من [illegible]

ضعيف والآخر قوي فهو [illegible] قوي [illegible]

على الأيام فيضعف القويّ ، ويقوى الضعيفُ كما أشار به الحكماء ، وشريعةُ الأنبياء .

(١٢٩)

مسألة

لم صار الناس يضحكون من الشيء[1] المستغرب إذا لم يضحك صاحبه أكثر من ضحكهم منه إذ ضحك ؟ وهذا عارض موجود في كل من تجده يوم ضحك .

الجـــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله .

إن من شأن المضحِكِ أن تطأ أمورًا مفقودة عن جنسها ؛ ليستدعىَ بذلك تعجبَ السامع وضحكه .

وإذا لم يضحك هو فإنه يدل من نفسه أنه متماسك ، غيرُ مكترِثٍ للسبب الذى من شأنه أن يُتعجَّبَ منه ويُضحَكَ ، فيتضاد الحال بالسامع حتى يقترن إلى السبب الأول السببُ الثانى .

(١٣٠)

مسألة

[١٣٦–ب]

ما معنى قول العامة على طبقتهم « [illegible] لا حكم له » هكذا [illegible]

(١) فى [illegible] [illegible] وكسره [illegible]
[illegible] وفى [illegible]

(١٩) [illegible]

والمتكلِّمُ ، والنحويُّ ، والفلسفيّ . فما سر هذا ؟ وما عِلّته وعلّتُه ؟ وبِمَ يُدْ
حلا من الحكم ، وإذا شذّ عن من التعليل ؟

الجـــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله :

ليس الأمرُ على ما ظننته من أنّ جميعَ الطبقاتِ من العلماء يستعملون هذه
اللفظة . وإنما يستعملها منهم مَنْ كانت طبقتُه في العلوم المأخوذةِ من النص
والآراء المشهورة ، فإن هذه أوائلُ عند قوم في علومهم . وأعنى بقولى أوائل
أنهم يجعلونها مبادئَ مسلَّمةً عنزلة الأشياء الضرورية من مبادئ الحسِّ والعقل
وإذا فعلوا ذلك لم يَخْلُ من أن يردَ عليهم ما يخالف أصولَهم فيجعلونه نادراً وشاذاً
مثال ذلك : أنه تصفّح رجل منهم يوما في السنة كيوم السبت من « كانون
أنه يجيء فيه مطر ، وبقي[1] إلى ذلك سنينَ — حَكَمَ بأنّ هذا واجبٌ لا محالة
فإنْ انتقض عليه ذلك زعم أنه شاذٌّ نادرٌ .

وكذلك من يتبرّكُ بيوم في الشهر ، ويتشاءم بآخرَ كما تفعله الفرس
يوم من شهرهم المسمّى « هرمز » ، وبآخرِ يوم المسمّى « بابران » فإنه لا
يحكُمُ بأنّ هذا على الوتيرة ، فإن انتقض قالوا هذا شاذ ونادر .

وكذلك حال من حكم بحكم مأخوذٍ من أوائلَ غيرِ طبيعيّة ، وغير ضرورية
فإنه غيرُ مستمرٍّ له استمرارَ العلوم البرهانية المأخوذةِ الأوائلَ من الأمور
الضروريّة .

[١٣٧-١] وأنت ترى ذلك عِياناً / من لا يعرف عِلَلَ الأشياء ولا أسبابَها من جمهور
الناس : فإنّ أحدَهم إذا رأى أمراً حدث عند حضور أمرٍ آخرَ نسبَهُ إليه

---

(١) في الأصل : وبق .

من غير أن يبحث هل هو علته أم لا. وذلك أنه إذا رأى حالاً سرته عند حضور زيد زعم أن سبب تلك الحال زيد. فإن اتفق حضور زيد مرة أخرى، ولحقت له حال أخرى سارة قوي ظنه، وزادت بصيرته، فإن اتفق ثالثة قطع الحكم.

وكذلك سيكون الحال في أكثر أمور هذا الصنف من الناس. لا جرم متى استقصى الأمر وجدوا أنه شاذ.

ولهذه الحال عرض كثير، وذلك أنه ربما مازج أسبابا صحيحة، كما يحكم الشيء أنه يجيء مطر يوم كذا لأنه كذلك اتفق في العام الماضي في ذلك الوقت ثم، وربما اتفق ذلك مرارا كثيرة، ولكن ليس سبب مطر ذلك اليوم من له سبب آخر وإن اتفق فيه.

فأما الرجل الفلسفي فإنه إذا تشبه سيره، أو أحد مقدماته من مثل تلك المواضع عرض له — لا محالة — ما عرض لغيره. ولذلك وجب أن ينزل الأمور منازلها: فما كان منها ذا برهان لم يتميز، ولم ينتظر ورود صدق عليه، ولا شك فيه.

وإذا كان غير ذي برهان إلا أن له دليلا[1] مستمرا صحيحا سكن إليه، ووثق به.

فأما ما ينحط إلى الإقناعات الضعيفة فينبغي ألا يسكن إليه، ولا يوثق به، من غير أن ينقضه شيء طارئ عليه، ولم يمتنع من الشكوك والاعتراضات عليه

---

(١) في الأصل: «وإذا كان ذو البرهان إلا أن له دليلا».

(١٣١)

مسألة

قال بعض المتكلمين : قد علمنا يقيناً أنه لا يجوز أن يتفق أن يمس ...

[١٣٧ب] محبة الجميع في ساعة واحدة ، والقصد والخبر ، وحال واحدة . وإن كان

فهل يجوز أن يتفق في مثل هذه ؟

وإن جاز فهل يجوز في جميع من في العالم ؟

وإن كان لا يجوز أن يتفق هذه الاتفاقات من متكلم سكت عند الإتيان

حين ذكر الاتفاق والضرورة ، والفرق بين لفظة(١) حق ولكن ...

وسيمر بيان ذلك على حقيقته في « الشوامل » إن شاء الله

الجواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله

إن الكلام على الواجب والممتنع والممكن قد استقصاه أصحاب المنطق ،

ووضع صاحب المنطق فيه الكتب . والذي يليق بهذا الموضع هو أن يقال :

إن الواجب من الأمور هو الذي يَصْدُقُ فيه الإيجابُ ويكذب فيه

السلبُ أبداً .

والممتنع ما يكذبُ فيه الإيجاب ويصْدُقُ فيه السلبُ أبداً

والممكن ما يصدق فيه الإيجاب أحياناً ويكذب فيه أحياناً ، ويكذب فيه

السلب أحياناً ويصدق فيه أحياناً

وإذا كانت طبيعة هذه الأمور مختلفة فلنتكلم منها على طبيعة الممكن

(١) [illegible]

فإنْ جُوِّزَ فيه أن يكونَ جميعُ الناسِ يفعلونه في حينٍ واحدٍ صُيِّرَ مِنْ
طبيعةِ الواجبِ، وهذا محال.

وأيضاً فإنّ أرسطاطاليسَ قد بيّن أنّ المقدماتِ الشخصيةَ في المادّةِ الممكنةِ
في الزمانِ المستقبلِ لا تصدق معاً، ولا تكذب معاً، ولا تقتسمُ الصِّدقَ والكذبَ
مثال ذلك: زيد يستحمّ غداً، ليس يستحمّ غداً زيد. فإنّ هاتين المقدمتين ليس
يجوز أنْ تصدقا معاً، لئلا يكونَ شيءٌ واحدٌ بعينه موجوداً وغيرَ موجود.
ولا يجوز أنْ تكذبا[1] معاً، لئلا يكونَ شيءٌ واحدٌ موجوداً وغيرَ موجود
ولا يمكننا أن نقول إنهما تقتسمان[2] الصدق والكذب، لئلا نرفعَ
طبيعةَ الممكنِ.

وهذا قول مخبر[3] وكذلك نصَّ أرسطاطاليسُ فيه النظرَ فقال: [١٣٨-أ]

إنّ الشيءَ الممكنَ إنما يصدق عليه الإيجابُ أو السلبُ على غيرِ تحصيل،
والشيءُ الواجبُ والممتنعُ يصدق عليهما الإيجابُ والسلبُ على تحصيل. أعني
أنهما يقتسمانِ الصدقَ والكذبَ لأنّ المقدماتِ الممكنةَ لن توجد على طبيعتها
الإمكانية. وفي الضرورية فإنهما يقتسمان الصدقَ والكذبَ على أنها ضرورية.
وهذا كلام بيّن واضح لمن ارتاض بالمنطق أدنى رياضة. ومَنْ أحبَّ أن
يستوفيه فليعمدْ إليه في مواضعه يجده شافياً.

(١٣٢)
مسألة

سُئل بعضُ العلماءِ بالنحو وقيل له: أيستمرّ القياسُ في جميعِ ما يذهب
إليه في الألفاظ؟ فقال: لا.

---
١) في الأصل «أن يكون»
٢) في الأصل «إنها تقتسم»
٣) في الأصل «عد»

فقال السائل: فينكسر القياسُ في جميع ذلك؟ فقال: لا
قيل له: فما السبب؟ قال: لا أدرى، ولكنَّ القياسَ يُفزَعُ إليه في
موضع، ويُفزَعُ منه في موضع
وعرضت هذه المسألة على فيلسوف فوعد جواباً سيطلعُ عليك مع [illegible]
إن شاء الله.

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه – رحمه الله

أمّا قياسُ النحويين فليس مبنيّاً على أوائل ضروريّة فلذلك لا [illegible]
وإنّما أخذ هذا الرجل العالمُ بالنحو عن القياس الذي يخصُّ صناعته، ولا [illegible]
إلا ذلك.

فأما الفيلسوفُ فقياساته كلها مستمرة لا ينكسر منها شيء، لا سيّما [illegible]
من القياس وهو المسمّى برهاناً. وقد تقدّم – في المسألة المتقدّمة إن [illegible]
له كلامٌ يصلح أن يجاب به ههنا فلنقتصر عليه إن شاء الله[1]

(١٣٣)

مســـألة [١٣٨-ب]

سأل سائل: هل خلق الله – تعالى – العالم لعلة أو لغير علة؟
فإنْ كان لعلة فما هي؟
وإنْ كان لغير علة فما الحجّة؟

---

(١) راجع صفحة ٢٩ – ٢٩١

وهذه مسألة فيها شغب كثير، ولها هذيانات طويلة، وليس الكلام فيها
بالسهل.

الجـــــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

ليس يجوز أن يقال: إنّ الله خلق العالَم لعلة؛ لِما تقدّم من قولنا إنّ
العلّة سابقةٌ للمعلول بالطبع.

فإنْ كانت العلة أيضاً معلولةً لزم أن تكون لها علة تتقدّمها. وهذا مارّ بغير
نهاية، وما لا نهاية له يصحّ وجودُه.

فإذن لا بدّ من أن يقال أحدُ شيئين: إمّا أن العلّة لا علة لها، وإمّا أنّ
العالم لا علّة له غيرُ ذات الباري — تعالى ذكرُه —

فإنْ قيل: إنّ للعالَم علة غيرَ ذات الباري — تعالى — وإنّ تلك العلّة
لا علّة لها، فيجب من ذلك أنْ تكون العلّة أزليّةً؛ لأنّها واجبةُ الوجودِ. وإذا
كانت كذلك لزم فيها جميع ما يلزم في ذات الباري — تعالى — ولو كان كذلك
لكان أوّلاً لم يزل. وقد قلنا في الباري — تعالى — ذلك بالبراهين التي أدّتْ إلى
أول له. وليس يجوز أنْ يكون شيئان لهما هذا الوصف، أعني أنّ كلّ واحد
منهما أوّل لم يزل. وذلك أنه لا بدّ أنْ يتفقا في شيء به صار كل واحد منهما أول
وأن يختلفا في شيء به صار كل واحد منهما غيراً لصاحبه. وذلك الشيء الذي
اشتركا فيه، والذي تباينا به لا بدّ أنْ يكون فصلاً مقوّماً، أو مقسّماً، فيصيرُ [١٣٩-أ]
لهما جنس ونوع؛ لأنّ هذه حقيقةُ الجنس والنوع. والجنسُ متقدّم على النوع
بالطبع والنوعُ الذي يلزمه فصل مقوّمٌ ليس بأوّل؛ لأنّه مركّبٌ من ذات وفصلٍ
مقوّم. والمركّبُ متأخّرٌ عن بسيطِهِ الذي تركّب منه.

فهذه أحوال يناقض بعضها بعضاً ، ولا يصحُّ معها أن يُدَّعى في شيئين أن
كلَّ واحد منهما أوّل لم يزل .

وشرح هذا المعنى وإن طال فهو عائد إلى هذا النَّشر الذي يكتفي به
ذو القريحة الجيدة ، والذكاء التامّ .

(١٣٤)

مسـألة

لِمَ يضيق الإنسانُ في الراحة إذا توالتْ عليه ، وفي النعمة إذا حالفته ؟ .

وبهذا الضيقِ يخرج إلى المرَح والنزَوان ، وإلى البطَر والطُّغيان ، وإلى
التحكُّك بالشرِّ والتعرُّض به حتى يقعَ في كلِّ مهوًى بعيد ، وفي كل أمرٍ شديد
ثم يعضَّ على أنامله غيظاً على نفسه بسوء اختياره ، وأسفاً على تركه محمودَ الرأي ،
ومُجانبته نصيحة الناصحين مع ما يجد من الألم في صدره من شماتةِ الشامتين وما
السرُّ المغري والمعنى المُؤرِّث ؟ ولذلك قالت العرب في نوادر كلامها : نزَتْ به
البطنة . أي أطغته الشِّبَع ، وأبطرته الكفاية ، وأرهقته النعمةُ حتى بطِر
وأشِر ، واضطرب وانتشر . ومن أجل ذلك قال بعض السلفِ الصالحِ : النعمة
ملكٌ حتى لا يصبرُ عليها إلّا وليٌّ مُقرَّبٌ ، أو نبيٌّ مرسَل .

هذا ، والناس مع أحلامهم يتمنّون العافية ، ويحنّون إلى الراحة ، ويتعوَّذون
من الشرّ ، ومما يُورَثُ منه ، ويُشفقون عنه .

الجـــواب

[١٣٩-ب] / قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

السببُ في ذلك أنّ الراحةَ إنما تكونُ عن تعَبٍ تقدَّمها لا محالة . وحيث

ت تظهر فيه أشهر حات من آلام وإذ كانت الراحة إنما تكون عن
. فهي إنما تنتم وتشتهى ساعة يتخلص من الشيء المتعب . وإذا
ت الراحة ، وذهب أثر التعب ، لم تكن الراحة موجودة ، بل تفلت وحصل
هو ومع تطلابه تطلاب للذة . ومع تطلاب اللذة تغلط الإنسان في الشوق
اللذة التي يجهل حقيقتها أعني أنه يشتاق إلى معنى اللذة ويجهل أنها راحة
لم فصار الإنسان كأنه يشتاق إلى ما يسرع تقضيه .

وهذا المعنى إذا لاح للعاقل به وتبينه ، يشتق إلى اللذة بتة ، وصار فضل راه
تمه الجوع أن يداويه بدوائه الذي يشتهي لشيء لا أنه[1] مقصد اللذة نفسها
ري اللذة شيئاً تابعاً لغرضه لا[2] أنها مقصوده الأول ؛ وبذلك يزهد العاقل
الأشياء الدنية ، أعني الدنيوية ، وهي ما تتصل بالحواس وتسمى لذيذة .
الجاهل فلأنه يعترض له ما ذكرنا بالضرورة صار يقع فيه دائماً ، فيحصل في
ر وآلام وأمراض لا نهاية لها وعاقبة جميع ذلك الندم والأسف .

(١٣٥)

مسألة

لم صار بعض الأشياء تمامه أن يكون غضاً طرياً ، ولا تتحسن ولا تستطاب
إلا كذلك ؟ .

وبعض الأشياء لا تختار ولا تستحسن إلا إذا كان عتيقاً قديماً ، قد مر
عليه زمان ؟

ولم[3] لم تكن الأشياء كلها على وجه واحد عند الناس ؟

---

(١) في الأصل « إلا أنه »
(٢) في الأصل « إلا »
(٣) في الأصل « وبم »

وما السببُ في انقسامها على هذين الوجهين، ففيه سرٌّ ؟.

/الجـــــواب [١٤٠-ا]

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

لمّا كانت كمالاتُ الأشياء مختلفة، أعني أنّ بعضها تتمّ صورتُه التي كماله في زمان قصير، وبعضها تتمّ صورتُه في زمان طويل — كان ابتهاج الإنسان بالكمال منها، وتفضيلُه[١] إياه بحسبه.

ولمّا كان الشيء يبتدئُ وينتهي إلى الكمال، ثم ينحطّ حتى يبلى ويعود إلى ما منه بدأ — كان أفضل أحواله وقت انتهائه إلى الكمال، أعني حين صعوده إليه، أو انحطاطه عنه حالاً بالنقصان، وإن كانت الأولى أحمد من الثانية.

و[لما كانت] هذه القضيةُ مستمرّة فيما كان في عالمنا هذا، أعني عالم الكون والفساد — وجب من ذلك أن يكون استطالةُ الناس، واستحسانهم لصورة الكمال في واحدٍ واحدٍ من الأشياء المختلفة أيضاً مختلفاً لأجل ما ذكرناه.

(١٣٦)

مســـــألة

لِمَ صار الإنسانُ إذا صام يوماً أو صلّى ركعتين عن الفرض اشترك فيه خمرُ عُجب، واشتُطّ عليه، وارتفع على جنسه، ووجد الخنزوانة[٢] في نفسه، وصار النُّعرة في أنفه[٣] حتى كأنه صاحبُ الوحي، أو الواثق بالمغفرة، والمفردُ بالجنة

(١) في الأصل «وتفصيلهم».

(٢) في اللسان «ويقال هو ذو خنزوانات، وفي رأسه خنزوانة، أي كِبْر».

(٣) في اللسان قال «الجوهري: النُّعرة: مثال الهمزة: ذباب ضخم أزرق العين أخضر له إبرة في طرف ذنبه يلسع بها ذوات الحافر خاصة، وربما دخل في أنف الحمار فيركب رأسه —

وهو مع ذلك يحب أن يعمل بعرض الآفات ، وربما تخبّط [في] ثوب صاحبه ؛ ولهذا قال الله — تعالى — « وقدمنا إلى ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثورا[1] » .

وما يعرضُ له من هذا العارض عنه سينكشفُ في جواب المسألة ؟

وكان بعضُ أصحابنا يصحّحُ / نادرةً في هذا الفصل قال : [١٤٠ب]

تسمّى يهوديٌّ غداةَ يومٍ فما أمسى حتى ضرب مؤذّناً ، وشتم آخرَ ، وغصب على آخرَ . فقيل له : ما هذا أيها الرجل ؟

فقال : نحن معشرَ القرّاء فينا حِدّة !

الجـــــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

كلُّ من استشعر في نفسه نقيصةً ، وكان هناك نقصان من وجه آخر ، خشي أن يتكلم تلك النقيصة ، ولا يعرفها غيرُه منه — عرضَ له عارض التكبّر ؛ لأن معنى التكبّر هو هذا . أي أن صاحبه يلتمس من غيره أن يُدّعى له تلك الفضيلة ، ويعرفها له . فيبدأ يعرفها بحركات ضروب الحركة المضطربة[2] ؛ لهذا صدق القائل : ما تكبّر أحدٌ إلا عن ذِلّةٍ يجدها في نفسه[3] .

ووجه السلامة من هذا العرض هو أن يلتمس الإنسانُ الفضيلةَ نفسَه ،

[illegible]

(١) سورة الفرقان ٢٣ .

(٢) في العقد الفريد ٢ : ٣٥٢ : [illegible]

(٣) في عيون الخصائص ص ٤٩ : وقال عمر : ما وجد أحدٌ في نفسه كبراً إلا لمهانةٍ يجدها في نفسه » .

لا شيء آخر أكثر من أن يصير به عند نفسه فاضلاً ، لأن تعرّف ذلك منه
أو تكرّم لأجله ... يتفق له أن يتعرّف بشيء موصوف في موضعه ، ومن
يتعرّف له ذلك فيستفيد من غيره ، ولم يكترث حيال غيره به فقد غلب
التمس إكرامه ومحبته رديئة .

ولأجل محبة التكرمة تعرّض قوم لصنائع ، وعرض لقوم الحتف
ولآخرين الهرب من الناس ، إلى غير ذلك من الشكا

والذي يجب على العاقل هو أن يتمثل الفضائل في نفسه ليصير بها على هيئة
كريمة ممدوحة في ذاته ، أكرم أم لم يكرم ، وعرف ذلك له أم لم يعرف
ويجعل مثاله في ذلك الصحة ، فإن الصحة إذا نظفت[١] بدائها ، وعرض لم
[١٤١-١] عليها ليصير صحيحاً / حسب ، لا يعتقد فيه ذلك ، ولا يكرم عليه
وكذلك إذا حصلت له نتيجة النفس بحصول الفضائل لا يبالي أن يعلم
من الناس أن يكرموه له ، ولا أن يعتقدوا فيه ذلك . ومتى حصل هذه الفضيلة
وقع في ضروب من الجهالات التي أحدها الكبر ، وهذه التي وصفت

(١٣٧)

مسألة

حكى بعض أصحاب أن الرشيد قال لإسحاق الموصلي[٢] : كيف حالك مع
الفضل بن يحيى[٣] ، وجعفر بن يحيى[٤] ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، أما جعفر فإني لا أصل إليه إلا على عسر ، وإذا
وصلت إليه قبلت يده ، فلا يلتفت إلي بطرف ، ولا يتم لي بحرف ، ثم أصير إلى

(١) في الأصل « لا صحب » .
(٢) راجع ترجمة إسحاق (١٥٠ — ٢٣٥) في وفيات الأعيان ١/١٨٢ — ١٨٤ .
(٣) قتله الرشيد في سنة ١٨٧ راجع ترجمته في وفيات الأعيان ١/٢٩٢ — ٣٠٥
(٤) توفي في سجن الرشيد سنة ١٩٣ وترجمته في وفيات الأعيان ٣/١٩٧ — [illegible]

منزلي فأجد صلته وبرّه وهداياه، وخبره قد سبقني، فأبقى حيران من شأنه.
وأمّا الفضل فإني ما أغشى منزله إلا ويتلقّاني، ويهشّ لي، ويعظّمني، ويسألني عن دقيق أمري وجليله، ويصحبني من بشره، وطلاقة وجهه وتهلّله، ورقّة [illegible] — ما يعمرني ويعجزني عن الشكر، وأبقى خجلا في أمره، وليس غير ذلك.

فقال الرشيد عند هذا الحديث: [illegible] إسحاق فأيهما عندك أبرّ؟ وقال[1]: أيهما من [illegible] [illegible] [illegible].

هذا آخر الحكاية وموضع المسألة منها.

ما السبب في ميل إسحاق إلى الفضل دون جعفر[2]، والفضل ممدوحه عرض لا [illegible]، ولا [illegible] به. ومبذول جعفر جوهر له نقد، والحاجة إليه ماسّة، والرغبات به موصولة، والآمال إليه مصروفة. والدليل على ذلك أنك لا تجد ملكا في الدنيا يبشر برجل، ولا [illegible] في الأرض بشاشة إنسان. [١٤١ب]
وأنت ترى الحرّ والسخيّ [illegible] [illegible] لذلك، وأسماء السؤال، وحدم الآمال عند الرجال.

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله.

[illegible] الحكاية فيها [illegible] وذلك أن الموصوف بالكبر هو الفضل[3].

---

(١) في الأصل: «في قال».

(٢) قال إبراهيم الموصلي: «[illegible]» الوزراء والكتاب ص ١٩٨

(٣) [illegible] في الوزراء والكتاب ص ١٩٧ [illegible]

وهو صاحب الشرف في العطاء، وأما جعفر فهو الموصوف بالطلاقة والبِشْر (١)
إلا أن المتفق عليه أن يستحق فضل صاحب الطلاقة — وإن كان في الأ...
حاب من يزيد على صاحب البذل والعطاء الجزيل إذا قرنه بكِبْر وتيه.

والناس على تفاوت عظيم في الموضع الذي سألت عنه، وتختلف مذ...
وذلك أن منهم المحب للثروة واليسار، ومنهم المحب للكرامة والجاه

فأما محب الثروة فقد يحب الجاه والكرامة ولكن ليكتسب بهما مالا

وأما محب الجاه والكرامة، فقد يحب المال والثروة ولكن ليكتسب جاها
وينال كرامة

وكل طائفة من هاتين الطائفتين تزعم أنها هي الكيِّسة، وأن صاحبتها
الغافلةُ البلهاء (٢).

والصحيح من ذلك أن كل واحد منهما ينزع إلى أمر طبيعي، وإن (٣) كا
قد مال بشرف منهما حينئذ إلى الإفراط، وذلك أن المال ينبغي أن يُعتدل في طلبه
ويُكتسَب من وجهه، ثم يُنفَق في موضعه. فمتى قصّر في أحد هذه الوجوه
صار شرها، وأورث دناءة، وكسب بُخلا ولؤما.

وأما الكرامة فينبغي أن تكون في الإنسان فضيلة يستحقّ بها أن يُكرَم
لا أن تُطلَب الكرامة بالعنف، أو بالكبر الذي ذممناه فيما تقدم من
المسائل آنفا

[١٤٣ ـ ا] فإذا كان الأمر على ما ذكرناه، وكانت الكرامة تابعة للفضيلة، فالكريم
أشرف من الذي تتبعه اللذة.

(١) في وفيات الأعيان ١ : ٢٩٢ «وكان سمح الأخلاق طلق الوجه، ظاهر البشر، وأما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فكان أشهر من أن يذكر».
(٢) في الأصل: «يزعم أنه هو الكيس وأن صاحبه هو الغافل الأبله».
(٣) في الأصل: «إن».

وبالجملة فإنّ المال ليس مطلوبًا لذاته بل هو آلة يُوصَلُ به إلى المآرب والأشجانِ[1] الكثيرةِ. وإنما يُحَبّ لأنه بإزاء جميع المحبوبات، أي به يُتوصَّلُ إلى المحبوبات، فأمّا في نفسه فهو حجرٌ لا فرق بينه وبين غيره إذا نُزِعَتْ عنه هذه الخصلة الواحدة.

فأمّا الكرامةُ فقد تُطلَبُ لذاتها إذا كان طالبُها من جهة الاستحقاقِ والعصبيةِ وذلك لما يحصل عليه النفس من الالتذاذ الروحاني، والسرورِ العقلي. وإنْ كانت من جهة النفس الغضبية فإن هذه النفسَ وإنْ كانت دون الناطقةِ فإنها فوقَ النفس البهيميةِ التي تَلتمس اللذات البدنيّة التي تشاركُ فيها النباتَ والخسيسَ من الحيوانات.

* * *

فأمّا قولك: إنك تجد محبّي المال أكثر من محبي الكرامة فكذا يجب أن يكون، لأنّ أكثر الناس هم الذين يُشبِهون البهائمَ وإنما[2] يتميّزُ القليلُ منهم بالفضائل. فكما أنّ المتميزين بفضائلِ النفسِ الناطقة من القليل، فكذلك الذين يرون فضائل النفس الغضبيةِ أقلُّ من الجمهور.

(١٣٨)

مسألة

ما بال خاصّةِ الملكِ، والدانِينَ منه، والمُقرَّبين إليه — لا يجري من ذكرِ[3] الملكِ على ألسنتهم مثل ما يجري على ألسنة الأباعدِ منه مثل البوّابين،

---

(١) في اللسان «الشجن: هوى النفس، والشجن: الحاجة أين كانت، والجمع أشجان».

(٢) في الأصل «فإنما».

(٣) في الأصل «من ذلك».

والشكرية(1) ، والشتمة؛ فإنك تجد هؤلاء على غاية التشيع له [illegible] الدعوى في الإشارة به، والتكذب عليه.

الجواب

قال أبو علي مسكويه رحمه الله:

[١٤٩ ب] [illegible] أحدهما أن الأقربين من [illegible] المؤدبين المستصحبين [illegible] وفي هذه الآداب التي [illegible] ذكرنا [illegible] وليس في ذكرهم إياه [illegible] واجب كنسبه، وهذا [illegible] ولا يؤمنون [illegible] على طريق العامة [illegible] لا أصل له، وادعاء ما لا حقيقة له، وظنهم أنهم ينالون بذلك كرامة عند أمثالهم.

والسبب الآخر خوف حاشية [illegible] من عقوبته؛ فإن الملك [illegible] على هذا المذهب، ورأوه سياسة له؛ لئلا يتعدى ذاكروه إلى [illegible] وإخراج حديث لا ينبغي إخراجه.

(١٣٩)

مسألة

ما الشبهة التي عرضت لابن [illegible] المصري في [illegible] من [illegible] أن الله تعالى [illegible] لم يزل ناظراً إلى الدنيا [illegible] مذ كان [illegible] مقدومة فإن [illegible] وشعر [illegible] قد كثر بين العلماء.

ثم وجهه [illegible] قد [illegible]

وما وجهه حق فيه [illegible] قد [illegible]

(1) [illegible]

الجــواب

قال أبو علي مسكويه رحمه الله:

أما شبهة صاحب هذه المسألة فركيكة؛ وذلك أنه غلط في إدراك الحي ما وجده بنوعين: أحدهما عقلي، والآخر حسي. والحسي منه وهمي ومنه بصري.

فأما الحسي البصري فهو ما يدرك منفصلاً عنه ذات طبقات ورطوبات وصفة مجوفة ذاتية من نفس المبصر، ويخرج إلى جزء مشف يكون بينه وبين المبصر[1]، ومن ضوء معتدل، ومسافة معتدلة، وألا يكون بينهما [١٤٣-أ] حجز ولا مانع.

وأما الوهم فقد ذكرنا من أمره أنه يتبع الحس فلا يجوز أن يتوهم ما لا يدركه، أو يدرك له نظير.

وأما الإدراك العقلي فليس يحتاج إلى شيء من الحواس، بل للعقل بنفسه قوة ذاتية بها يدرك الأشياء المعقولة.

والكلام على هذا الإدراك ألطف وأغمض من الكلام في الإدراك الحسي.

وقد اختلطت على صاحب المسألة هذه الإدراكات، وعلم أن الباري — جلت عظمته — عالم بالأمور الكائنة فسمى هذا العلم إدراكاً، وصفة من حس وإدراك وعلوم الإنسان الوهمية فتركبت شبهته من الظنون الكاذبة.

وتحقيق هذه الإدراكات وتمييزها حتى تميز ما يختص به الحي منا ذو العقل والحس، وكيف يكون إدراكه للأمور الموجودة، وتنزيه الباري — جل اسمه — عن جميعها إذ كانت هذه كلها من الانفعالات، أعني العلوم والمعارف كلها، وأنه لا يجوز أن يعلم شيئاً محسوساً ولا معقولاً بعد عدم، وأن

---

(١) في الأصل «بصره».

الله — تقدس وتعالى ذكره — ليس بمعنى ، ولكن يعم الأشياء جميعاً

وأرفع مما نعلمه — أمر صعب يحتاج فيه إلى تقدمة علوم كثيرة .

وفيما ذكرناه كفاية في إيضاح وجه شبهة لهذا الرجل فيما ذهب إليه .

(١٤٠)

مسألة

حدثني عن ولوع الشاعر بالطيف ، وتشبيبه به ، واستهتاره بذكره[1]

وهكذا تجد أصناف الناس . وهذا معروف عند من عشقت به الصبابة

ولحقته الرقة ، وأنفت عينه حليته[2] شخص ومحاسنه ، وعلق فؤاده

هواه وحبه .

/ الجواب

[١٤٣ ب]

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله

الطيف هو اسم لصورة المحبوب إذا حصلت للنفس في قوتها المتخيلة[3] حتى

تكون تلك الصورة نصب عينه ، وتجاه وجهه كلما خلا بنفسه . وهذه حال

كل من لهج بشيء ؛ فإن صورته ترتسم في قوته هذه التي تسمى المتخيلة

وتكون ببطن الدماغ المقدم . فإذا تكررت هذه الصورة على المحبوب عن هذه

القوة انتقشت فيها ولزمتها . فإذا نام الإنسان أو استيقظ لم تخل من قيام

الصورة فيها ، ويجد المشتاق في النوم خاصة إنسانه ؛ لأن النوم يتخيل فيه أشياء

---

(١) في اللسان « يقال استهتر بأمر كذا أو كذا ، أي أولع به ، لا يتحدث به

ولا يفعل غيره » .

(٢) في الأصل « الحلقة » .

(٣) في اللسان « والحلية : الخلقة ، والحلية : الصفة والصورة » .

ثم فى نفسه ، فربما رأى فى النوم أنه قد وصل إليه الموصوف الذى يهواه ، فيكونُ من ذلك الاحتلامُ ، واستمراءُ اللذة التى حركته إلى الشوق والاجتماع مع المحبوب ، فيزول عنه أكثرُ ذلك العرض ، ويصيرُ سببَ برئه من بعد .

(١٤١)

مسـألة

ما السبب فى نزوع الإنسان عن التنبيه على نفسه بنشر فضله ، وعرض حاله وإثبات اسمه ، وإذاعة نعته ؟ وليس بعد هذا إلا إيثارُ الخمولِ . والخمولُ عدمٌ مّا ، وهو إلى النقصِ ما هو ؛ لأنَّ الخاملَ مجهولٌ . والمجهولُ نقيض المعدومِ . ولا تمارِىَ فى المعدوم ، ولا تمارِىَ فى الموجود .

وكانَ منشأُ هذه المسألةِ عن حال هذا وصفُها :

عرَض بعض مشايخنا كتاباً له صنَّفه علينا ، فلم نجده ذكرَ على ظهره تصنيف فلان ، ولا تصنيفه ، ولا ذكر اسمه من وجه البتة . فقلنا له : ما هذا الرأى ؟ فقال : هو شىء محض ليس لى فيه . ثم أخرج لنا كُتُباً قد كتبها فى [١٤٤-ا] حداثته فيها اسمُه ، وقال : هذا أثرُ أيام النقصِ .

الجـــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله :

إنَّ الفاضلَ منبِّهٌ على نفسه ، وليست به حاجة إلى تنبيه الإنسانِ عليه من نفسه . وذلك أنَّ الفضائلَ التى هى بالحقيقةِ فضائلُ تُشرِق إشراقَ الشمس ، ولا سبيلَ إلى إخفائها وإنْ رامَ صاحبُها ذلك . وأمَّا الشىء الذى يُظَنُّ أنه فضيلةٌ وليس كذلك فهو الذى يحتاج

وإذا تعاطى الإنسانُ مدحَ نفسه، وتظاهرَ بفضيلته بالدعوى تصفّحت
العقولُ دعواه فبانَ عُوارُه، وظهر الموضعُ الذي تغلّطَ فيه من نفسه. فإن اتفق
أن يكون صادقاً، وكانت فيه تلك الفضيلة فإنه إن لم يتكشّف ظهر منه على
أنه غبيٌّ وثق بآراء الناس وتصفّحهم، أو هو واثق وسكنه تصفّح غيبه
وعجز. والناس لا يرضون شيئاً من هذه الأخلاق بتّةً.

وأما الإنسانُ الكبير فإنّه وإن تشاغل بشيء مما يكونُ فيه من الفضائل
يسمو به إلى ما هو أكثر منه، ولأنّ رتبته التي تخصّ الإنسان من الفضائل
وإن كانت عالية فهي نزر يسير بالإضافة إلى ما هو أكثر منه. وهو
متعرّض بطباع الإنسان مبذولٌ له، وإنما يمنعه العجزُ الموكّلُ بطبيعة البشر
عن استيفائه، وبلوغ قصده، أو يثنيه عنه[1] مقابض تعوقه عن [illegible] الغاية
القصوى من الفضائل البشرية.

(١٤٢)

مسألة

سأل سائل عن النظم والنثر، وعن مرتبة كلِّ واحدٍ منهما، ومنزلة
[١٤٤-ب] أحدهما، ونسبته إلى هذا، وعن طبقات الناس فيهما؛ فقد قدّم / الأكثرون
النظمَ على النثر، ولم يحتجّوا فيه بظاهر القول، وأفادوا مع ذلك به، وجاءوا
بحيثيات الحقيقة فيه، وقدّم الأقلون النثر، وحاولوا الحجاجَ فيه[2]

(١) في الأصل «عنه».

(٢) [illegible] في كتاب «الإمتاع و[illegible]» في الليلة الخامسة والعشرين [illegible] وعلى أي شكل [illegible] وأيهما أجمع للفائدة، وأرجع بالعائدة، [illegible] وأولى بالبراعة، فأجابه بما [illegible] ٢/١٣٠ — ١٤٧ [illegible]
٢٤٥ — ٢٤٦

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

إنّ النظم والنثر نوعان قسيمان تحت الكلام ، والكلام جنس لهما ، وإنما تصحّ القِسْمةُ هكذا : الكلامُ ينقسم إلى المنظوم وغيرِ المنظوم ، وغيرُ المنظومِ ينقسم إلى المسجوع وغيرِ المسجوع ، ولا يزال ينقسم كذلك حتى ينتهيَ إلى آخِرِ أنواعِه . ومثال ذلك مما جرت به عادتك أن تقولَ الكلام : هو جنسٌ يجري مجرى قولك الحيّ ، فكما أن الحيّ ينقسم إلى الناطق وغيرِ الناطق . ثم إن غير الناطق ينقسم إلى الطائر وغيرِ الطائر . ولا يزال ينقسم حتى ينتهيَ إلى آخِرِ أنواعه ، ومن كان الناطقُ والطائرُ يشتركان في الحيّ الذي هو جنسٌ لهما ، ثم ينفصل الناطق عن الطائر بفصل الناطق — فكذلك النظمُ والنثرُ يشتركان في الكلام الذي هو جنس لهما ، ثم ينفصل النظم عن النثر بفصلِ الوزن الذي به صار المنظومُ منظوما .

ولما كان الوزنُ حليةً زائدة ، وصورة فاضلة على النثر صار الشعرُ أفضلَ من النثر من جهة الوزن .

فإن اعتبرت المعاني كانت المعاني مشتركة بين النظم والنثر ، وليس من هذه الجهة تميز أحدهما من الآخر ، بل يكون كل واحد منهما صادقا مرة ، وكاذبا مرة ، وصحيحا مرة ، وسقيما أخرى .

ومثال النظم من الكلام مثال اللحن من النظم ، فكما أنّ اللحن يكسى النظمَ[1] صورة زائدة على ما كان له ، كذلك صيغةُ النظم الذي يكسي [١٤٥-أ] الكلامَ صورة زائدة على ما كان له . وقد أفصح أبو تمام عن هذا المعنى فقال :

(١) في الأصل « منه يكسى نظم »

هي جوهرٌ نثرٌ فإنْ ألّفتَه بالنظم صار قلائداً وعقودا (١)

(١٤٣)

مسألة

لِمَ صار الحظرُ يشقّ على الإنسان؟

وكذا الأمرُ إذا ورد أخذ بالمخنّق، وشدّ الكَظَم (٢). وقد علمت أنّ بعض العالم مقتضٍ لأمرٍ ونهيٍ، ولا يتمّ إلا بآمرٍ وناهٍ، ومأمورٍ ومنهيٍّ وهذه أركانٌ ودعائم. ولكن هنا مكتومةٌ بالإشراف عليها يكمُلُ الإنسان فيعرف المسمّى من المختصّ.

الجواب

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله -:

إن الأمر الذي أومأت إليه والحظر إنما يقعان في جنس الشهوات التي تجمح بالإنسان إلى القبائح، وفي جنس الأعمال التي فيها مشقّة وتؤدي إلى المصالح.

ولمّا كان الإنسان ميّالاً بطبعه إلى تعجُّل الشهوات غيرَ ناظرٍ في أعقاب يومه، وإلى الهوينى والراحة في عاجل اليوم دونَ ما يُكسِبُ الراحةَ طول الدهر، شقّ عليه حظر شهواته، والأمر الذي يُلزمه بالأعمال التي فيها مشقّة.

وهذه حال لازمة للإنسان منذ الطفولة؛ فإنّ أشقّ الأشياء عليه منعه

(١) في الأصل [illegible]

(٢) في اللسان: «... أخذت بكظمه أي بمخرج نفسه، والجمع كظام» وفي الحديث: «لعلّ الله يصلح أمر هذه الأمة، ولا يؤخذ بأكظامها» جمع كظم بالتحريك وهو مخرج النفس من الحلق.

والبدنية منزلته ، وتحدُّثها إيّاه بكسب الأعمال النافعة ، ثم إذا كَمُل صار أثقلَ الناس عليه طبيعته ومزاجه ، ونصيحته في المشورة ، وسطوته الذي يأخذه بحقيقه ومصالحه .

وهذه حالُ الناس المنقادين لشهواتهم ، المتبعين لأهوائهم .

وقد يقع فيهم الجيِّدُ الطبع ، الصحيحُ الرؤية ، القويّ العزيمة فلا يأتي من الأمور إلا أحسنها ، قامعاً لهواه ، متحمِّلاً ثقلَ مئونة ذلك ؛ لما ينتظره من حُسن العاقبة و[إ]حمادها . / [١٤٥ب]

ومثل هذا قليل ، بل أقلُّ من القليل ، وليس إلى أمثاله يوجَّه الخطابُ بالأمر والنهي ، ولا إياه خُوِّف بالوعد والوعيد ، وأُنذر العذابَ الأليم .

(١٤٤)

مسألة

ما السبب في أن(١) الخطيب على المنبر ، وبين السماطين وفي يوم الحفل [illegible] يعتريه من الحصر والتتعتع والخجل في شيء قد حفظه وأتقنه ، ووثق بحفظه وثقافته ؟

أتُراه ما الذي يستشعر حتى يضلَّ ذهنه ، ويعصيه لسانه ، ويتحيّر باله ، ويُملك عليه أمره .

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

إنّ انصرافَ النفس بالفكر إلى جهة من الجهات يعوقه عن التصرُّف في غيرها من الجهات ، ولذلك لا يقدرُ أحد أن يجمعَ بين الفكر في مسألة هندسيّة وأخرى نحويّة أو شعريّة . بل لا يتمكّنُ أحد من تدبير أمرٍ دُنيوي

(١) في الأصل « ما يجب الخطيب » .

وآخرَ أُخرويٍّ في حالٍ واحدة . ومَنْ تعاطى ذلك فإنما يقطعُ لكلِّ واحد جزءاً من الزمان وإنْ قلَّ . فأمّا أنْ يكونَ زمانُ هـذا[1] هو بعينه زمن هذا فلا .

وإنما عرض لك هذا — معاشرَ الناس — لأجل تلبسنا بالهيولى واستعمالِ النفسِ للمادّةِ والآلةِ . والأمرُ في ذلك واضحٌ بيّنٌ مُشاهَدٌ بالضرورة

ولمّا كان الفكرُ يومَ تحقّقٍ مُنحصِراً إلى ما ينصرف إليه الناس م عَيِيَ إنْ وجدوا ، وتقصيرٍ إنْ جهدوا أشغل الإنسانَ تخوّفُ هذه الحال وأخذُ الحذر منه فكان هذا عائقاً عن الأفعال التي تخصّ هذا المكان

وهذا الاضطرابُ من النفس هو الذي يجعل الآلاتِ مضطربةً حتى تحدثَ فيها حركاتٌ مختلفةٌ على غير نظام ، أعني التضجّرَ وما أشبهه ، وذلك أنّ مُستقَرّ الآلةِ إذا اضطرب تبعهُ اضطرابُ آلته لا محالة

(١٤٥)

مسألة

[١٤٦-أ]

وما السبب في خجل الناظر إليه[2] ، وخجلِ الواقفِ عليه ، خاصّةً إذا كان معه سبب ، وكنتُما سببه ، ورجعا إلى حالٍ جامعة ، ومذهبٍ مشترَك

وما الفصل[4] من المنظور إليه إلى الناظر ؟ وما الواصل[5] من المتكلِّم في سامع حتى يُغضِيَ طرفَه حياءً ، ويسدّ أذنه . هذا شيءٌ قد شاهدته ؛ بل قد ... به وإذا تأملتُ لمَّة ناخذة لأنّ الخجل تمكّن ، والاستنباط ... إلى ...

(١) في الأصل « هذا زمان » .
(٢) أي إلى الخطيب الذي سبق ذكره في المسألة السابقة .
(٣) في الأصل « وقلت إذا » وهي زيادة لا معنى لها .
(٤) في الأصل « وما الفاصل » . (٥) في الأصل « وما الوصل » .

يقف على السَّبَبِ الجالِبِ، والأمرِ الغالب. وعند ظهور العلة تَثْبُتُ الحُكْمُ، وبانكشاف الغطاء ينقطع وَلُوعُ المُستكشِف.

فَسُبْحَانَ من له هذه اللطائفُ المَطْوِيّة وهذه الحيثياتُ المَنْوِيّة عن العقول الزَّكيّة، والأذهانِ الذَّكيّة.

الجــــواب

قال أبو علي مسكويه رحمه الله

ينبغي أن نعيد ذكر سبب الحياء والخجل ثم ذِكْرَ محله فنقول

إن الحياء هو انحصار يلحق النفس خوفًا من قبيح [illegible] وقد كان عندنا هو [illegible] وإن الإنسان إذا كان[1] [illegible] من المتكلم يلحق نفسه من [illegible] قريبٌ [illegible] يلحق المتكلم، لأنه يخشى من وقوع أمر قبيح منه. و[illegible] عنه [illegible] ما يخشاه المتكلم

وقد كنا [illegible] في سبق [illegible] النفس واحدة [illegible] دموعٌ [illegible] ولا ذلك ما كان لأحد سبيل [illegible] ما في نفسه إلى نفس غيره [illegible] [illegible] من ذلك [illegible] لأن ما يخرج منه [illegible] القبيح [illegible] [illegible] من جهة [illegible] كان [illegible] [illegible]

وليس يحتاج أن يتحصل من المنظور إلى [illegible] شيء، لأن [illegible] النفس [illegible] لا تكون على هذه الطريقة [illegible] [illegible] كلٌّ [١٤٦–ب] [illegible] من المتكلم والسامع استشعارًا واحدًا في خوف القبيح. والحذر من [illegible]

---

(١) في الأصل «وإن النفس إذا كانت»

والخطأ ، فإن هذا الاستشعار يعرض منه الحياء والحصر كما قلت .

ومتى غلب على ظنّ السامع أنّ المتكلم ينسى ، ويريغ صرحوفه وحذرَه أو شبهه استقبح عظمُ العارضِ به من الحياء حتى يلحقه ما ذكرت من الحال المضطربة .

وكذلك حالُ المتكلم إذا لم يثق بنفسه ، أو لم تكن له عادة بالوقوف في ذلك المقام ، والكلامِ فيه ، فإن حذره يشتدّ ، وحياءه يكثر ، وزيادة ا يزدادُ الاضطرابُ ، ويمنعُ القدرُ من الكلام الذي تسمح به النفسُ عند قوّتها ، واجتماع بالها ، وسكون جأشها ، وهدوء حركاتها .

(١٤٦)

المسألة

ما علةُ كراهيةِ النفسِ الحديثَ المعادَ ؟

وما سبب ثقل إعادة الحديث على مستعاد ؟ وليس فيه في الحال الثانية إلا ما فيه في الحالِ الأولى ، فإن كان فارق بينهما فما هو ؟ .

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

إنّ النفسَ تأخذ من الأخبار المُستطرَفةِ والأحاديثِ الغريبة عندها كما يأخذ الجسمُ من أقواته ، وما حصّلته النفسُ من المعارف والعلوم ، فهو عليها بمنزلة الغذاء من الجسم الذي اكتفى منه . فإذا أعيد عليه غذاء هو الآن ثقُل عليه ، واستغنى منه . فكذلك حالُ النفسِ في المعارف . وينبغي أن نحمل هذه الأمثلةُ التي أوردتُها عن الأجسام على ما يليق بالجسم أخذاً لطيفاً لا يحسن

[illegible] طل في تلك الأمور لشرّه فيفسد على الإنسان تحصيله، ويبعث وقته [illegible]

[illegible] غير لائق بمعنى المقصود، وأخوض لكي [illegible] في [illegible] ما حددته [١٤٧-أ]

[illegible] فلما أحببت من له قدم في هذه العلوم [illegible] وينبغي لمن لم

[illegible] له هذه الرتبة أن يرتاض أولاً بهذه العلوم ويرتاض حينئذ، ثم ينظر

في هذه الأجوبة إن شاء الله

(١٤٧)

مسألة

سألني سائل فقال:

هل يجوز أن ترد الشريعة من قبل الله — تعالى — بما يأباه العقل [illegible] ويكرهه، ولا يجيزه كذبح الحيوانات، وكإيجاب الدية على العاقلة.

وقد حضرت المسألة [illegible]، ووجدت منى في الجواب عنه [illegible] وأنت [illegible] ، ومكنون الحكمة. فإن تفضلت بالجواب وإلا عرضت [illegible] ما قلت للسائل، وروثت ما دار بيني وبين المتحدثين، فإن كان سديداً [illegible] وإن كان ضعيفاً صححتني فيه. فأنت بحمد الله حالي، عتيق العز [illegible] . ولولا فضل الله العظيم على هذا الحق [illegible] وقف على شيء، [illegible] في شيء، [illegible] ، [illegible] النعمة قبل المسألة، [illegible] قبل التعرض.

الجـــــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

ليس يجوز أن ترد الشريعة من قبل الله — تعالى — بما يأباه العقل

ونحوه . ويكون الشاك في هذه المواضع لا يعرف شرائط العقل ، وما [illegible] هو — أيضاً — يخصه بالعادات ، ويظن أن الذي الصنع من شيء هو [illegible] العقل . وقد سمعت كثيراً من الناس يتشككون بهذه الشكوك ، وقد [illegible] خصوماتهم وجدالهم فلا يعدوا ما ذكرته .

وينبغي أن نوطئ للجواب توطئة من كلام نبين فيه الفرق بين [illegible] العقل وبين ما يأباه الطبع ، وينكره الإنسان بالعادة فنقول :

[١٤٧-ب] إن العقل إذا أبى شيئاً فهو أبداً [illegible] له ، لا يجوز أن يتغير في [illegible] ولا يصير بغير تلك الحال . وهكذا جميع ما يستحسنه العقل أو يستقبحه [illegible] فإن جميع قضايا العقل هي [illegible] ومعه على حال واحدة أبدية ، لا [illegible] بغير عن حاله . وهذا أمر مستمر غير مدفوع ، ولا مشكوك فيه .

فأما ما [illegible] بالطبع والعادة فقد تغيره تغير الأحوال والأسباب [illegible] والعادات .

وأعني بقولي الطبع طبع الحيوان والإنسان ، لا الطبيعة [illegible] الأولى ، وذلك أن اسم الطبيعة مشترك [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] من الأمثلة والأحوال [illegible] [illegible] فنقول :

[illegible] الجواب [illegible] من الأشياء التي [illegible] العقل [illegible][1] [illegible] من [illegible] آخر ، أعني من الأشياء التي [illegible] [illegible] بالعادة .

[illegible] العقل [illegible] [illegible] [illegible] ، ولا [illegible] ولا [illegible] شهد من يلقى الحروب لأن عادته لم تجر به [illegible] جرت به عادته فهو عليه ، ويسهل فعله ، ويجري مجرى سائر الأفعال عنده .

وأنت ترى القصابين والجزارين ومشاهدي الحروب يهون عليهم ما يصعب على

---

(١) في الأصل « ولا ينكرها » .

وأيضا فإن الحيوان الذى يلمّ بمرضٍ لا يُعرف علاجه إذا أشفق عليه
، وكره مفارقته لما لا علاج له بأمرٍ مدبّره ؟ ليكون خلاصه فى الموت
. أفترى العقل الذى أمر بذبحه يستحسن ما كان يستقبح له ؟ أم يعتبر
الأشياء بطارئ طرأ ، وحادث حدث ؟ مع اعترافه أن العقل ليس من شأنه
: لأنه جوهر ثابت ، وجوهره هو حكمه ، ولذلك هو ثابت الحكم . وإن
أن حكم العقل على العدد والهندسة وسائر البراهين الطبيعية غير [١٤٨-١]
عليه مدد متغيرة ، أو يتغير فى مثل هذه الأزمان ، وأكثر
من شق ثلثه ... ويكون على وتيرة واحدة .

فأما الأمور التى تستقبح مرة ، وتستحسن أخرى ، ... ، وتستقبل
... غير عقل واحد . فإن ... يعترض فيه
، وأغراض الأحداث والأمور [غير] [1] الأبدية كلها — ... — مُعترضة
، ويتغير الحكم بتغيرها : ... لا يجوز أن تبقى ... على حال واحدة : لأنها
فى السيلان والتغير بلزوم الحركة إياها . والحركة نفسها هى تغير الأشياء
... إذ كلها متغيرة . وكذلك الزمان وما تعلق به هو يتغير بتغيره .

وما يعرض للإنسان من كراهية ذبح الحيوان إنما هو مشاركته إياه فى
... ية ، ويخطر بباله عند مكروه يصيب البهيمة أن مثل ذلك المكروه يناله
... ه إياه فى الحيوانية ، فيحدث له من النفور عند هذا الخاطر ما يحدث
من حيوان إذا تصور مكروها ، حتى إذا أنس بذلك الفعل زال عنه ذلك
النفور ، وصار الذبح والتقصّص [2] يجرى عنده مجرى رمى القمر ، وخبت الحشيش

---

(١) زيادة يوجبها المعنى

(٢) فى اللسان : « قصّ الشىء يقصّه قصًّا ... وقصّه ... وقصب ... ، ... أن يكون من ... ، ... أن يكون ... أحد ... ، أى ... »

وكذلك حالُ من شاهد الحروبَ — وأَنِسَ بها عند لقاء المستوحش منه

وهذه حالٌ أخرى أَشنعُ مما ذكرناه، وهي أن العقل قد يستحسن عند الإ

إذا حصل في مكروه غليظ من الأعداء كأن يرى في أهله وولده مثلا

مشاهدته — أن يبذلَ نفسه للقتل، ويختار الموتَ الجميـل على الحياة القبيـ

وهذه الرخصة من العقل مستمرة في كل حال يقبح بالإنسان أن يعيش فـ

أعني أن يختار الموت عليها.

فالجواب يجب عن مثال هذه المسائل أن يقال:

إن العقلَ لا يستحسنُ ولا يستقبح شيئًا منها إلا بقرائنَ وشرا

فأما هذا الفعلُ بعينه وحدَه فلا يشنؤه ولا يتقبله، أعني لا يحكم فيه بحكمٍ

[١٤٨-ب] أولى / كأحكامه التي عرفها وأحاط بها.

وهكذا الحالُ في الأشياء التي تُعرَف بالخير والشرّ، فإن كثيرًا من

يعتقد أن [1] الأشياء كلها منقسمة إلى هذين. وليس الأمر كذلك

اليسارَ والتمكُّنَ من الدنيا ليس بخير ولا شر حتى يُنظَرَ فيماذا يستعمله صاحبـ

فإن استعمل يساره وماله في الأشياء التي هي خير فإن يساره خيرٌ، وإن استعمله

في الشر فهو شر.

وكذلك كل شيء كان صالحًا للشيء ولضده فليس يُطلَق عليه أنه واحد

منهما، بل الأولى أن يقال: إنه يصلح لهما جميعًا كالآلات التي يُصلَح بها ويُفسد

فإن الآلات لا توصف بأنها مُصلِحة ولا مُفسِدة، ولا تسمى أيضًا بالصلاح والفساد

إلا بعد أن تُستعمل.

هكذا يجب أن يقال في الأمور التي تُستحسَن أو تُستقبَح في أحوال

وبحسب عادات إنها ليست حسنة عند العقل ولا قبيحة على الإطلاق حتى يُبيَّن

(1) في الأصل «يقبل الأشياء».

وصفها ومستعملها ورماتها وأجوائه ، فبين القصص إذا[1] وقع عليه هذا الاسم لأن له فيه من حياة الناس ، وإذا وقع عليه اسم القتل بغير هذا الاعتبار صار قبيحاً لما فيه من تلف الحيوان .

وقد خرجتُ في هذه المسألة عن عادتي في هذا الكتاب من الاختصار والإيماء إلى النكتِ لكثرةِ ما أسمعه من جهال المتطببين ومن اغترّ بأشباههم ، وخُدع إلى آراء منهم مُصدّقةٍ بخدعة لبيّ خفضوا بها إلى قلوب الأغمار من الناس الذين غذوا بهم عن الشرائع الصحيحة . ولو أن واحداً منهم سُئل عن القبيح والحسنِ مطلقاً أو مقيداً ما عرّفه إلا على سبيل الاختلاط .

على أنه لا يمتنع كل عاقل منهم إذا رأى حيواناً يضطرب وقد طال دماؤه في قروح خارجة به ، أو قولنج[2] قد يئس من برئه ، أو مهواة تردّى فيها [١٤٩-١] فانكسر منها — أن يشير بذبحه وبأن يتولى ذلك بنفسه .

ولعل ضروباً من المكاره تلحق الحيوانَ إذا طال عمره بعشر دون ما ذكرناه خلاصه منها بالموت الوحيّ لو فطن له . وإنما لا يتولى الذبح بنفسه ، ويشير على غيره به لأجل العادة والاستشعار الذي لزمه

ولو أن هذا العاقل منهم بلي بسلطان يعذّبه عذاباً يريد به أن يأتي على نفسه في زمان طويل ليذيقه العذاب ، لبادر إلى الحكم بما يوجبه قتلُ ، وسأل من ساعة ، أو سبب أن يُراح من الحياة . وكذلك لو فعل بولده ، أو عترته[3] ، ما يكرهه لاختار الموتَ على رؤيته . فكيف يكونُ المكروهُ مختاراً محبوباً ، ومستقبحاً مستحسناً من جهة العقل لولا ما ذكرناه

---

(١) في الأصل « أحد وقع »

(٢) في مفاتيح العلوم ص ٩٠ « قولنج : اعتقال الطبيعة لانسداد المعى المسمى قولون » .

(٣) في اللسان « قال ابن الأعرابي : العترة ، ولد الرجل وذريته وعقبه من صلبه » وفي الأصل « أو عترته »

فقد ظهر الجواب عن هذه المسألة ، وتبيّن أن كلّ ما كان قبيحاً فى وق
دون وقت لا يجوز أن يُنسَبَ إلى العقل المجرّد ، وإلى أحكامه الأولية الأزلي
بل لا يقال فيه إنه قبيح ولا حسنٌ على الإطلاق . وإنما يُنسَب إلى الطب
والعادات ، ثم هو قبيحٌ بحسب كَيْت وكَيْت ، وحسنٌ لكذا وكذا مقيـ
غيرَ مطلق ، ولا منسوب إلى العقل المجرّد .

فأما لفظه التى على مقلة ، فقد تكلّم الناس فى وجه السياسة بها . و
خصمهم بين الشيب ورسالة متقدمة قد وضعتُها ، وبينتُ وجه الصواب فى مذ
من اشتبه .

(١٤٨)
مســـألة

قال أحمد بن عبد الوهاب فى جواب[1] أبى عثمان الجاحظ عن « التربيع والتدوير »[2] :

لا يقدر أحد أن يكذب كذباً لا صدق فيه من جهة من الجه
وهو يقدر أن يصدق صدقاً لا كذب فيه من جهة من الجهات .

الجـــواب

قال أبو على مسكويه رحمه الله :

[١٤٩-ب] / إن كان الصدقُ والكذبُ إنما يقعان فى الخبر خاصة من بين أقسام الكلام .

---

(١) هو أبو بكر أحمد بن ... عثمان — فيما ذكر ... أن أحمد بن عبد الوهاب ... رسالة « التربيع والتدوير » ... عثمان ... عليه ... عبد الوهاب » فى مسائل ... ذكرها بعد

(٢) نشرت هذه الرسالة فى « رسائل الجاحظ » ... ص ١٨٧ — ٢٠٢

(٣) فى الأصل « من جب دون أقسام »

والخبر الذي يسميه المنطقيون: القول الجازم، وهو الذي تقع فيه الفوائد. وذات قسمه هي التي تكلم عليها أهل هذه الصناعة — فإن الخبر قد يكون كذباً محضاً كما يكون صدقاً محضاً.

وإن كان ذهب أحمد بن عبد الوهاب في الصدق والكذب إلى غير ما عرفه هؤلاء القوم وتكلموا عليه إلى غير محصل له، ولا متكلَّم عليه.

(١٤٩)

مســـألة

ذكرت في هذه المسألة مسألةً ذكرها أبو زيد البلخي حاكياً، ومرّ أيضاً [illegible] ورويا. قال أبو زيد العشق [illegible]. قيل لبعض الحكماء: ما معنى سكون الناس الفصحاء إلى الصدق، ونفورهم عن الكذب؟ فقال: لعلة في ذلك [illegible] وكيت

الجواب

قال أبو علي مسكويه رحمه الله:

إنما تسكن النفس الفاضلة إلى ما كان من الخبر مقبولاً، إما بوجوب ما تقدمه دليل من برهان أو إقناع قوي، وما لم يكن كذلك وجب على النفس — لا محالة — ترده ونفيه.

وأما صاحب المسألة فقد زاد من هذه المسألة: كيف صارت النفس تسكن إلى الحق بالقول المرسل؟

فالجواب: أن النفس إنما تحركت حركتها الخاصة بها — أعني إجالة الروية — طلباً للحق لتصيبه. ولولا طلبها له لما تحركت، ولولا حركتها هذه لما

كانت حياة تفيد الجسم أيضاً الحياة . فالنفس بهذه الحركة الدائمة الذاتية حي

[١٥٠-١] بل الحياة هي هذه الحركة من النفس ، وهي دائمة لها كما قلنا . وأنت تعرف

ذلك قريباً من أنك لا تقدر أن تعطلها من الروية والفكر لحظة واحدة ؛ لأ

— إما فكرة أو روية خاصة في المحسوس (١) ، أو روية خاصة في المعقول

فتور أصلا . وكذلك هي دائمة الحركة ، وهذه الحركة إنما هي شوق ، أعني

أعني به طلبه الحق فإذا أصابته سكنت من ذلك الوجه . ولا تزال تتحرك

تصيب الحق من الوجوه التي يمكن إصابته منها ، فإذا أصابته سكنت

لأن غاية كل متحرك أن يسكن عند بلوغه الغاية التي تحرك إليها .

ولعلك تقف من هذا الإيماء على غور بعيد [illegible] أعانك الله — تعالى

عليه بلطفه .

(١٥٠)

مسألة

قال أحمد بن عبد الوهاب في مُعدية الخطط

« لم صار الحيوان يتولد في النبات ، ولا يتولد النبات في الحيوان ؟ أي : تتولد الدودة في الشجرة ، ولا تنبت شجرة في حيوان » .

فلم يُجب .

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله

إن الحيوان يحتاج في وجوده إلى وجود النبات ، والنبات لا يحتاج في

---

(١) في الأصل « حاله في الحواس » .

وجوده إلى وجود الحيوان. والسبب في ذلك أن الحيوان أكثر تركيباً من النبات، لأنه مركب منه ومن جواهر أخر، أعني النفس الحيوانية، ولذلك يكون الحيوان في أول تكوّنه نباتاً، ثم يحصل من بعدُ حركة الحيوان.

وحصولُ أثر النفس في الإنسان إنما يكون بعد أن تنشأ في الرحم صورة النبات، ويكون استمداده الغذاء من عروق متصلة بالرحم شبيهة بعروق النبات، حتى إذا استكمل صورة الحيوان، وحصلت له النفس الحيوانية انقطعت تلك العروق، وهو الشقّ الذي يحقّ الأم، ويخرج لوقته للخروج. [١٥٠-ب] فإذا خرج وتنفس في الهواء فتح فمه واستدعى به. ولا يزال تتكمّلُ فيه صورةُ الحيوان إلى أن يحصل أثر النفس الناطقة، ثم يكمُلُ بها ويصيرُ إنساناً بقدرةِ الله تعالى ولطيفِ حكمته جل اسمه.

فالنبات — كما ذكرنا — أبسط وأقدم وجوداً من الحيوان. أعني أنّه لا يحتاج في وجوده إلى وجود الحيوان، فهو يكتفي بمادّته من الأرض والهواء والماء والحرارةِ التي تأتيه من الشمس حتى يتمّ ويحصلَ وجودُه.

فأما الحيوان فلا يكتفي بتلك الأشياء حتى تنضافَ إليها مادةٌ أخرى تغذُوه؛ فإنه لا يكتفي بالبسائط من الماء والأرضِ والهواء، ويحتاجُ إلى النبات حتى يغذوَه، ويكمّلَ وجودَه، ويحفظَ عليه قوامَه.

فإذا كان وجودُه وقوامُه بالنبات جاز أن يتولّدَ فيه. ولما كان وجودُ النبات يتمّ بغيره، ولا يحتاج إليه لم يتولّدْ فيه. ولو تولّد النبات في الحيوان[1] مع أنه لا يغذوه ولا يحتاج إليه، والطبيعة لا تفعل شيئاً باطلاً ولا لغواً — لأفسد الحيوانَ، وفسدَ هو في ذاته:

أما إفساده الحيوانَ، فلحاجته إلى ما تضربُ فيه عروقُه التي يمتصُّ بها

---

(١) في الأصل «في الحيوان لكان».

مادته التي تحفظ عليه ذاته، وعوضه مما يتحلل منه؛ ومتى ضرب عروقه و
بدن الحيوان عرض انحلاله، وفي تفرق اتصال بدن الحي هلاكه.

وأما هلاكه في نفسه وفساده فلأنه لا يجد الماء البسيط، والأرض
البسيطة، والهواء الذي منه قوامه ومادته، وفي الحيوان لا توجد فيه هذه
البسائط بالفعل.

وهذا كاف في هذه المسألة.

(١٥١)

مسألة

[١٥١-١] ما سبب تساوي الناس في طلب الكيمياء، حتى يكاد يتحد العاقل في
عقله، والمتوسط في شغفه، والفقير في فقره، على شيمة واحدة؟

وما هو أولا؟ وهل له حقيقة؟ فقد طال خوض الخائضين فيه، وكثر كلام
الناس عليه، واضطرب الحق والباطل، والخطأ والصواب، والإحالة فيه. فما
الذي يثبته غير متحقق به، والذي يدفعه غير متبرئ إلى دفعه وإبطاله.

هذا، وقد صنعت من الناس به حيل على الناس. ومتى وقفت على هذه
المسألة وقفت من الحقائق على غيب شريف، ومعنى لطيف.

وهل ما يعزى إلى جابر بن حيان[1] حق، ولم تشدد[2] خالد
بن يزيد[3] أصل؟

---

(١) هو أبو عبد الله جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي، المعروف بالصوفي. [illegible]
الناس في أمره فقالت الشيعة إنه من كبارهم، وزعم قوم من الفلاسفة أنه كان منهم، وله
في المنطق والفلسفة مصنفات، وزعم أهل صناعة الذهب والفضة أن الرياسة انتهت إليه في عصره
[illegible]. راجع الفهرست ٤٩٨ – ٥٠٣.

(٢) في الأصل «ولما يشد».

(٣) هو أبو هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان كان من أعلم قريش بفنون العلم،
وله في صنعة الكيمياء والطب [illegible]، وكان بصيرا بهذين العلمين متقنا لهما، وله رسائل دالة

وهل يتمّ مثل هذا في الموضوع المختلَق، والمفتعل المخترَق[1] ؟

وإذا اشتبهَ الأمر هــذا الاشتباه كيف نخلص إلى ما يرفعُ الريبَ، ويؤيّدُ اليقينَ ؟ فقــد رأيت ورأينا ناساً احتجّتْ بهم أحوال، ونفقت عليهم أمور بتصديق هذا البابِ وتكذيبه

وطرَف ما نرى فيه حلاوةُ الحديثِ به، وخلابة[2] المتحدثِ بذكرِه، وميلُ النفوسِ إليه حتى إنّ المكذّبَ ليتفرّغ له[3] باله، ويصغي أذنه، ويخفي دهشَه من غير أن يخلّي طائلاً، أو يحظى بنائل.

الجـــــواب

قال أبو علي مسكويه رحمه الله

إنّ سبب طلب الناسِ الكيمياء ظاهر بيّن، وهو أنهم حريصون على جميع الملاذّ والشهوات الجاذبة في المآكلِ والمشارب والمناكحِ والأمور التي تُقسَّمُ بين الحواسّ

ومحبّةُ الاستكثارِ والاستبداد، وإنّهم على الجمع والادّخار شيء في الطبيعة.

وليس يوصَل إلى جميع ذلك إلا بالذهب والفضّة، لأنهما بإزاء جميع المآرب على اختلافها. وكل إنسانٍ يعلمُ أنّه متى حصّلهما أو واحداً منهما فقد حصّلَ جميعَ مآربِ / على كثرتِها متى همّ بها وأرادها. ومع ذلك فهو يعدُّها ذخراً لولده، [١٥١ب]

في معرفته [illegible] كان [illegible] هو الذي عني بإخراج كتب [illegible] في صنعته، وكان [illegible] شاعراً [illegible] رأى وكانت وفاته سنة خمس وثمانين للهجرة، وانظر ترجمته في وفيات الأعيان ٢ : ٤٠٢ [illegible] والفهرست [illegible] ٤٩٧ — ٤٩٨

(١) في اللسان «[illegible] أبو الهيثم: الاختراق والاختلاق والاخترَاص [illegible] واحد، ويقال: خلق الكلمة واختلقها، وخرقها واخترقها إذا ابتدعها كذباً، وتخرّق الكذب وتخلّقه».

(٢) في الأصل «به».

(٣) في اللسان «والخلابة المخادعة، وقيل: الخديعة باللسان. وقال الليث: الخلابة: أن تخلب المرأة قلب الرجل بألطف القول وأخلبه».

ولأوقات شدتها التي تنحفظ من حوائج الدنيا ونحوها، فبهذين الحجرين يتوصل إلى جميع ما ذكرناه، وتدفع جميع الشر والمحن بتصرفهما.

فهذا سبب طلب الناس لهما، وحرصهم عليهما، وبين يوصل إليهما إلا بالمخاطرات الكثيرة، وركوب الأهوال، وتجشم الأعمال الشنيعة وغير ذلك.

ثم هما معرضان للآفات والمتسلطين، وأهل العيث، وهما من هذه الجهة — إن صحت — أسهل شيء وأهونه.

* * *

وأما قوله: ما هو وهل هو حقيقة؟ فإن البحث المستقيم أن يبدأ أولاً بهل هو، ثم بما هو. وقد بحث عن هل هو [illegible] لأن الأمر فيه مشكلا [illegible] تجد مقدمات كثيرة [illegible] وشكوك الناس في المقدمات، وجميع من يروم [illegible] من [illegible] صنعته فقد أكثروا في ذلك [illegible] حتى [illegible].

وقد [illegible] المتقدمون من الفلاسفة في هذا [illegible] واحد من [illegible] على [illegible] «يعقوب بن إسحاق الكندي»[1] وكان مشهوراً في [illegible] وقد عمله «محمد بن زكريا الرازي»[2] وكذا معروف [illegible]

(1) كذا في الأصل، وفي الفهرست [illegible] وطبقات [illegible] أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن [illegible] بن عمران بن إسماعيل بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي [illegible] فيلسوف العرب، وكان [illegible] في علوم مختلفة. راجع الفهرست ص ٣٥٧ — ٣٦٥ وتاريخ حكماء الإسلام ص ٤١ وطبقات الأطباء ١ : ٢٠٦ — ٢٠٩ وطبقات الأمم ص ٥٩

(2) سبق التعريف به ص ١٨٠ .

ثم قد شاهدنا في أهل عصرنا جماعة يُثبتون هذه الصناعة ، والأكثرون يبطلونها .

فأما المتكلّمون وطبقاتهم من أصناف الناس فمجمعون[1] على إبطالها ؛ لأنهم يزعمون أنّ في ذلك إبطالَ معجزاتِ الأنبياء — صلواتُ الله عليهم — إذ كان ما يدّعونه قلبَ الأعيان ، وهو لا يصحُّ عندهم إلاّ على يدِ نبيّ . ولأنّ الله — عزّ وجلّ — هو القادرُ على قلب الأعيانِ دون مخلوقيه .

ولكلٍّ حجج ، وسنذكرُ فيها طرفًا شافيًا ، ونوردُ ما في ذلك من الحجج ، ويكونُ حثّنا على ذلك بحثَ مَنْ قصدُه معرفةُ الحقّ دون النُّصرة المرجوّةِ من الكيمياء ؛ [١٥٢-أ] لأنّ هذا هو غايةُ من يتعسّفُ في نظره وبحثه ، ولا نبالي بعد ذلك صحّ أم بطلَ ؛ لئلا ندعو ما نجده صحيحًا ، ونجاوز إلى شأنه خدمةَ النفسِ للهوى ، أو نميل في طريق العصبيّة . وفي هذا النظر طولٌ لا يحتملُه هذا الكتابُ مع ما شرطنا فيه من الإيجاز ، ولكن سنفردُ له مقالة كما عملنا ذلك في مسألة العدل ؛ لمّا طالَ الكلامُ فيها أدنى طول .

وإذا فرغنا هذا في المقالة التي وعدنا بها [illegible] ومن بحث [illegible] هيئته [illegible] في الدنيا ، ومن [illegible] الأرض [illegible] الذي لا محالة

(١٥٢)

مســـألة

قال أحمدُ بنُ عبيدِ وهْبٍ في جواب « التربيع والتدوير » لأبي عثمانَ الجاحظ :

ما الفرق بين المُسْتَبْهِم والمُسْتَغْلِق ؟ .

(١) في الأصل « ويجمعون » .

وهذا بيّنُ الجوابِ ولكنّي سُقتُه هنا لنكتةٍ وكيت .

الجـــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله :

المستبهم من الأمور مرتبةٌ زائدةٌ على المستغلق ، يدلك على ذلك الاشتقاق : فإنّ الاشتقاقَ ملائمٌ للمعنى موافق لها ، لأنّ صاحبَه إنما يشتقُّ لكلِّ معنى إسم موافق له لا محالة وإلا لم يكن لاشتقاقِه معنى ، ولا لتكلّفه ذلك فائدة . وليس يُظنُّ هذا بالمُبرِّز منه فكيف بواضع اللغة .

ولمّا كان الغلق إنما يكون للباب ، وما أُغلق منه يُرجى فتحه كذلك يكون حالُ ما شُبِّهَ به ، واشتُقَّ له اسمٌ منه أو تصريفٌ .

وأما المستبهم فلا يقال في الباب أبهمته إلاّ إذا أخرجت حدّ الغلق به وما يجرى مجراه ، فالطمعُ فيه أقلّ .

هذه حالُ المسائل والأمور المستغلقة المستبهمة تشبيها بالأبواب التي ذكرناها .

(١٥٣)

مسألة

[١٥٢-ب] حضرتُ مجلساً لبعض الرؤساء فتدافع / الحديثُ بأهله على حدّه وهزله ، فحدّى بعضهم الحاضرين[1] ، وقال :

والله ما أدرى ما الذى سوّغ للفقهاء أن يقول بعضُهم فى فرج واحد : هو

(١) فى الأصل « للحاضرين »

حرام، ويقول الآخر فيه بعينه: هو حلال. والفرخُ فرخ، وكذلك المالُ مالٌ.

ثم وكذلك في النفس وما بعدها: كلامٌ. هذا يوجب[1] قتل هذا، وصاحبه يمنعُ من قَتْلِه. ويختلفون هذا الاختلافَ الموحِشَ، ويتحكمون التحكمَ القبيحَ، ويتَّبِعون الهوى والشهوةَ، ويتَّبِعون في طرق التأويل. وليس هذا من فعلِ أهلِ الدينِ والورعِ، ولا من أخلاق ذوي العقلِ والتحصيلِ.

هذا، وهم يزعمون أنّ الله — تعالى — قد بيَّن الأحكام، ونصب الأعلام، وأفرد الخاصّ من العامّ، ولم يترك رطْباً ولا يابساً إلا أودع كتابه[2]، وضمَّن خطابه[3].

وهذه مسألةٌ ليس يجب أن يكون مكانُها في هذه الرسالة؛ لأنها تَرِدُ على الفقهاء، أو على المتكلّمين الناصرين للدين؛ لكني أحببت أن يكون في هذا الكتابِ بعضُ ما يدلُّ على أصول الشريعة، وإن كان جُلُّ ما فيه منزوعاً من الطبيعة، ومأخوذاً من عينِ الفلسفة، وشبيهِ التجربة، وذوي الفضلِ من كل جنس وحدّ. وعلى الله — تعالى — نعوّلُ في الإرادة، والسلامةُ من مقت الحسدة.

---

(١) في الأصل «هذا يوجب».

(٢) من قوله تعالى في سورة الأنعام ٥٩: «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين».

(٣) قال الشافعي في «الرسالة»: «فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها. قال تعالى: «ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين» سورة النحل ٨٩.

الجـــــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

أما قولُ الفقهاء : إن الله — تعالى — بيّن الأحكام ، ونصَب الأعلام ، ولم يترك رطبًا ولا يابسًا إلا في كتاب مبين — فكلامٌ في غاية الصدق ، ونهاية الصحة . وكيف لا يكونُ كذلك وأنت لا تقدر أن تأتي بحكمٍ لا أصل له في القرآن من تأويلٍ يرجع إليه ، أو من ظاهرٍ يقطع عليه ، ثم لا يخلو مع ذلك من إيماءٍ منصوص ، وإخبارٍ عما سلف من القرون ، ومثلٍ مضروب ، ووعدٍ به ، وإشارةٍ [١٥٣-١] ما ينقلب إليه ، وتنبيه على ما يعمل به من سياسة دين ومصلحة آخرة .

فأما تسويغ الفقهاء أن يفتوا في شيء واحد بأنه حلال وحرام لأن ذلك الشيء تردُ وحاجة الناس فيه لمصلحةٍ أخرى تتعلقُ على هذا الوجه بالناس ، وإن كان الاجتهاد لا يكون في الأحكام متساويًا ، أعني أنه لا يؤدي إلى أمرٍ واحدٍ كما يكونُ ذلك في غير الأحكام من الأمور الواجبة . وبيان ذلك أن كلّ من اجتهد في طلبه الحق في أمر الله — تعالى — وأخذ طريقه ، وهو — لا محالة — مجتهد ، وقد وفّى النظر حقه ، فإنْ عدل عن النظر الصحيح ضلّ وتاه ، ولم يجد مطلوبه ، واستحقّ الإثم والعقوبة إن عاند . وإنما ساغ الاجتهادُ في الأحكام ؛ لأنّ بعضَ الأحكامِ يتغير بحسب الزمانِ ، وبحسب العادةِ ، وعلى قدْرِ مصالحِ الناس ؛ لأنّ الأحكامَ موضوعة على اعتدال الوضعِ ، وربما كانت المصلحة اليوم في شيء وغدًا في شيء آخر ، وكانت لزيدٍ مصلحة ولعمرٍو مفسدة . وعلى أنّ الاجتهاد الذي يجري مجرى التعبّدِ واختبارِ الطاعة أو لعموم المصلحةِ في النظر والاجتهادِ نفسه لا في الأمر المطلوبِ — ليس يقع فيه خطأ بعدَ أن يقع فيه الاجتهادُ موقعَه . مثال ذلك أنّ المرادَ من صرف

الكرة بالصولجان بما هو الرياضة بالحركة ، فليس يضره أن يخطئ الكرة ، ولا ينفعه أن يصيبها ، وإن كان الحكيم قد أمر بالضرب والإصابة ؛ لأن غرضه كان في ذلك الأمر نفس الحركة والرياضة . وكذلك إن دفن حكيم في رابية شيئاً وقال للناس : اطلبوه فمن وجده فله كذا . وكان غرضه في ذلك أن يجتهد الناس فيعرف مقدار اجتهادهم ؛ فيكون ذلك الطلب عائداً / لهم بمنفعة أخرى [١٥٣-ب] غير وجود الدفين . فإنه لا يضر أيضاً في ذلك أن يخطئ الدفين ، ولا ينفع أن يصيبه . وإن الفائدة كانت في السعي والطلب ، وقد حصلت للطالبين جميعاً . أي للذين وجدوه والذين لم يجدوه .

وأصناف الاجتهادات والنظر الذي يجري هذا المجرى كثيرة ، فمن ذلك التمرن في مسائل العدد والهندسة وسائر الموضوعات ، من غرض الحكماء فيه وجود الغرض الأقصى من استخراج [illegible] ، [illegible] النفس بالنظر ، وتعويد الصبر على [illegible] على منهج صحيح ، [illegible] [illegible] ، ومعرفة الخواص والأمور الخفية . [illegible] هذه الفائدة فقد وجد الغرض الأقصى من النظر .

فما كان من الشرع متروكاً غير منصوص فهو مما يجري معه هذا المجرى . وكان الخوض فيه والمشاجرة معه [illegible] من النظر والاجتهاد حتى [illegible] ما أدى إليه الاختلاف كله صواب وكله حكمة(1) . وليس يبعد أن تختلف الأجناس من الشيء الواحد أن يكون حلالاً بحسب نظر « الشافعي » ، وحراماً بحسب نظر « مالك » و « أبي حنيفة » ؛ فإن الحلال والحرام في الأحكام والأمور الشرعية ليس يجري مجرى المتناقض ، أو المتناقضين في الأمور الطبيعية وما جرى مجراها ؛ لأن تلك لا يستحيل أن يكون الشيء الواحد منها حلالاً وحراماً بحسب

---

(١) في الأصل « كله صوابا وكله كلة » .

حالين ، أو شخصين ، أو على ما ضرب له المثل من ضرب الكرة بالصولجان ، ووجود دقيق الحكم على الوجه الذي اقتضيناه .

وإذا كان الأمر كذلك فينبغي للعاقل إذا عثر في شيء من أحكام الشرع وكان صاحب اجتهاد ، له أن ينظر — أعني أنه يكون عالماً بالقرآن وأحكامه وبالأخبار الصحيحة ، والسنن المروية ، والاجماعات الصحيحة — أن يبذل في النظر ، ثم يعمل بحسب اجتهاده ذلك . ولغيره إذا كان في مثل مرتبته في المعرفة أن يجتهد ، ويعمل بما يؤديه إليه اجتهاده ، وإن كان مخالفاً للأول ، وأن اجتهاده هو المصوب منه ، ولا ضرر في الخلاف ، اللهم إلا أن يكون ذلك الأمر المنظور فيه من غير هذا الضرب الذي حكيناه ، وضربنا له الأمثلة مثل الأصول التي غاية النظر فيها هو إصابة الحق لا غيره ، فهذا مطلب وله نظر لا بد أن يؤدي إليه .

[١٥٤-١]

وكما أن الرياضة مصوبة في ضرب الصولجان وضرب الكرة إنما كان لأجل الصحة ، ثم لم يضر بعد حصول الصحة التي حصلت بها الصحة جرى الأمر في الكرة أصبناها أم أخطأناها ، فكذلك⁽¹⁾ الحال في الأمر الآخر أعني الذي لا بد من إصابة الحق فيه بعينه فإن مثله مثل المقصر لا بد في طلب الصحة من إصابته بعينه ، ويخرج الله من دون غيره ، ولا ينفع معه شيء غيره .

وإذا حصلت هذين الطريقين من النظر ، وأعطيتهما قسطهما من التأمل تعرض لك البحث فيما حكيته من مسائلك ، وخرج لك الجواب عنها إن شاء الله .

(١) في الأصل « وكذلك » .

(١٥٤)

مســألة

لم إذا عرفت الملك حال ليست في البشر مذمة ، وانهمك على الشهوة ، مسترسلا في هوى نفس اشتهت به ، وإن كان سفاكا للدماء ، قتالا للنفوس ، مطوقا للنفس ، مزيلا للنعم ؟

وإذا عرفت منه العقل والفضل وجد أحد منه ، وخمدت أطرافه منه ؟ [١٥٤ب]

ما شهادة الحال في هذه المسألة ؟ فإن جوابها يشرح عما فوق قدر المسألة ؟

الجــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله .

إن الملك هو[1] صناعة مقومة مدبرة ، حاملة الناس على مصالحهم من إقامة سننهم وسياستهم بالإجبار ، وبالإكراه ، وحافظة لمراتب الناس ومعايشهم جارية على أفضل ما يمكن أن تجرى عليه .

وإذا كانت هذه الصناعة فى هذه الرتبة من العلو فينبغى أن يكون صاحبها مقتنيًا للفضائل كلها فى نفسه ؛ لأن من لا يقوم نفسه لا يقوم غيره ، وإذا تهذب فى نفسه بحصول الفضائل له أمكن أن يهذب غيره .

وخصوص فضائل النفس تكون أولا العفة التى هى تقويم القوة الشهوية حتى لا تنازع إلى مالا ينبغى ، وتكون حركتها إلى ما يجب ، وكما يجب ، وعلى الحال التى تجب

---

(١) فى الأصل « هى » .

وذلك بتقويم القوة الغضبية حتى تستعمل هذه القوة أيضاً فى حركاتها فى مستعملها كما ينبغى ، وعلى من ينبغى ، وفى الحال التى ينبغى ، وبمقدار فى علو الكرامة ، واحتمال الأذى ، والصبر على الهون بمحض وجه ، ونزاع الكرامة على مقدار الذى ينبغى ، وعلى الشرائط التى ذكرت فى كتب الأخلاق

وإذا اعتدلت هذه القوتان فى الإنسان فكانت حركتهما على ما ينبغى معتدلة من غير إفراط ولا تقصير ، حصلت له الفضيلة التى هى أم الفضائل كلها

وحصول هذه الفضائل يقوى النفس الفاضلة ، ويشعر الإنسان بالقوة الكامنة التى يستحق بها أن يكون سائس مدينة ، أو مدير أمر

[١٥٥-أ] ومتى لم تحصل / هذه له فينبغى أن يكون مسوساً بغيره ، مُدَبَّراً ، يقومه ويهذبه

فأى شىء أقبح من عكس هذه الحال ، وإجرائها على غير وجهها ، ووضع الأشياء فى غير مواضعها فى الأمور فكيف الانعكاس ، وقلب الأشياء عن جهتها

* * *

فأما قولك : وإن كان الملك ذا بطش شديد ، وغضب كثير ، وسفك الدماء ، وإن الحزم فهذه حال تنقضه من شروط الملك ولا تزيد فيه ، وقد ذكر بسقط من عين رعيته أقرب : إذ كانت شريطة الملك أن يستعمل هذه الأشياء على ما ينبغى ، وعلى جميع الشرائط التى قدمت

وهل هذا إلا مثل طبيب يدعى أنه يُبْرِئ من جميع العلل (١) ، ويتفصد

(١) فى الأصل « الاعلال »

سلامة الأبدان على اختلاف تركيبها، وحفظها على اعتدالاتها، فإذا نظر
واحد مستقيم، مختلف المزاج، سوء التدبير، وقد شيئاً، وتصفح حاله
وجد من سوء البصيرة، وفساد التدبير معه بحيث لا يُنتظر منه صلاح مزاج
بدنه، فكيف لا يعرض من مثل هذا الضحك والاستهزاء، وكيف لا يستهين
به من ليس بطبيب ولا يدّعي هذه الصناعة، لأنه على سيرة حميدة في بدنه،
وسياسة صحيحة لنفسه؟ فإن اتفق لهذا المدّعي أن يتعسف ويتسلط، ويعتمد على
من الناس أن تتداركوا بتدبيره، فكيف لا يزداد الناس من النفور عنه،
والضحك منه؟

فهذا مثل صحيح، ومطابق لما مثلت به. فينبغي أن يتصور فيه، وبه كاف
فيما سألت عنه إن شاء الله

(١٥٥)

مسألة

لِمَ صار من يطرب لغناء ويرتاح لسماع يمُدُّ يده، ويحرك رأسه، وربما
قام / وجال، ورقص ونَعَر[1] وصاح، وربما عدا وجمز. وليس هكذا من [١٥٥-ب]
يحزن: فإنه يقشعر وينقبض، ويواري شخصه، ويخفي أثره، ويخفض
صوته، ويقلّ حركته؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

هذه المسألة قد تقدّم الجوابُ عنها عند كلامنا في سبب السُّرور والحزن حيث

(١) في القاموس «نعر كمنع وضرب — ونعر أكثر — نعيراً ونعاراً صاح وصوت بخيشومه».

قال : إن النفس عند السرور تنبسط الحرارة في العروق إلى ظاهر البدن ، والغم
عند الغم تحصره ، وبانحصار الحرارة إلى عمق البدن ، وإلى منشئها[١] من
القلب ما يكثر هناك البخار الدخاني ويبرزه [إلى] ظاهر[٢] البدن[٣]

واشتقاق اسم الغم يدل على معناه ؛ لأن القلب تحتقه ما تحتق الشيء
الحار إذا غم فيمنع ذلك حركة من الانتشار والظهور إلى سطح البدن ؛ ولذلك
يتنفس الإنسان عند الغم[٤] تنفساً شديداً كثيراً ؛ لحاجة القلب إلى هواء
يخرج عنه بعض الدخانية التي فيه ، ويجلب له هواء آخر صافياً ينفس
الحرارة ويروحها ، كالحال في النار التي من خارج

وهاتان حالتان متلازمتان ، أعني مزاج الغضب ، وحركة النفس ، وذلك
أنه إن عرض للنفس أن ينقبض عرض الحرارة من أقطار البدن في عمقه . وإن
اتفق لمزاج البدن عوز من الحرارة ، وانحصار إلى ناحية القلب انقبضت النفس
لأن أحدهما ملازم الآخر تابع له ؛ ولهذا ظن قوم أن النفس مزاج ما ، وظن
آخرون أنها تابعة لمزاج البدن .

والخمر وما يجري مجراها من الأشربة والأدوية التي تمدد الحرارة وتفشيها
وتنشرها إلى ظاهر البدن — يعرض منها السرور والطرب ، والأدوية
[١٥٦-ا] التي تبرد البدن ، وتقبض الحرارة يعرض منها ضد ذلك .

ومزاج السوداوي معه — أبداً — الغم ، ومزاج الدموي معه — أبداً
السرور .

وكان الأدوية والأغذية يعرض منها بمزاج هذا العارض ، وتحتقه حركة
النفس ، فكذلك الحديث والألحان ، وصوت الآلات من الأوتار والمزامير

---

(١) في الأصل « وفي منشأه » (٢) في الأصل « ويبرز ظاهر »
(٣) راجع صفحة ٢٤٤ - ٢٤٥
(٤) في اللسان « وسمي غماً لاشتماله على نفس » .

تحرّكُ النفسَ أيضا، ويتبعُ ذلك حركةُ مِزاجِ البدنِ، لاتصالِ المزاجِ بالنفس، لأنّهما متلازمان يؤثّرُ أحدهما في الآخرِ، ويتبعُ فعلُ أحدِهما فعلَ الآخر[1].

(١٥٦)

مسألة

لِمَ صار الكذّابُ يصدقُ كثيرا، والصدوقُ يكذبُ نادرا؟.

وهل يتنقّلُ إلفُ الصدقِ إلى الكذبِ؟.

وهل يتحوّلُ إلفُ الكذبِ إلى الصدقِ أم يستحيلُ ذلك؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

إنّ الصدقَ والكذبَ يجريانِ من النفسِ مجرى الصحّةِ والمرضِ؛ لأنّ الصدقَ لها صحّةٌ ما، والكذبَ مرضٌ ما.

وأيضاً فإنّ الصدقَ من الخبرِ يجري مجرى الصحّةِ، والكذبَ منه يجري مجرى المرض.

فكما أنّ الصحّةَ من الجسمِ أكثرُ من المرضِ؛ لأنّ المرضَ إنما يكونُ في عضوٍ أو عضوينِ أو ثلاثةٍ، وكذلك الصحّةُ في النفسِ أكثرُ من المرضِ؛ لأنّ النفسَ إنما يكونُ مرضُها في قوّةٍ أو قوّتينِ، وفي خُلقٍ أو خُلقينِ.

وكما أنّ الجسمَ لو كثرت أمراضُ أعضائِه، أو لو توالت أمراضٌ كثيرةٌ على عضوٍ منه لأتلفته وأعدمته، فكذلك النفسُ لو كثرت أمراضُ قواها، أو توالت أمراضٌ كثيرةٌ على قوّةٍ واحدةٍ لأهلكتها.

(١) راجع ما قاله أبو حيان في المقابسة التاسعة عشرة عن أبي سليمان المنطقي في السماع والوجد، وشرحها في المقابسات ص ١٦٣ — ١٦٤

وإنما الاعتدالُ الموضوعُ لكلِّ واحدٍ من الجسم والنفسِ هو الذي يجد

[١٥٦ب] عليه وجودَه، فإن طرق واحدًا / منهما مرضٌ في بعض الأحوال حتى يخرج

عن اعتداله فربما يكون ذلك في جزءٍ من الأجزاء، وقوةٍ من القوى، ثم يكون

ذلك زمانا يسيرا، ويرجعُ بعد ذلك إلى الاعتدال الموضوع له.

فأمّا إنْ توهّمَ متوهّمٌ أنّ الأمراضَ مستولية على جميع أعضاء الجسم

لا يبقى منه جزءٌ صحيحٌ، أو تتوالى أمراض كثيرة في زمان طويل متصل

عضو واحدٍ فإنّ ذلك وهم باطلٌ؛ لأنه لو صحّ وهمه لبطل ذلك الجسم، أو ذلك

العضوُ الذي توهم فيه. والدليل على ذلك أنّ القلب لما كان مبدأ الحياة

منه تسرى الحياةُ في جميع البدنِ صار محفوظا غاية الحفظِ من الأمراض؛

لو عرض له مرضٌ تسرى ذلك المرضُ في جميع أجزاء البدنِ سريعا، و[illegible]

منه التَّلفُ السَّريعُ، والموتُ الوَحِيُّ.

وهذه حالُ النفسِ في اعتدالها ومرضها.

ولما كان الكذبُ يعطيها صورةً مشوّهة، أى صورةَ الشيء على [illegible]

ما هو به صار المعطى والمعطَى مريضين به؛ ولذلك لا يتكلّف أحد ذلك

ولا يعتمده إلا لضرورة داعية، أو لأنه يظنّ بذلك الكذبِ أنه ينفعُ له

كما ينفع السمُّ الجسمَ في بعض الأحوالِ فيتجشّمُ عنده الشجاعة على [illegible]

من نفسه، وربما تكرّر منه ذلك فصار عادة، كما تصيرُ [illegible] أ[illegible]

وعاداتٍ، وكما تصيرُ الـ[illegible] كل الضرورةَ عادةً سيئة القوم

وأيضا فإن المعتمد للكذب إنما يروّج له الكذبُ إذا خلطه بالصدق [illegible]

تجيء أيضا منه الصدقُ، وإلا لم يتم له الكذبُ أيضا؛ لأنّ الباطل لا [illegible]

له إلا إذا امتزج بالحق.

* * *

فأما قولك: هل ينتقل من اعتاد الصدق إلى الكذب، أو من ألف الكذب إلى الصدق؟ فلولا أنّ ذلك ممكن ونشاهد في الناس لما وضعت السنن، ولا قُوِّم الأحداثُ، ولا عني الناس بتأديب أولادهم، ولا عاش أحدٌ [١٥٧-أ] بها، ولكنّ هذه الأشياء شائعة في الناس، ظاهرة فيهم.

وقد بيّن ذلك في كتب الأخلاق، فإن أردت استقصاءه فخذه من هناك إن شاء الله.

(١٥٧)

مسألة

ذكرتَ — أيدك الله — ما في لا يستحق الجواب من آراء العامة، والإناث وقصتَ لهم مثل قولهم: إذا دخل الذباب في ثياب أحدهم يمرضُ، وقولهم ديكٌ شيء تمرّة، وإذا طنّت أذن أحدهم قالوا كيت وكيت.

وهذه المسائلُ وأشباهُها إنما ينبغي أن يُهزأ بها، ويُستملح بإيرادها على معنى النادرة، فأمّا أن تطلب لها أجوبة فما أظنّ عاقلاً يعترف بها، فكيف يُجيبُ عنها؟ والله يغفر لك ويُصلحك.

(١٥٨)

مسألة

ما الفرق بين العرافة والكهانة، والتنجيم والطَّرْق، والعيافة، والزجر[1]؟

وهل تشاركُ الترك في هذه الأشياء أمة أُخرى أم لا؟

---

(١) في الأصل «والجرو»

الجـــــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله

أما الفرق بين العِرافة والكِهانة فهو أنّ العرّاف يُخبِر عن الأمور الماضية والكاهن يخبر بالأمور المستقبلة . وذلك أنّ العِرافة معرفةُ الآثار ، والاستدلال منها على مؤثِّرها . والكِهانة هي قوّة في النفس تطالع الأمور الكائنة عن الحواسّ . وهي منها غائبة على العرافة . وقد تكلّمنا عليها في كتابنا المسمّى « الفوز » عند ذكرنا الفرق بين النبي والمتنبي ، وفي القوّة التي يكون الوحي ، وكيفيّة ذلك فليطلب من هناك .

* * *

وأما الفرق بين التنجيم وما يجرى مجرى الفأل فظاهر ، لأنّ التنجيم صناعة تُعرَف بها حركاتُ الأشخاص العالية وتأثيرها في الأشخاص المتقابلة صناعة طبيعيّة ، وربما كان قد جنى عليها أكثر من طاقتها ، أعني أنّ ربما تضمّن لعلم من جزئيات الأمور ودقائقها ما لا يُوصل إليه بهذه الصناعة

[١٥٧-ب] فيخبر بالكائنات على طريق التأثير للشيء في مثله ، وذلك أنّ الشمس إذا تحرّكت في دورةٍ واحدةٍ من أدوارها أثّرت فينا ضروبًا من التأثير في هذا العالم . وكذلك كلّ كوكب من الكواكب بنوع حركته ودورته وشعاعه الذي ينتهي إلى عالمنا هذا . فالمنجّم إنما يقول مثلا إنّ الشمس الآتية تجتمع [فيها] دلائل الشمس وزحل فتؤثّر في عالمنا هذا أثرًا مركّبا من طبيعتي هذين الجرمين فتكون حال الهواء كيت وكيت ، وكذلك حال الاستقصّات الأربع[1] .

---

(١) الاستقصات الأربع هي النار والهواء والماء والأرض

كان الحيوانُ والنباتُ مركَّبَين من هذه الطبائع وجب أن يكونَ كلُّ ما أثَّر في بسائطه يؤثِّر أيضاً في المركَّب منها .

فتأثيرُ النجوم في عالمنا تأثيرٌ طبيعيٌّ ، ولعلم التنجيم بحسب ما يحسبُ من حركاتها وشعاعاتها الواصلةِ إلينا آثارُها حكمٌ طبيعيٌّ ، وإن كان يغلطُ أحيانه لسبب دقةِ علمه ، وكثرةِ الحركاتِ والمناسباتِ التي تجتمع من جملة الأفلاكِ والكواكبِ ، وقبولِ ما يقبلُ من أجزاء عالمَ الكونِ والفسادِ ، وبحسب الآثار من اختلافها .

* * *

فأما تحصيلُ الفالِ ، وزجرُ الطيرِ ، وضربُ الحصى ، وما أشبه ذلك فإنها ظنون ، والصدقُ فيها إنما يكونُ على طريق الاتفاق ، وفي النوادرِ ، وليس يستندُ إلى أصلٍ ، ولا يقومُ عليها دليل ، لأنها ليست طبيعية ، ولا نفسانية ، ولا عقلية ، وإنما هي خيالات بحسبِ الأوهام والظنونِ ، وهي تكذبُ كثيراً ، وتصدقُ قليلاً ، كما يتفق ذلك في خبر من عدَّ جيّ البط ، ومن ركبُ الأمير ، بغير دليلٍ ولا قياس ؛ فمن يتكلَّمُ بذلك ، وأرسل الحكمَ به إرسالاً فربما صحَّ ووافقَ أن يصدق حقيقة ، وفي الأكثر يخطئ ولا يصحّ .

* * *

والأممُ تشاركُ العربَ في هذه الأشياء ، إلا أن العرب تختصُّ من العيافة ومن زجرِ الطير بأكثرَ مما في الأمم الأُخَر .

(١٥٩)

مسألة

لمَ صارتْ أبوابُ البحثِ عن كل شيء موجودٍ أربعةً ؟ وهي : هل ، [١٥٨-أ] والثاني ما ، والثالث أيّ ، والرابع لِمَ .

الجـــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله :

لأنّ هذه الأشياء الأربعة(1) هي مبادئ جميع الموجودات وعللها الأُوَل، والشكوك إنما تعرض في هذه، فإذا أُحيطَ بها لم يبقَ وجه لدخول شكّ.

وذلك أنّ المبدأ الأوّل في وجود الشيء هو ثباتُ ذاتِه، أعني هُويّته التي يُبحث عنها بهل، فإذا ثبتت الهويّة في هو[يّة] الشيء، أي في وجوده، يُبحث عن شيء آخر من أمره.

فإذا زال عنه الشكّ في وجوده، وثبت له ذاته وهويّته جاز بعد ذلك أن يُبحث عن المبدأ الثاني من وجوده وهو صورته، أعني نوعه الذي قوّمه، و[ما] به هو ما هو، وهذا هو يُبحث عنه بما، لأنّ ما هي بحث عن النوع، والصورة المقوّمة.

فإذا حصّلَ الإنسان في الشيء المبحوثِ عنه هذين، وهما(2): الوجود الأوّل والهويّة التي بحث عنها بهل، والوجود الثاني وهو النوعيّة أعني الصورة المقوّمة التي بحث عنها بما، جاز أن يُبحث عن الشيء الذي يُميّزه [من] غيره، أعني الفصلَ، وهذا هو المبدأ الثالث، لأنّ الذي يميّزه من غيره هو [الذي] يُبحَثُ عنه بأيّ، أعني الفصلَ الذاتيّ له.

فإذا حصّل من الشيء المبحوثِ عنه هذه المبادئ الثلاثة لم يبق في[ه] ما يعترضه شكّ، وصحّ العلمُ به إلا حال كمالِه، والشيءُ الذي من أجله وُجد

[١٥٨ب] وهذه العلّةُ الأخيرةُ التي تسمّى الكماليّة وهي أشرفُ العلل. وأرسطاطاليس

---

(1) في الأصل « الأربعة الأشياء ».

(2) في الأصل « هما وهو ».

هو أوّلُ من نبّه عليها واستخرجها ، وذلك أنّ العللَ الثلاثَ هي كلّها خوادمُ وأسبابُ هذه العلّةِ الأخيرة ، وكأنها كلها إنما وُجِدَتْ لها ولأجلها[1] وهذه التي يُبْحَثُ عنها بِلِمَ .

فإذا عُرِفَتْ لِمَ وُجِدَ ، وما غرضُه الأخيرُ ، أعني الذي وُجِدَ من أجله — انقطع البحثُ ، وحصَلَ العلمُ التامُّ بالشيء ، وزالت الشكوكُ كلّها في أمره ، ولَمْ يبقَ وجهٌ تتشوّفه النفسُ بالرَّوِيّة فيه ، والشّوقِ إلى معرفته ؛ لأنّ الإحاطةَ بجميع عِلَلِهِ ومباديه وقعت حاصلة ، وليس للشكِّ وجهٌ يتطرّقُ إليه ، فلذلك صارت البحوثُ أربعةً لا أقلَّ ولا أكثر .

(١٦٠)

مسألة

ما المعدومُ ؟ وكيف البحثُ عنه ؟

وما فائدةُ الاختلافِ فيه ؟

وما الذي أطال المتكلمون الكلامَ في اسمه ومعناه ؟

وهل قولهم[2] محصول ؟ فإني ما رأيت مسألة لا تمكّن من نفسها غيرَها .

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

إنّ المعدومَ الذي يشير إليه المتكلمون خاصة هو موجودٌ بوجه من الوجوه ؛ ولذلك صحّت الإشارةُ إليه ، والكلامُ عليه . ومثالُ ذلك أنّ زيداً إذا تُوُهِّمَ معدوما

(١) في الأصل « له ولأحله » .
(٢) في الأصل « قولهم » .

فإنّ صورته قائمة فى وهم المتكلّم على عدمه . وتلك الصورة له فى الوهم هى وجودٌ ما له . وكذلك حالُ كلّ ما نتوهمه مفهوماً من جسمٍ ، أو عَرَضٍ أو حالٍ ، لا معدومة من[2] محوطة . والدليـل على ذلك أنّا لا نتوهمه شيئاً معدوماً إلاّ ونتصورُ له حالا قد وُجد فيها ، أو يوجد فيها ، وصورته تثبت قائمة فى وهمنا ، وهى وجود ما .

[١٥٩-١] فأما المعدومُ المطلقُ الذى لا يسندُ إلى شخصٍ ما ، ولا إلى عَرَضٍ فيه وحالٍ له ، فإنه لا ينضبط بوهم ، ولا يُتكلَّمُ عليه ، ولا يصحّ مسألته أحد عنه لأنه لا شىء على الاطلاق .

وإذا يصحّ مسألة عن شىء ثمّ ، تعرضُ له أحوالٌ إما حاصرة فيه ، منتظرة له : ولذلك زعم أكثرُ المتكلمين أنّ المعدومَ هو شىء ، وزعم بعضهم أنه لا شىء ، أعنى أنهم لا يسمّونه شيئاً .

وإنما عرض لهم هذا الخلافُ لأنّ منهم من خطه من حيثُ الوهم ، ومنهم من خطه من حيثُ الحس . فمنْ خطه فى وهمه أثبته شيئاً ، ومنْ خطه من حيث الحس لم يثبته شيئاً .

والدليل على أنّ المعدومَ الذى يشيرون إليه هو ما ذكرناه ، وعلى الحال التى وصفناها — أنّ القومَ إذا تجاوزوا مسألة المعدوم سألوا عن الجوهر : هل هو فى العدم ؟ وعن السّواد هل هو سواد فى العدم ؟ وكذلك جميعُ أمثلتهم إنما هو من أمور محسوسةٍ ، إذا صارت غير محسوسة كيف تكونُ أحوالها ؟ ثم يكون جوابُهم عن ذلك عما يتصوَّرُ منه للنفس ، ويقومُ فى الوهم ، فيقولون فى السّواد الذى حقيقتُه أنه أثرٌ فى البصر من مؤثّرٍ يعرضُ منه القبضُ : إنه فى العدم

---

(١) فى الأصل « من » .
(٢) فى الأصل « الى »

أيضاً كذلك. كأنهم يتوهمون أنه يُظَنّ بالبصر وهو معدوم ما يعقله وهو موجود.

وإنما عرض لهم هذا الوهم لأنّ القوة التي ترتقي إليها الحواس تُحِسّ شيئها بالآثار التي تقبلها فتتخيّلُ له الصورة مجردةً من المادة، وهذا هو العلم الحسّيّ.

لو أمكنهم إثباتُ صورةٍ عقليةٍ ونفيها لتكلموا على الموجود العقليّ، والمعدوم العقليّ ولو أمكنهم ذلك جاز أن يتكلموا أيضاً عن العدم المطلق هل يُشار إليه أم لا يشار إليه؟ ولكن هذه الأمور غابتْ عنهم[1] وبَعُدت عن [١٥٩-ب] مذاهبهم، وعمّا يسألون عنه. وقد خرج الجواب، ولاح لك بمشيئة الله.

(١٦٣)

مسألة

سمعتُ شيخاً من الأطباء يقول:

إني أفرحُ ببُرْء العليل على تدبيري، وأُسَرّ بذلك جداً.

فقلت له: أما تعرف علّة ذلك؟ قال: لا.

فذكرتُ له ما يمرّ بك في الجواب إن شاء الله.

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

إنما فرحَ الطبيبُ بنفسه، وصحةِ علمِه؛ وذلك أنه إذا شاهد عليلاً احتاج أن يتعرّف أولاً علّتَه حتى يُقيمَه على الصحة والحقيقة، فإذا علمها قاسها بضدّها

---

(١) في الأصل: «غابتهم عنهم».

من الأدوية والأغذية فيكون ذلك ضد جزء العليل .

فالطبيب حينئذ يكون قد أصاب في معرفة العلة ، ثم في مقابلتها بالدواء الذي هو ضدها .

وهذه الإصابة والمعرفة هي الحال التي تلتمسها بعقله ، ويتمنى لها طول زمان دراسته وروايته .

ومن شأن النفس إذا تحركت نحو مطلوب حركة قوية في زمان طويل بشوق شديد ، ثم ظفرت به فرحت له ، ولحقها انبساط وسرور عجيب .

(١٦١)

مسألة

لم صار — أيدك الله — مثل ابن العميد : لم لم يتفق الناس في التعامل على المنفسة بالياقوت والجوهر ، أو بالنحاس والحديد والرصاص دون الفضة والذهب .

وما الذي قصرهم عليهما مع إمكان غيرهما أن تقوم مقامها ، ويجري مجراها ؟ .

الجــــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

[١٦٠-١] قد تبين أن الإنسان لا تتم له الحياة بالتفرد ؛ لحاجته إلى المعاونات الكثيرة ممن يعد له الأغذية الموافقة ، والأدوية ، والكسوة ، والمنزل والسكن ، وغير ذلك من سائر الأسباب التي بعضها ضرورية في المعيشة ، وبعضها نافعة في تحسين العيش وتفصيله ، حتى يكون لذيذاً أو جميلا أو فاضلا .

وليس يجرى الإنسان مجرى سائر الحيوانات التى أزيحت عللها فى ضرورات عيشها وفيما تقوم به حياتها بالطبع، كالاهتداء إلى الغذاء والريش وغيرهما من حاجات بدنه؛ ولذلك أُمِدّ بالعقل، وأُعين به ليستخدم به كل شىء، ويتوصل بمكانه إلى كل أرب.

ولما كان التعاون واجبًا بالضرورة، والاجتماع الكثير طبيعة فى نفس الواحد — وجب بذلك أن يتمدن الناس، أى يجتمعوا ويتوزعوا الأعمال والمهن ليتم من الجميع هذا الشىء المطلوب، أعنى البقاء، ويحافظ على أفضل ما يمكن ولما عرض أن الاجتماع قد وقع، والتعاون قد حصل عرض أن النجار الذى يقطع الخشب ويبيعه للحداد، والحداد الذى يقطع الحديد ويبيعه للحراث، وكذلك كل واحد منهم إذا احتاج إلى صنعة الذى عاونه قد تقع الصنعة صاحبه عنه فى ذلك الوقت، فإن الحداد إذا احتاج إلى صناعة الحائك، وصاحب الثوب غير محتاج إلى صناعة الحداد وقفت التعاون، وإذا تعذر المعونة، وحصل كل واحد على عمله الذى لا يجدى عليه فى نفسه من حاجات بدنه التى من أجلها وقع التعاون، واحتيج لذلك إلى قيم للجماعة، ووكيل مشرف على أعمالهم ومهنهم، موثوق بأمانته وعدالته: ليفصل الجميع أمره، ويصير حكمه جائزًا، وقوله وعدًا مصدقًا، وأمانته صحيحة؛ ليأخذ من كل أحد، ويستوفى عليه / قدر ما عاون به، ويعطيه من معاونة غيره بقسطه من غير حيف. وإنما [١٦٠-ب] يتم له ذلك بأن يقوّم عمل كل واحد منهم ويحصّله، ثم يعطيه بمقدار قيمته وعدله من عمل الآخر الذى يلتمس معاونته. وهذا الفعل أيضًا لا يتم لهذا القيم المستوفى أعمال الناس إلا بأن يأخذ كل من عمل عملا، فيعرضه عليه، ويأخذ منه علامة من طابع أو غيره يكون فى يده متى عرضه قُبل ولم يُغش، وعرفت صحة دعواه، وأُعطى به من تعب غيره بمقداره.

ثم إنك تطلب في هذا الشيء الذي يحتمل أن يكون رهناً للصناعة فلم يمكن أن
يخص من الأشياء الموجودة دائماً ، ولا يقدر كل أحد على تناوله ، [illegible]
فيه ، فلا يحصله من لا يعمل عملاً ، ولا يعين أحد كدّه ، ويتوصل به إلى
كد غيره وتعبه فيؤدي إلى خلاف ما دبر لأجله المشاركة والتعاون ، فوجب أن
يكون هذا الصنف من جوهر عزيز الوجود ، يمكن حفظه ، والاحتياط عليه ،
ولا يصل إلا من جهة ذلك معتمٍ إلى مستحقه الذي يعرض عمله وكده ، ووجب
مع ذلك أن يكون مع عزة وجوده غير [illegible] يفسد من الماء والنار والهواء ونحو
ما يمكن ذلك في غالب هذه الأمور متى كان شيئاً [illegible] ، أو يحترق بالنار ،
أو يفسد صورته بعض العناصر الأربع — فمن صحب التعب سكثير أن
يحصله ثم [illegible] عنده ، فيضيع عليه ، ولا يصدق في [illegible] به ، [illegible] فوجب
أن يكون هذا الصنف حافظاً صورته ، حتى يبقى مع ذلك ، مأموناً عليه
الفساد مدة حصوله من [illegible] الأربع ، ومن الفساد الذي يكون [illegible]
كالكسر والحرق وغيرهما .

[١٦١-أ] ومن تصفح / الموجودات لم يجد شيئاً يجمع هذه الصفات إلا الأشياء
المعدنية ، ومن بين الأشياء المعدنية الجوهر الذي يذوب بالنار ، ويجمد بالهواء ،
ومن بين هذه الذهب وحده ؛ فإنه [illegible] وأخلصها صورة ، وأثبتها
على النار والهواء والماء والأرض ، وهو مع ذلك سليم على الكسر والقطع والرض
يعيد صورته بعينه [illegible] ، ويحفظ من جميع عوارض الفساد زماناً طويلاً جداً
فجعل مقوماً للصنائع ، وعلامة هذا الفن ، ثم احتيط عليه بأن طبع عليه
وعلاماته كل ذلك خوفاً من نوضل الأشرار فيه ممن يرتفق من عمل غيره ،
ولا يرفق غيره ، فإن هذا الفعل هو الظلم الذي يرتفع به العدل ، ويزول
معه النظام ، ويبطل بسببه الاجتماع والتعايش .

ثم إن وُجد هذا الجوهر الذي تجمع هذه الفضائل ، واحتيط عليه ضروب الاحتياطات من أن يصل إلى غير مستحقه — عرض فيه عارض آخر ، وهو [أنّ] الذي يكون عند الناس معونة يستحق بها شيئاً منه ربما احتاج إلى معونة يسيرة لا تساوي قيمة الأول ، ولا تقرب منه . مثالُ ذلك أنه ربما تعب الإنسان أو المخلص لغيره على الرحى بنوبة وكلفة وحكمة بليغة فإذا أعطى من هذا الجوهر قيمة عمله ، ثم احتاج إلى بقل أو خلال أو عرض يسير لا يستطيع أن يعطيه شيئاً من الجوهر الذي عنده ، ولا يمكن التقليل منه ؛ لأن الجزء اليسير منه أكثر قيمة من العمل الذي يلتمسه من غيره . فاحتيج لذلك إلى جوهر آخر تكون فضائله أنقص من الذهب ؛ لتصير خليفة له يعمل عمله ، وإن كان دونه ، ولم يوجد ما يجمع تلك الفضائل التي حكيناها في الذهب شيء[1] غير الفضة ، فجعلت نائبة[2] عنه ، ثم جُعل كل واحد من الذهب يساوي عشرة [١٦١-ب] أضعافه من الفضة ؛ لأن العشرة نهاية الآحاد فوجب لذلك أن تكون قيمة الواحد من ذلك الجوهر عشرة أمثاله من هذا الجوهر .

* * *

فأما التفاوت الذي وقع بين صرف الدينار والدرهم ، أعني أن صار منه الواحد بخمسة عشر درهما ونحوها ، وهي المسألة التي جعلناها علة لهذه المقالة . فإنما ذلك لأجل التفاوت في الوزن بين الذهب والدراهم ثم لأجل الغش الذي يكون في أحدهما . والأمر محفوظ مع ذلك في أن الواحد من الذهب بإزاء عشرة من الفضة إذا كان كل واحد منهما غير مشوب ولا مغشوش .

(١) في الأصل «شي» .
(٢) في الأصل «خلل له» .

(١٦٣)

مسألة

متى تتصل النفس بالبدن ؟ ومتى توجد فيه ؟
أي حال يكون حساً أم قبله أم بعده ؟

الجواب

قال أبو علي مسكويه رحمه الله

إن اتصال النفس بالبدن ، ووجودها فيه لفظ متسع فيها .

والأولى أن يقال : ظهور أثر النفس في البدن على قدر استعداد البدن ، وقبوله إياه .

وإنما تحرزنا من تلك الألفاظ لأنها توهم أن ها هنا اتصالاً عرضياً أو جسمياً وكلا هذين غير مطلق على النفس

والأشبه إذا عبرنا عن هذا المعنى أن نقول :

إن النفس جوهر بسيط إذا حضر مزاج مستعد لأن يقبل منه أثراً كان ظهور ذلك الأثر على حسب ذلك الاستعداد . ولتقدم هذه العبارة من غلط من زعم أن النفس تنتقل وتفعل أفعالها على سبيل القصد والاختيار ، أعني أن تفعل في حال ، وتمتنع في أخرى ؛ فإن هذا يجلب / كثيراً من الشكوك التي [١٦٢-ب] لا تليق بخصائص النفس وأفعالها .

وإذ قد تحققت هذه العبارة فنقول :

إن النطفة التي يكون منها الجنين إذا حصلت في رحم الموافق كان أول ما يظهر فيه من أثر الطبيعة ما يظهر مثله في الأشياء المعدنية . أعني أن الحرارة

اللطيفة تُنضِجُهُ وتَعقِدُه(1) ، وتُعطيه — إذا امتزج بالماء الذي يوافقه من
شهوة الأنثى — صورةً مركّبةً كما يكون ذلك في اللبن إذا مُزج بالإنفحة(2)
أعني أنه يَنعقد ويَتخثّر ، ثم تُسبغ عليه الحرارة حتى يصير مُلوّنًا بالحمرة فيصيرُ
مضغة ، ثم يستعدُّ بعد ذلك لقبول أثرٍ آخر ، أعني أن المضغة تستمدّ الغذاء ،
وتتصلُ بها عروقٌ كعروق الشجر والنبات ، فيأخذ من رحم أمّه بتلك العروق
ما تأخذه عروقُ الشجر من ترابه ، فيظهرُ فيه أثرُ النفسِ النباتية ، أعني النامية ،
ثم تقوى هذا الأثر فيه ، ويستحكمُ على الأيام حتى يكمل ، ويسعى بعد ذلك
إلى أن يستعدّ لقبول الغذاء بغير العروق ، أعني أنه يتحرك بحركته لتناول غذائه ،
فيظهرُ فيه أثرُ الحيوان أولًا أولًا . فإذا كمل استعداده لقبول هذا الأثر
فارقَ موضعه ، وقبل أثرَ النفس الحيوانية ، ثم لا يزال في مرتبة البهائم من
الحيوان إلى أن يصير فيه استعداد لقبول أثر النطق ، أعني التمييز والرويّة .
فحينئذ يظهرُ فيه أثر العقل ، ثم لا يزالُ يقوى هذا الأثر فيه على قدر استعداده
وقبوله حتى يبلغ نهاية درجته وكماله من الإنسانية ، ويُشارف الدرجة التي تتلو
درجة الإنسان فيستعدّ لقبول أثر الملك . فحينئذ يجب أن تكون النشأة الآخرة
بحال أقوى من الحالة الأولى المتقدمة [س-١٦٢]

وهذا الكلام ليس يقتضي أن يقال فيه : متى يتصلُ وينفصلُ ، بل من شأن
القائل له أن يقال فيه : متى يستعدُّ ويقبلُ . وأما النفس فهي مُعطية للذات
كلَّ ما قبل أثرها بحسب قبوله واستعداده وتهيئه .

وقد تبيّن أنها تعطي البدن أحوالًا مختلفةً ، وصُوَرًا متباينةً(3) قبل أن

(1) تعقده أي تحركه
(2) في اللسان « الإنفحة : لا تكون إلا لذي كرش ، وهو شيء يخرج من بطنه أصفر يعصر في صوفة مبتلة في اللبن فيغلظ كالجبن » .
(3) في الأصل « متناسبة »

يكون حسًّا، وبعد أن تتمّ الصورةُ الإنسانيّةُ فيه[١] ينقطع أثرُ النفس من البدن ألبتّة على ضروبِ أحوالِه إلى أن يدورَ ضروبَ أدوارِه، وينتهىَ إلى غاية كمالِه. ولا ينبغى أن يقالَ إنه يخلو منها فى حال من أحواله، وإنما يقوى الأثرُ ويضعفُ بحسبِ قبوله. والسلام.

(١٦٤)

مســـألة

سُئل بعضهم: إذا فارقت النفسُ الجسدَ هل تذكر من علومها شيئًا أم لا؟ فأجاب بأنها تذكر المعقولَ كلَّه، ولا تذكر المحسوس.

وزاد السائلُ بما يَعترضُ العليلَ من النسيان؟ أى كيف تذكر النفس معقولَها إذا فارقت البدنَ وهى لا تذكر شيئًا منه إذا اعتلَّ البدن، أو بعض أعضاء البدن؟

فأجب عن صحة ذلك.

الجـــواب

قال أبو على مسكويه — رحمه الله:

إنما يظهر أثر النفس فى البدن بحسبِ حاجةِ البدن، وعلى قياس ما يكتنفه من حالاته فى ترقّى من حال إلى حال.

والتذكّرُ إنما هو إحضارُ صـورِ المحسوسات من قوّة الذّكر إلى قوة الخيال[٢]. وهاتان القوتان حيثُ بهما تحصـلان[٣] صورَ المحسوساتِ من الحواس

---

(١) فى الأصل « فى بعض ».
(٢) فى الأصل « الحال ».
(٣) فى الأصل « بها وتحصلان ».

أولا في جوهره (1) من الأجسام الصلبة . [ثم] تحصلانه بسيطا في غير
حامل جسمي بل في قوة النفس استمدادا كثيرا . ووقعت الحاجة إلى هذه القوة [١٦٣-١]
لأغراض البدن وحاجته إلى الشيء بعد الشيء . فإذا سقط البدن ، وزالت
الحاجة إلى الحواس سقطت حاجته إلى التذكر أيضا ، وصارت النفس مستغنية
بذاتها وما فيها من صور العقل ، أعني المعاني الأول ؛ لأنها هي ذات
العقل غير محتاجة إلى مادة ، ولا إلى جسم يحمل وجوده ، أعني أن الأمور
الموجودة في معنى هي العقل ، وهي التي تسمى الأوائل وليست في مادة ، ولا
محتاجة إليها .

وجميع قوى النفس التي هي الحس والآلات الحسية فيها تنحل ببطلان
البدن ، أي تستغني عنها النفس إذ هي نفس وجوهر بسيط . وإنما احتاجت إليه
لأجل حاجة البدن لمشاركة النفس ، لتستمد منه بقاءه اللائق بها إذا كان
نباتا أو حيوانا أو إنسانا . فأما النفس إذ هي جوهر بسيط فغير محتاجة إلى شيء
من هذه الآلات الجسمية .

وإنما عرضت لك هذه الحيرة لأنك سألت عن أمر بسيط مع توهمك إياه
مركبا . وهذا مركب غير هذا البسيط ، أعني أن الآلات البدنية كلها هي
أيضا مركبة تحتوي على مناسبة بها يكمل بها فعل شيء مركب .

وحواس الحس ، والقوى التي تستعملها من التخيل ، والوهم ، والفكر
لا تتم إلا بآلات وأمزجة مناسبة بها تتم أفعال مركبة .

فإذا عادت الجواهر إلى بساطتها بطل النفس المركب أيضا ببطلان الآلات
مركبة ، وبقي الجوهر البسيط غانما بذاته عن حاجات البدن وضروراته التي
تم وجوده بها من حيث هو مركب لأجلها .

---

(1) في الأصل : [illegible]

(١٦٥)

مسألة

سأل عن الحكمة في كون (١) الجبال

[١٦٣ـب] / الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

إنّ منافع الجبال ووضعها على بسيط من الأرض كثيرة جداً ، ولولاها ما وُجد نبات ولا حيوان على بسيط الأرض ؛ وذلك أن سبب وجود النبات والحيوان ، وغذائهما (٢) إنما هو الماء العذب الذي ينبع على وجه الأرض . وسبب الماء العذب الذي ينبع هو انعقاد البخار في الجو ، أعنى السحاب وما يعرض له من الانعصار والبرد حتى يعود منه إما مطر ، وإما ثلج ، وإما برد . ولولا توهّم الجبال مرتفعة على وجه الأرض ، وكانت الأرض كرة مستديرة لا نتوء ولا غَوْرَ فيها لكان البخار المرتفع من هذه الكرة لا ينعقد في الجو ولا ينحصر ، ولا يعود منه ماء عذب . بل كان غاية ذلك البخار أن ينحلّ ويستحيل هواء قبل أن يتمّ منه ما هو سبب عمارة وجه الأرض ؛ وذلك لأجل أن البخار المرتفع من الأرض يحتقن بين غور الأرض ، وبين الجبال التي تمنعه السيلان ، ومطاوعة حركة العنب ، وأسباب الريح (٣) التي هي حركة الهواء أعنى أن قلل الجبال الشاهقة تحفظ الهواء محتقناً بين أغوارها من الحركة التي يوجبها الفلكُ بأسره ، والكواكب فيها ، وشعاعاتها المؤثرة الملطفة التي توجبه

(١) الكون هنا بمعنى الوجود

(٢) في الأصل « وغذاؤها » .

(٣) في الأصل « الرحة » .

سَيَلاناً. فإذا حصل الهواء بين الجبال كذلك — كان البخار المرتفع فيه أيضاً محفوظاً من التبدد والحركة بتحرّك الهواء، ويحقن هذا البخار من ترادّ الجبال في خفضه في زمان الشتاء على نفسها ما يجمده ويعقده، ثم تعصره فيعود ماءً مستحيلاً، أو غيره مما يجري مجراه.

ولولا الجبال لكانت هذه المياه مدبرة بهذا التدبير مع ما دون كونه لا تجري على وجه الأرض إلا ريثما يهطل المطر، ثم تنشفه الأرض، فكان يعرض من ذلك [١٩٤-أ] أن يكون النبات والحيوان يعدمه في فصل الصيف، وعند الحاجة الشديدة إليه وإلى تنفيذه(١)، حتى كان لا يوصل إليه إلا كما يوصل إليه في المواضع البعيدة من العمران، أعني باحتفار الآبار التي هي بعمق مائة، وما فيها من [illegible]. فأما الآن مع وجود الجبال — فإن الأمطار والثلوج تبقى عليها، وإذا شُقّت في وقت أو بعد زمان تفجّرت من أسفلها العيون، وسالت منها الأنهار والأودية، وسالت على وجه الأرض منصبّة إلى البحر، جارية من الشمال إلى الجنوب [illegible] في ما استمدته من الأمطار في الصيف جمعتها في زمان الشتاء، والأمطار [illegible] ذات الجبال.

والدليل على أن العيون والأنهار والأودية كلها من فعل الجبال أنك لا ترى في نهر ولا وادٍ إلا أفضى بك إلى جبل، فأما العيون فإنها لا توجد إلا بقرب الجبال البتة، وكذلك ما يستنبط من القُنيّ، وما يجري مجراه.

فالجبال تجري من الأرض في إمساكها ما عليها من الأمطار مجرى الإسفنجة المصوغة تُبَلّ بالماء فتحمل منه شيئاً كثيراً، ثم توضع في مكان يسيل منه قليلاً قليلاً، حتى إذا جفت أعيد بلّها ومقتها من الماء [illegible] الرطوبة

---

(١) في الأصل «بقاه»

سائلة منسبة على وجه الأرض ، وتصير عند التدبير سببًا لعمارة العالم ، ونمو النبات والحيوان فيه .

وللجبال منافع كثيرة ، إلا أن ما ذكرناه من أعظم منافعها فيقتصر عليه . ولثابت[1] مقالة في منافع الجبال من أحب أن يستقصي هذا الباب [illegible] من [illegible] إن شاء الله .

(١٦٦)

مســـألة

لم صارت الأنفس ثلاثًا في العدد ؟
وهل يجوز أن تكون اثنتين ؟
أو هل يستحيل أن تكون أربعة ؟

الجـــواب

[١٦٤-ب]

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

النفس في الحقيقة واحدة ، وإنما يظهر أثرها [illegible] كما قلنا فيما تقدم بحسب قبول المادة . وإنما قيل إنها ثلاث لأن من شأن الشيء الذي [illegible] أثره ضعيفًا ثم تقوى عليه القوة أن ينقسم ثلاثة أقسام ، أعني الابتداء والتوسط ، والانتهاء . ومثال ذلك مبدأ أثر النفس في النبات ، أعني أنه ظهر معنى يقبل الغذاء الموافق ، وينفي الفضل وما ليس بموافق ، ويحفظ صورة النوع — سمي هذا الطرف الأول نفسًا نباتية[2] .

---

(1) هو أبو الحسن ثابت بن قرة [illegible] كان في مبدأ أمره صيرفيًا بحران [illegible] نقل إلى بغداد [illegible] في جملة المنجمين [illegible] وكانت ولادته سنة إحدى وعشرين ومائتين ، ووفاته في سنة ثمان وثمانين ومائتين ، راجع وفيات الأعيان ١/٢٧٨ — ٢٨٠ وفهرست ابن النديم ص ٣٨٠ .   (2) في الأصل « سانيا » .

ثم لما قوِيَ هذا الأثرُ حتى صار ينفعلُ مستعدًّا لقبولِ غذائِه، وصارت له حواسُّ وإرادةٌ سُمِّيت هذه المرتبةُ المتوسطةَ والحيوانيةَ.

ولما قوِيَ هذا الأثرُ حتى صار — مع هذه الأحوال — يُرَوِّي ويفكِّرُ، ويستعملُ التمييزَ بتقديمِ المقدماتِ، واستنتاجِ النتائجِ، ثم يعمل بحسبها سُمِّي ناطقًا، وعاقلاً، وما أشبه ذلك.

ولكل واحدة من هذه المراتبِ لو قُسِّمت — مراتبُ كثيرة إلا أنّ الأَوْلى في كل ما جرى هذا المجرى أن يُقسَمَ إلى: المبدأ، والوسطِ، والنهاية، كما أن ذلك في القوى الطبيعية التي في الحرارة والبرودة وما جرى مجراهما إنما تقسم إلى ثلاث[1] مراتب، أعني الابتداء، والوسط، والنهايةَ. وإن كانت كلُّ واحدة من هذه مراتب ينقسم أيضًا، وإذا استتمت جميع القوى وحدث الأمر فيها جارٍ هذا المجرى.

فأما قولك: هل يجوز أن تكون ثلاث نفوس، فهي إنما تكونُ واحدةً أولاً، ثم اثنتين، ثم تستكملُ فتصير ثلاثًا، وقد مضى شرح هذا.

(١٦٧)

مسألة

لِمَ صار البحر في جانب من الأرض؟ [١٦٥ ا]

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

لولا حكمةٌ عظيمة اقتضت أن ينحسرَ الماء عن وجه الأرض لكان الأمرُ

(١) في الأصل «ثلاثة».

الطبيعيُّ يوجبُ أنْ يكونَ الماءُ لابساً وجهَ الأرضِ أجمعَه حتى تصيرَ الأر[ض]
في وسطِهِ شبيهةً بمُخِّ البيضِ والماءُ حولَها شبيهٌ بالبياضِ ، والهواءُ محيطٌ بهما
ما هو موجود الآن ، والنارُ محيطةٌ بالجميع ؛ ليكونَ الأثقلُ الأولُ بالمركزِ و
الأرضُ في موضعه الخاصِّ من المركزِ ، ويليه الماءُ الذي هو أخفُّ من الأر[ض]
وأثقلُ من الهواءِ ، ويليه الهواءُ ، ثم النارُ على رسوم الطباع . ولكنْ لو تُرِ[كت]
هذه الأشياءُ ورسومُها الطبيعيةُ لم يكنْ على وجه الأرضِ عمارةٌ من نبات وحيو[ان]
وبَشَر وبهيمة وطير ، وقد تعلقت هذه الحكمةُ العجيبةُ ، والعظمة [illegible]
ذلك خروجَ بين مركزِ الشمسِ ومركزِ الفلكِ الأعلى ، فسبب هذا أنْ [illegible]
الشمسُ تدور على مركزٍ [illegible] خارجٍ عن الأرضِ ، أعني أنّ مركزه [illegible]
من الأرض ، [illegible] عن مركزه [illegible] من ناحية [illegible] من الأ[رض]
ويُحدِثُ من [illegible] وصارت الناحية التي تقرُب [illegible] يحمى بها [illegible]
الماء حتى [illegible] منجذب إلى الجهة التي يحمى [illegible] وإذا انجذب
هناك انحسرَ عن وجه الأرض الذي [illegible] من الشقّ الذي تبعُدُ عنه الشمس
وإذ انحسر عن وجه الأرض حدث من جميع كرةٌ واحدة أعني من [illegible]
والأرض ، إلا أنّ شقَّ الكرة الجنوبي الذي تقرُبُ الشمس فيه من الأ[رض]
مكان الماء وهو البحر ، وشقّ الكرة الشمالي الذي تبعد عنه الشمس من الأ[رض]
يبس ظهر فيه الأرض .

[١٦٥ب] ثم وجب بعد ذلك أن تنصب عليه الحيوان ؛ ليستقيم الحكمة ، و[illegible]
أمرُ العالمِ على ما هو به موجود .

عزّ مُبدئ الجميع ومُنشئه ، وناعمه ومقدّره ، وتبارك اسمه ، وجلّ جلاله ،
وتقدّست أسماؤه ، وتعالى عمّا يقول الظالمون علوًّا كبيرا .

(١٦٨)

مسـألة

لِمَ صارت مياهُ البحرِ مِلحاً ؟

الجـواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

إنما ذلك لأجلِ قُرْبِ الشمسِ من سطحِ مائه ، وتمكُّنِها من طَبْخِه ، ومن طبيعة الماء إذا أثَّرتْ فيه الحرارة بالطَّبْخِ أن يتحلّلَ لطيفُه إلى البخار ، ويبقَى الدقيق أثرٌ من الملوحة ، فإن زادت الحرارة ودامت صار ذلك الماء شديد الملوحةِ ، ثم انتهى في آخرِ الأمرِ إلى المرارة .

وأصحابُ الصنعةِ يديرون ماء ملح بالنار ، ويدبِّرونه حتى يكثُرَ تردُّدُه على النار فيصير — بذلك — الماء حارًّا حتى يضربُ إلى المرارة .

(١٦٩)

مسـألة

إذا كان المرئيُّ لا يُدرَكُ إلا بآلة ، وتلك هي الحسُّ ، فما تقول فيما يراه النائم ؟ .

أَلَمْ يُدرِكْهُ من غير حِسٍّ ، ولا انبِثاثِ شُعَعٍ ، ولا بِعَمَلِ آلةٍ ؟

الجـواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

قد كنّا بيّنّا في مسألة الرؤيا وما أجبنا به عنها ما فيه غِنًى عن تكلُّفِ

الجوابِ عن هذه المسألةِ. ولكنّا نذكرُ جملةً وهو أنّ الحواسَّ كلها ترتقي إلى قوةٍ يُقال لها الحِسّ المشترَكُ. وهذا الحِسُّ يقبل الآثار من الحواسّ / ويحفظها [١٦٦-ا]
عليها في القوّة التي تُعرف بالوهمِ. فإذا غاب المحسوس أحضرتْ هذه القوّة صورةَ ذلك المحسوسِ من الوهم: سواء كان مرئيًّا، أو مسموعًا، أو غيرَهما من الصُّور المحسوسات. وليس يمكنُ أن يحصُلَ في هذه القوةِ شيءٌ من الصور إلا ما قبِلَتْهُ وأخذته من الحواسّ.

وقد مرَّ هذا الكلام في الموضع الذي ذكرناه به مستقصًى مع الكلام في حَدّ المرئيّ وما يتبعه.

(١٧٠)

مسألة

لا يخلو في طلب شيءٍ من أن يكون قد علِمْنا ذلك المطلوب، أو لم نعلمه.

فإن كنا قد علمناه فلا وجه لطلبنا له ولا تعب من ورائه.

وإنْ كنّا لا نعلمُه فمحالٌ أنْ نطلبَ ما لا نعلمُه وعاد أمرُنا فيه مثلَ الذي أبقَ له عبدٌ لا يعرفُه وهو يطلبه.

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله:

لو كان طلبُنا للشيءِ إنما هو من وجهٍ واحدٍ، وذلك الوجهُ مجهولٌ لكان الأمرُ على ما ذكرْتَ لكنّا قد تقدّمنا قبلُ فشرحنا أنّ كلّ مطلوبٍ يمكنُ أن يُبْحَثَ مِنْ أمْرِه عن أربعةِ مطالبَ: أحدُها إنِّيَّتُه، وهذا البحثُ بِهَلْ، ثم

هل ، ثم ما ، ثم لِمَ . وهذه جهات لكل مطلوب . وإذا عُرِفتْ جهة جُهلتْ أخرى . وليس ينبغي أن نخلطها بالأخرى . مثالُ ذلك أنك إن بحثتَ عن جِرْمِ الفَلَكِ التاسع : هل له وجود ؟ فتبيّن هذا المطلبُ ، بقيتْ الجهةُ الأخرى وهي جهةُ ما هو ؟ لأنك قد عرفت جهةَ هل ، وجهِلْتَ جهةَ ما . فإذا عرفت هذه الجهةَ بقيتْ الجهةُ الثالثةُ وهي جهة أيّ . وقد شرحت هذه الجهات فيما مضى فإذا حصلت هذه بقيتْ جهةُ العلّةِ المحتوى ، أعني لِمَ . وهي البحثُ عن الشيء [١٦٦ب] الذي من أجْلِهِ وُجِدَ على ما وُجِدَ عليه من الكمية والكيفية . فإذا عُرِفت هذه الجهةُ لم تبقَ من أمره شيء مجهول . فالجزئيات للأمور التي لا نهاية لها وليس يُبْحثُ عن ذلك ، بعينها بعدة فيها أعني أن نطلب مساحتها ، ومبلغ عددِ الأجزاء التي تمسحها ، ونسبةَ كلّ جزء إلى غيره ، ووضعُه ، وما أشبهَ ذلك . وهذه مطالبُ هي بحثُ مصنّف كتب وغيره من المقولات في أنواعها وأشخاصها .

وإذا عرفت الجنس الذي لا تطلبُ جزءه لحصول الجهة لعينه فقد صحّ أن المطلوب به هو الجهة المجهولة ، لا الجهة المعلومة ، وأن الشيء الواحد قد يُعلم من جهة ، ويُجهل من جهة أخرى ، وزال موضع الشك إن شاء الله

(١٧١)

مسألة

لِمَ لا يجيء الثلج في الصيف كما قد يجيء المطرُ فيه ؟ .

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله :

الفرقُ بين حالَي الثّلجِ والمطرِ أنّ البخار إذا ارتفع من الأرض حمل معه

جزءاً أرضيّاً. ويكونُ مقدارُ هذا الجزء الأرضيّ ما يخفُّ مع البخار، ويتحرَّك معه، ويصْعد بصُعوده كالهَبَاءة التي تراها أبداً في الهواء. فإنّ ذلك القدْرَ من أجزاء الأرض بِخفَّته يتحرَّكُ بحركَةِ الهواء، ويصْعَدُ مع بخار الماء. فإذا اتفق وقتَ صُعودِ هذا البخارِ أنْ يُصيبَه في الهواء بَرْدٌ شديدٌ حتى يَجْمُدَ — جمدَ معه الجزءُ الأرضيُّ، وتَثقُـلَ مما يكْتَسِبُه من انضمامِ البعضِ إلى البعضِ بالبرْدِ فانْخفض إلى أسفل، وهو الثَّلْجُ.

وإن اتفق أنْ يكونَ البرْدُ الذي يلحقُه يسيراً لا يبلغ أنْ يُجمِدَه عقد البخارَ قطراً تخرج منه الماء الذي فيه، وهو المطر.

[١٦٧ ا] وقد يدل على أن في الثلج جزءاً أرضيّاً [illegible] الذي فيه الثلج وسلامة المطرِ منه. وأيضاً [illegible] في الثلج جرم البخارِ بعينه. أعني الحالة التي ليست هي ماء ولا هواء، [illegible] صيغة البخار. فأمّا المطر فلا [illegible] منه، وهو ماء بعينه.

وكذلك يصيبُ آكِلَ الثلجِ من الثلجِ، والأسبابِ العارضةِ من [illegible] ما لا يصيبُ شاربَ ماءِ المطر.

وإذ قد وَضَح الفرقُ بين المطرِ والثلجِ فإنّا نقول في جواب مسألتك

إنّ الشتاء يَشْتَدُّ فيه بَرْدُ الهواء حتى يُجمِدَ البخارَ الصاعدَ إليه من الأرض

فيردّ ثلجاً.

فأمّا الصيفُ فليس يشتدُّ فيه بَرْدُ الهواء، ولكنْ قد عَرَضَ فيه من البرْ

قَدْرِ ما ينعقِدُ البخارُ ثم ينعَصِرُ فيجيءُ منه مطرٌ.

(١٧٢)

مســـألة

ما الدليل على وجود الملائكة ؟.

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله

إن الكتاب والسنة مشحونان من ذكر الملائكة، وهم خلق شريف لله — تعالى — وهو غائب عن مشاهدتنا. ومن العقل فيه ما يوجب وجوده[1] من طريق أن العقل إذا قسم شيئًا وجد له قسمًا لا يجتمع معه محال.

وذلك أن قسمة العقل هي الوجود الأول، والحق المحض الذي لا يعترضه مانع، ولا يعوق عنه مادة. فإذا قسم العقل فقد وجد الوجود معنًى، وإذا حصل هذا[2] الوجود بعينه الوجود الحسي والوجود الطبيعي؛ لأن هذين متشبهان بالعقل، مقتديان به، تابعان له، غير مقصرين، ولا وانيين.

وسكون الطبيعة تحتاج في هذا الاقتداء إلى حركة؛ لقصورها عن الإيجاد التام؛ ولذلك قيل في حد الطبيعة إنها مبدأ حركة. ولأن العقل إذا قسم [١٦٧-ب] الجوهر إلى الحي، وغير الحي — قسم الحي منه إلى الناطق، وغير الناطق، وقسم الناطق منه إلى المائت وغير المائت فيحصل من القسمة أربعة وهي:

حيٌّ ناطق مائت

وحيٌّ غير ناطقٍ غير مائتٍ.

وحيٌّ ناطق غير مائتٍ.

(١) في الأصل « وحوده »

(٢) في الأصل « في هذا ».

وحيٌّ غيرُ ناطقٍ مائتٍ

والقسم الثالث هم المسمَّون ملائكة، وهي مشتركة في أنها غير مائتة، ومتفاضلة في النطق. وبهذا التفاضل صار بعضهم أقرب من الله — تعالى — من بعض، وبه أيضاً صرنا — نحن معشر البشر — متفاضلين في التقرُّب إلى الله — تعالى — والبعد منه، ولأجله قيل: فلانٌ شبيهٌ بمَلَكٍ، وفلانٌ شبيه بشيطان، وبسببه قيل: فلان عدوُّ الله، وبسببه قيل: فلان وليُّ الله، وفي الشرع يقال: لعنَ الله فلاناً ومقَتَه، وقرَّب الله فلاناً وأدناه.

وقد يمكن أن يُثبَت وجود الملائكة من طريق البرهان وقضاياه الظاهرة في هذا العلم، ولكن يُحتاج في ذلك إلى مقدمات كثيرة، وبسطٍ للكلام أُخرَج به عن الشرط الذي شرطته في أول هذه المسائل، فاقتصرت على ما ذكرته، وهو كافٍ إن شاء الله.

(١٧٣)

مسألة

وسألت — أيدك الله — عن آلام الأطفال، وما لا تمييز له من الحيوان، وعن وجه الحكمة فيه.

الجواب

قال أبو علي مسكويه — رحمه الله —:

أما هذه المسألة فإنها تتوجه إلى من أثبتَ جميعَ الأفعالِ التي ليست للناس منسوبةً إلى الله — تعالى — ولم يعترف بأفعال الطبيعة، ولا بأفعال الأشياء [١٦٨-ا] التي هي وسائطُ بيننا وبين الله — تعالى — فإن المتكلمين كالمجمعين على أنّ

الحرارة، والإحراق، ونسب ذلك إلى أفعال الطبيعة، وما تستفيده من الأوساط التي فوّض الله إليها تدبير عالمنا من الأجرام، والكواكب كلها أفعال الله تعالى — بلا واسطة يتولاها بنفسه.

وفي مناقضة هؤلاء القوم طول، ولو أحببت أن أفرد له مقالة أو كتابًا فعلت.

فأما من زعم أن النار حدثت بنفسها، وأن حدوث الماء أشبهه، وكذلك كل عنصر ومركّب، وكل شيء وأثر ينسب من الطبيعة إلى النفس، فإنه يؤثر في جميع ما قبله من مختلفة لاختلاف القوابل، وثم لاختلاف القوى فإن عنده غير لازمة.

ولا يسعني أن أتكلم من وجه لم أُسأل عنه، فلذلك لم أتكلف جوابه.

وقد ظهر من مقدمات ما أومأت إليه جوابُ مسألتك إن شاء الله.

(١٧٤)

مسـألة

لم كان صوتُ الرعد يتأخر كثيرًا ويبعد من رؤية البرق إلى أبصارنا.

الجـواب

قال أبو علي مسكويه رحمه الله

أما البرقُ فإنه من استحالة الهواء إلى الإضاءة

ولما كان الهواء سريعَ القبول للضوء، صار يستضيء في غير زمان،
وذلك أن الشمسَ حين تطلعُ من المشرق يضيء جميع الهواء في المغرب بلا زمان،

وكذلك الحسّ في كلّ معنى، كالنار ومن أشبهها إذا قرن الهواء [قَبِلَ] منه[1]
الإضاءة بلا زمان — وكان[2] الهواء متصلاً بالبصر، لا واسطة بينها وبينه —
[١٦٨ب] وجب أن يكون إدراكه / أيضاً بلا زمان؛ ولذلك صرنا أيضاً ساعة نفتح
أبصارنا ندرك زحل[3] وسائر الكواكب الثابتة[4] المضيئة إذا لم يعترض
في الهواء عارض يستر ويحجب.

فأما إذا عرض كون أثره في الهواء بسبب الحركة والتموّج لا بطريق[5]
الاستحالة — وجب أن يكون وصوله إلى السامع بحسب حركته في السرعة
والإبطاء، وذلك أن الصوت الذي هو قرع في الهواء يتموّج ما بينه من الهواء
كما يتموّج سطح الماء الذي يليه من الماء إذا قذفت فيه، ثم يلبث ذلك أن يتموّج
بعضه من إلى بعض، ويدفع الهواء بعضه على طريق المدافعة بين الأجزاء
إذا كانت متصلة.

فكما أن سطح الغدير إذا تموّج حرّكت ما يليه في زمان، ثم ما يلي ما يليه
إلى أن ينتهي إلى الجانب الأقصى منه حتى تصير بينهما مُدّة وزمان على قدر
اتساع سطح الماء، فكذلك حال الهواء إذا قَرَعَ فيه الجسمُ الصلبُ حرّك
ما يليه من الهواء، وتموّج به، ثم حرّك هذا الجزء ما يليه في زمان بعد زمان
حتى ينتهي إلى الجزء الذي يلي آذان السامعين به؛ ولذلك صار صوت وقع
الحجر على الحجر إذا رآه الإنسان من بعيد يصل إلى السمع بعد

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.
(٢) معطوف على « كان هو سريعاً ».
(٣) زحل من الكواكب السيارة وهي: زحل، والمشترى، والمريخ، والشمس
والزهرة، وعطارد، والقمر وهي معروفة.
(٤) الكواكب الثابتة هي النجوم كلها ما خلا الكواكب السيارة وسميت ثابتة لأنها
تحفظ أبعادها على نظام واحد ولا يتغير عرضها، راجع مفاتيح العلوم ص ١٢٣
(٥) في الأصل « بلا طريق ».

زمانٍ من رؤيتنا إياه. وكذلك حالنا إذا رأينا القَصّار[1] من بعيد على طرف وادٍ فإنا نرى حركة يده، وإلاحتَه بثوبه[2] حين رفعه وضربه الحجرَ قبل أن نسمع صوتَ ذلك بوقتٍ زمانيّ.

فهذه سبيل حال البرق والرعد؛ لأن السحاب يضغط بعضه بعضاً فتنقدح من ذلك الاصطكاك ما ينقدح من كلّ جسمين إذا اصطكّا بقوة شديدة، ويخرج / أيضاً [من] بينهما صوتٌ. [١٦٩-أ]

وهما جميعاً — أعني البرق والرعد — يحدثان معاً في حالٍ واحدة؛ إذ كان سببهما جميعاً الضغط والقرع، أعني حركة الجسم للضغط والقرع بعضه بعضاً حال الشدة والحدة، إلا أن البرق يحس منه الضوء بلا تسخين إلى سكون بلا زمان فنحسه في الوقت.

فأما الرعد فيتموّج منه الهواء الذي في السحاب المتصعّد، ثم يتموّج أيضاً ما يليه، ويسري في الهواء بعد طرء إلى أن ينتهي إلى الهواء الذي يلي سمعنا في زمان فنحسّ به حينئذ.

(١٧٥)

مســـــألة

إذا كان الإنسان على مذهبٍ من مذهب ثم ينتقل عنه بعد ... فما ينكر أن ينتقل عن المذهب الثاني مثل انتقاله عن الأول، ويستمر ذلك به في جميع المذاهب حتى لا يصح له مذهب، ولا يصح له حق.؟

---

(١) في اللسان: قصر الثوب قصارة ... عن سيبويه، وقصّره كلاهما: حوّره ودقه، ومنه سمي القصّار.

(٢) في اللسان: وألاح بثوبه ولوّح: أخذ طرفه بيده من مكان بعيد ثم أداره ولمع به، يريه من يحب أن يراه. وكل من لمع بشيء وأظهره فقد لاح به وألاح.

الجـــواب

قال أبو علي مسكويه – رحمه الله:

لو كانت الإقناعاتُ ومراتبها متساوية في جميع الأمور لما أنكرتُ ما ذكرتَه

ولكني وجدتُ مراتبَ الأدلةِ والإقناعاتِ فيها متفاوتة: فمنها ما يُسمّى

يقيناً، ومنها ما يسمى دليلاً وفيه إقناع بحسب مقدمات ذلك القياس، ومنها

ما يسمّى ظنّاً وتخيّلاً، وما أشبه ذلك. ولا يمكن أن تَسْتَوِيَ الأحوالُ في

الآراء مع تفاوتِ الأسباب الموضوعة فيها. من ذلك أن القياسَ إذا كان

برهانياً وهو أن تكونَ مقدماته مأخوذة من أمورٍ ضروريةٍ، وكان تركيبه

صحيحاً — حدثت منه نتيجة يقينية لا يعترضها شكٌّ، ولا يجوز أن ينتقل

[١٦٩ب] عنه، ولا يسوغ فيه خطأ. وكذلك(١)

* * *

التي اشتدت بها [illegible] الحرارة في الأسد يكون حصيها بكثرة المادة

ومقاومتها، فإذا قويت الحرارة تدرجت وأمعنت في غاية نضجها. [illegible] كان زمان

الشباب، وكأنه صعود وحال ثبات حتى ينتهي، ثم يقف وقفة، كما يعرض

في جميع الحركات الطبيعية، ثم ينحط وهو زمان الكهولة، ولا يزال في

نقصان حتى يفنى فناء طبيعياً كما وصفت، وهو زمان الشيخوخة والهرم. ولو

كان في زمان «جالينوس» من ضبط ما [illegible] حتى حكاه عنه، ولو ذكرته [illegible]

عرض صوتي تحدث منه من كان [illegible] عليه مدهشة.

(١) [illegible]

هذا آخر ما أملت في « الهوامل »

وقد سلكتُ في الجواب عن جميع المسائل التي احتويته وقرحته من الاختصار والإيماء إلى النكت، والإحالة على ما يحتاج إلى شرح إلى مصادره من الكتب

نفعك الله بها، وعلمك ما فيه خير ما في منه وطوله

الحمد لله رب العالمين وصلواته على رسوله محمد وآله أجمعين

استدراكات

صفحة	سطر	صواب
٢	٢،٣	«أسرتَ .. وأقوت»
٣	١	«تهجم»
٥	٣	«تهيج»
٥	١٠	«وانمطه»
٦	١٤	«في مدة»
٧	١٧	«والمشكّكة»
٩	٦	«من»
١٠	١١	«مُنها»
١١	١٢	«تتصرّف»
١٨	٨	«فني»
٢٠	٦	«وقرني»
٢٣	١٦	«للأسماء»
٢٥	٢	«معصها»
٣٥	١٥	«بأمر»
٣٧	٥	البيت لسعيد بن حميد كما في الأغاني ١٧/٦
٣٨	٢٠	«عبد»
٣٩	١	«الأبلى»
٤٢	٨	«تيقن»
٤٤	١٤	«تحيير»
٤٧	١٠	«ما تميّز»
٤٨	١٧	«تُسِرُّهُ»
٥٠	٧	«بالنثر السحيل»
٥٤	٧	«تُشارِكُ المتعصِّب»
٥٦	٨	«والواهمَ»
٥٨	١٧	«لم»
٥٩	١٢،١٣	«ذكرتَ»
٦١	٢	«المودةُ»
٦١	٣	«الودُّ»
٦٣	٢١	«الحرذان»
٦٨	١٧	«مُستَحصِفًا» من استحصف الشيء: استحكم، وثوب حصيف محكم النسج صفيقة، والمراد أن الجيد لا يبعد منه الشعر.
٧٢	١٣	«الإنسان»
٨١	١٠	«يدير»

صفحة	سطر	صواب
٨١	١١	من[نقطة] مفروحة
٨٦	٤	« عدوها »
٩١	١٨	وطن له كره ن
٩٣	١٦	« الإبار »
٩٩	١٤	« المموّل »
١١٠	٣	« نا »
١١٠	١٩	« (٢) »
١١٣	٨	« بمسه »
١١٣	١٤	« القوة »
١١٤	٢١	« والخفقان »
١١٥	١٠	« وكلّ ما »
١١٩	١٨	« هيئه »
١٢٥	٢	« الرؤى »
١٢٤	١١	« تأحدت »
١٢٦	٢	« للأشباه »
١٢٧	٦	« ه راه في »
١٢٧	١٠	« الصب »
١٢٨	١	« الصُّور »
١٢٨	٥	« حمية »
١٢٩	٨	« أعيا من باقل »
١٣٦	٤	« العرض من »
١٥٩	٦	« سين »

صفحة	سطر	صواب
١٦٣	٤	« تزيين »
١٦٦	٢	« اذوبي »
١٦٩	٨، ٩	« حَنَقَ »
١٦٩	٨	« لحنق »
١٧٣	٢	« أمثل »
١٧٦	١١	البيت لأبان اللاحق كما في خزانة الأدب ٣ ٢٥٦
١٧٩	١٥	« المديبه »
١٨٠	١	« عيبة »
١٩٠	٢٠	« وطاقة »
١٩٢	٣	« وجوفه »
١٩٤	١٣	« الرياسة »
١٩٦	١٣	« الرياسات »
٢٠٨	٣	البيت لابن الرومي كما في أمالي المرتضى ٣/٧٩
٢٠٨	١٩	« ما يدمى »
٢١٦	١٩	« واحداً »
٢١٨	١٢	« والغرض منه »
٢١٩	١٠	« وهمجية »
٢١٩	١١	« الذي »
٢٢٠	١٢	« في ائتلافهما »

صفحة	سطر	صواب
٢٢٦	١٣	« نحيت »
٢٢٦	١٢ — ١٤	أثبت في « الإشارات [illegible] » ص ٧٩
٢٤٤	٤	« [illegible] »
٢٤٥	١١	« [illegible] »
٢٤٩	١	« [illegible] »
٢٥٢	١	« كا »
٢٥٢	٥	« ورد »
٢٥٥	١٧	« وكذلك »
٢٥٩	٦	« [illegible] »
٢٦٥	١٥	« تحدى »
٢٧٠	١٣	« كبيرة »
٢٧٠	١٩	والمرد [illegible] [illegible] يوقف [illegible] على [illegible] ى يطعمه [illegible] حصته على ايدى [illegible]
٢٧٤	١٠	« الفلاسفة كمناقضتهم »
٢٧٦	٥	« يذهل »
٢٧٧	٣	« [illegible] »
٢٧٧	١٧	« كلامه »
٢٧٧	١٩	« يذهل »
٢٨٥	١٤	« بالقلم »
٢٨٥	١٦	« [illegible] »
٢٩٠	٩	« رجل »
٢٩٥	١	« شعب »
٢٩٥	٨	« لا يصح »
٢٩٧	٤	« بطلان »
٣١٠	٢٠	« بأحد »
٣٢٤	١٥	« ولم »
٣٢٦	١٥	« [illegible] »
٣٢٨	٦	« [illegible] »
٣٣٢	٥	« والإجماعات »
٣٣٤	٦	« في الإنسان »
٣٣٤	١١	« [illegible] »
٣٤٠	١٣	« [illegible] »
٣٤٨	١٦	« [illegible] »
٣٥٤	١٤	« أعوار »
٣٢٥	٩	« مئة »

فهارس الكتاب

فهرس الأعلام

فهرس القوافي

الأمم والفرق والجماعات

البلدان

فهرس الكتب

فهرس المسائل

رقم المسألة | رقم الصفحة

رقم المسألة | رقم الصفحة







